

قَضَايَا
مِنَ الْفِكْرِ الإِسْلامِيِّ الْحَدِيثِ

تأليف

الدكتور/عبداللطيف محمد العبد

أستاذ الفلسفة الإسلامية

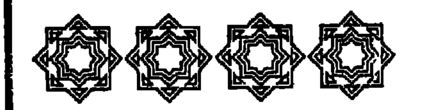
بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة

الطبعة الأولى

١٤٢٦هـ = ٢٠٠٥ م

دار الهاني للطباعة والنشر بالقاهرة

ت ٤٤٤٢٠٥٥



رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
١٩٥٢٨/ ٢٠٠٤

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله، والشكر له ﷻ، على نعمه التي لا تحصى، وفي مقدمتها الإسلام.

والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين، محمد بن عبد الله، وعلى آله، وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فهذه دراسة مختصرة عاجلة أقدمها لطلاب العلم بعنوان: "**قضايا من الفكر الإسلامي الحديث**"، قصدت بها وجه الله تعالى أولا، ثم هدفت إلى تنوير الشباب المسلم ببعض القضايا التي تدور من حولهم، ولها تأثير بالغ في حياتهم، نظرا لصلتها بدينهم الإسلامي، وبكتابهم المقدس، وبنبيهم، مما يكون له انعكاس شديد على حياتهم و تاريخ أمتهم.

وهناك رباط يربط بين هذه القضايا التي سنعرض لها في هذه الدراسة، وهو "المؤامرة على الإسلام"، والنيل من أصوله الإيمانية، ومن كتابه المقدس الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه، وهو تنزيل من حكيم حميد، ومن صاحب هذه الرسالة الأمين ﷺ.

وسوف تتجلى روح العداء للإسلام فيما نعرضه من موضوعات مثل: التبشير أو التنصير، والاستشراق، والعلمانية، والعولمة، وغير ذلك.

وليس من هدفنا هنا إثارة روح التعصب والحقد والكراهية، كما يفعل أعداء الإسلام، وإنما المراد هو تنبيه أبناء الأمة الإسلامية إلى ما يحاك ضدهم من محاولة السيطرة، وكتم أنفاسهم؛ كي يظلوا متخلفين عن اللحاق بركب السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم، الذين نشروا الإسلام، وملأوا الدنيا نورا وهدى.

ما الذي يمكن أن يقال اليوم في شان الأمة الإسلامية، التي ضعف تمسكها بعقيدتها وبأحكام شرعها، وتهاونت في حقوقها، وتخلفت عن ركب العلم والحضارة، وعاشت على حب الدعة والراحة، وارتضت بكل ما هو مستورد، وفقدت الأمانة مع نفسها حين ظنت أنها متحضرة ؟!

لقد غفلت الأمة عن الإرشاد الإلهي الذي يقول:

﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾

والذي يقول: **﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرّقوا﴾**.

أين الأمة الإسلامية من هذا التوجيه الرباني، مع أن الأثر واضح لها، من إحاطة الأعداء بها من كل جانب سابقا واليوم؟

نسأل الله تعالى أن نعود إلى أصول ديننا؛ كي نتوحد ونتراحم ويعطف بعضنا على البعض الآخر. وبالله الهداية والتوفيق.

أ.د.عبد اللطيف محمد العبد

تمهيد عن:

المؤامرة على الإسلام

حينما أنعم الله عز وجل علينا بالإسلام العظيم، شاء سبحانه وتعالى، أن يضعنا موضع الابتلاء والاختبار، كما قال سبحانه:

﴿أحسب الناس أن يُتْركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ۞ ولقد فتنّا الذين من قبلهم فليعلمنّ الله الذين صدقوا وليعلمنّ الكاذبين﴾. {العنكبوت:٢،٣}.

لقد كان من السهل على أي إنسان أن يدعي أنه مؤمن مسلم، وأنه بلغ أعلى درجات الإيمان والإسلام، ولكن الله ﷻ يختبر قوة إيمانه بما يصادفه من عقبات مثل: الاعتداء على دينه أو كتابه أو نبيه أو عليه هو شخصيا أو على وطنه. وهنا تتجلى حقيقة الإيمان في الصمود على الدين والدفاع عن العقيدة والوطن وعن العرض والنفس؛ ليميز الله الخبيث من الطيب.

لقد أثبت التاريخ أن الإسلام قوبل بألوان من العداء من يوم أن أنزله الله تعالى، ومن يوم أن صدع به رسول الله ﷺ على صخرة الصفا. فحين قال لمن يصفونه بالأمين: "**إني رسول الله إليكم جميعا**": رد أقرب الناس إليه وهو أبو جهل وقال له: "**تبًا لك ألهذا جمعتنا!**".

وانظر إلى الصراع الذي دار بين النبي ﷺ وبين المشركين واليهود، مما دعاه إلى الدخول في حروب و غزوات تفوق الثلاثين.

إن العداوة للإسلام ولكتابه ولنبيه مقارنة لهذا الدين العظيم، و لن تنتهي في يوم من الأيام، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ويلاحظ أن المؤامرة على الإسلام لها روح واحدة، لكنها قد تخبو مؤقتا لتظهر من جديد في شكل آخر، لكن المنهج واحد، وهو محاولة النيل من الإسلام، ومن كتابه، ومن نبيه، ومن دولته، لإذابة المسلمين في أتون الأممية؛ فلا تكون لهم شخصية مميزة.

ما أشبه الليلة بالبارحة! فلا يوجد فرق بين الحروب الصليبية سابقا، وبين الاستعمار الغربي الجديد؛ فكلاهما يحمل خصومة الدين، ويطمع في السيطرة السياسية والاقتصادية.

وقل مثل ذلك في "الشيوعية" التي تحاول السيطرة على الأمم باسم مقاومة الأديان وهدم الأخلاق. وما "الصهيونية" بخافية على الجميع، حيث تدعم نفسها كفكرة و كدولة، وتحاول السيطرة الكاملة على فلسطين وعلى بيت المقدس، باسم الوعد الزائف الذي ينسبونه إلى التوراة.

{أنور الجندي: المؤامرة على الإسلام. ص١١ وما بعدها. ط ٢، ١٣٩٨هـ=١٩٧٨م دار الاعتصام بالقاهرة}.

واليوم يحاول أعداء الإسلام على اختلاف أشكالهم وألوانهم، أن يطبقوا أساليب أسلافهم، حيث يهاجمون أصول العقائد والقيم الإسلامية، ويزيفون تاريخ الإسلام، كما فعل السابقون من الباطنية والقرامطة.

وقد انتهز مفكرو الغرب كل فرصة للنيل من الإسلام وأهله باسم حركة علمية زائفة تسمى "الاستشراق"، وتلمسوا لدى ضعاف النفوس من مفكري الإسلام كل فكرة تخدم أهدافهم. ومن أبرز الذين اعتمدوا عليهم: أصحاب التأويل الباطني، والمعتزلة الذين رفعوا شعار العقل فوق النص، وأصحاب التصوف الفلسفي الذين يقولون بالحلول والاتحاد ووحدة الوجود، والذين جاءوا بفكر وثني، وقد أنكره علماء السلف.

لكن أعداء الإسلام يدّعون أن هذا هو الإسلام الصحيح، كي يشوهوا صورته في العالم كله. ولقد شاء المولى ﷻ، أن تبوء بالفشل كل محاولات الغلاة، ومن استغل آراءهم من المستشرقين وأذنابهم، فلم يعد عليهم بشروى نقير من أهدافهم الفاسدة، ومازالت القافلة تسير والذئاب تعوى، فلله الحمد والمنّة على نصرته لدينه:

﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا﴾ {سورة الفتح: ٢٨}.

خطط أعداء الإسلام من أجل تدميره:

١. **القضاء على الحكم الإسلامي:** بإنهاء الخلافة الإسلامية (العثمانية).

٢. **القضاء على القرآن ومحوه من الصدور والنفوس والحياة.**

٣. **تدمير أخلاق المسلمين:** وعقولهم، وصلتهم بالله، وإطلاق شهواتهم.

٤. **القضاء على وحدة المسلمين؛** لأن الوحدة كانت مصدر قوتهم وعزتهم يوما ما.

٥. **تشكيك المسلمين بدينهم:** بإثارة الشبهات، وتتبع المتشابه: ﴿**هو الذي أنزل عليك...**﴾، ﴿**فأما الذين في قلوبهم زيغ....** ﴾.

٦. **إضعاف العرب دائما:** لأنهم مفتاح الأمة الإسلامية.

٧. **إنشاء ديكتاتوريات سياسية في العالم الإسلامي:**

أ- إبعاد المسلمين عن الديموقراطية الحقيقية التي قد يزدهر الإسلام في ظلها. ونحن لا نريد إلا الشورى.

ب-إبعاد القادة المسلمين الأقوياء عن تولي الحكم.

٨. **إبعاد المسلمين عن تحصيل القوة الصناعية، ومحاولة إبقائهم مستهلكين لسلع الغرب.**

٩. **إفساد المرأة، وإشاعة الانحراف الجنسي:** مع الترويج لكل من (الزواج العرفي، السري، المسيار).

{جلال العالم: دمّروا الإسلام أبيدوا أهله. ص٤٧-٦١، ط١٩٧٤، دار الاعتصام بالقاهرة}

وإليكم قضايا هذا الكتاب:

١- التبشير.
٢-الاستشراق.
٣-العلمانية.
٤-العولمة.
٥-مفهوم الحضارة في الإسلام.
٦-قضية الأصولية.
٧-جمال الدين الأفغاني.
٨-الإمام محمد عبده.



١ - التبشير

تعريفه:

• إن التبشير أو التنصير(Evangelization): هو ذلك الجهد الذي بذله أهل الاختصاص من النصارى؛ بهدف تحويل المسلمين، أو من ليس لهم دين منزّل، إلى النصرانية، وتقديم الإنجيل والكنيسة بدل القرآن والمسجد.

• وليست هذه الظاهرة أمرا جديدا، لكنها تضرب بجذورها إلى عصر النبيّ ﷺ. فقد جاءه وفد نصارى نجران وجادلوه وعرفوا أنه النبي الحق الذي كانوا يبشرون به، لكنهم خافوا على مراكزهم وعلى ما يرد عليهم من أموال؛ لهذا لم يُسلموا بين يدي النبي ﷺ، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم. ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تآمروا عليه ﷺ وحاولوا قتله والقضاء عليه:

﴿يريدون ليطفؤا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون۝ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾. {سورة الصف:٨،٩}

لقد فضح القرآن الكريم أمر هؤلاء الذين حرّفوا الإنجيل:

﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾. {البقرة:٧٩}

• ولم يقف علماء الإسلام مكتوفي الأيدي أمام ظاهرة تحريف الإنجيل بصفة خاصة، والكتاب المقدس بصفة عامة. ومن هؤلاء: الجاحظ في رسالته للرد على النصارى، وابن حزم، والشهرستاني، وابن تيمية، وابن القيم، والقرطبي، والشيخ الهندي رحمة الله في كتابه "إظهار الحق".

{د. محمد سيد الجليند: تيارات فكرية معاصرة، قراءة تحليلية نقدية. ص٧١ وما بعدها. ط١٤١٩هـ=١٩٩٨م دار الثقافة العربية بالقاهرة}.

• وقد صار للتبشير أو للتنصير سلاحان طويلان وهما: الاستعمار والاستشراق. فهذه الثلاثة تلتقي على هدف واحد، هو السعي إلى توسيع رقعة المسيحية بين أقطار العالم الإسلامي في الشرق.

• وكان هدف الاستعمار الغربي هو السيطرة العسكرية من أجل التبشير، ومن أجل مطامع أخرى شخصية واقتصادية. لكن التبشير قد تقدم الاستعمار، لأن التبشير بدأ مع الحروب الصليبية في القرن الثاني عشر الميلادي، وكان رائدا لحملة الاستعمار والاستغلال.

{العقاد: الإسلام في القرن العشرين، ص٤٠ طبعة القاهرة}.

• ومن خلال الحروب الصليبية، حاولت الدول الاستعمارية اللجوء إلى القناع الديني؛ من أجل بث الحماس لدى النصارى، كي يساعدوها على تثبيت نفوذها ونشر مبادئها على أوسع نطاق في الشرق الإسلامي، حسب طاقاتها.

• ومن الجرأة بمكان أن تقوم دول عظمى- بعد أن خلعت ربقة الدين- بالدعم المالي الكبير لحركة التبشير، مثل أمريكا وفرنسا.

ولا غرابة في ذلك لأن تلك الدول مسيحية، لكن الأشد غرابة أن تقوم روسيا الشيوعية بقيادة " ستالين" بدعم رجال الدين المسيحي لمساعدتهم على التبشير في العالم الإسلامي، مع أن روسيا تحارب الأديان السماوية.

• ولقد أدت حركة التبشير المركزة في مصر والهند، إلى إيقاظ المسلمين للحفاظ على دينهم. وقد قام الشيخ رحمة الله الهندي بالرد على تطاول المبشر "فندر" على الإسلام، وألف الشيخ كتابه الموفق: "إظهار الحق" عام ١٢٧٠هـ وترجم إلى اللغة العربية.

• وكذلك تم الرد على حركة التبشير في مصر من العديد من العلماء المسلمين، وترتب على ذلك قيام بعض المنظمات الإسلامية من أجل ذلك مثل: "جمعية الشبان المسلمين".

أهداف التبشير:

١. إن السبب الأساسي للتبشير هو الصراع الحضاري بين النصارى والمسلمين، من أجل تغلب النصرانية على الإسلام. ولهذا فإن التبشير قد استعان بالحملات العسكرية، ثم بالحركة العلمية التي تدعى "الاستشراق" من أجل توسيع رقعته في الأرض.

٢. تفريق وحدة المسلمين؛ كي يصبحوا بلا وزن ولا تأثير؛ لأن اتحادهم يجعلهم لعنة وخطرا على العالم كله.

{د.حسن الشافعي: في فكرنا الحديث والمعاصر ص٢١٢-٢٢٠، ط١٠ ١٤١٠هـ=١٩٩٠م دار الثقافة للنشر والتوزيع، بالقاهرة}.

٣. القضاء على كتاب المسلمين وهو القرآن، ومحاصرة المقدسات الإسلامية في مكة والمدينة؛ لأن هذه الرموز المقدسة توحد بين المسلمين على نحو ما.

❁❁❁

• هذا وقد قام المبشرون بإنشاء مدارس يسوعية، وجامعة أمريكية في بيروت ومصر واستانبول والخرطوم، بهدف التوعية بمنهج التبشير قبل التربية والتعليم.

• وللأسف الشديد فإن جهود المسلمين في الدعوة، جهود فردية مبعثرة وغير منظمة، لا تقاس بجهود المبشرين والمستشرقين في هذا المجال. وعلى المسلمين أن يتوحدوا وينشطوا؛ ليحفظوا على أنفسهم عقيدتهم وشريعتهم.

أساليب المبشرين في عملية التنصير:

١. التركيز على الجانب الاجتماعي كوسيلة لها أثرها القومي مثل: إنشاء مؤسسات تربوية وتعليمية، وبناء ملاجئ يتامى، ومستشفيات، وبعض النوادي.

٢. الاهتمام بالطبقات الفقيرة والعوامّ؛ نظرا لاحتياجهم إلى لقمة العيش أو العلاج.

٣. عدم الطعن في الإسلام مباشرة -بعكس الاستشراق- وإنما يتم التركيز على المشاكل التي تشغل بال المسلم، مثل الوظيفة، أو العلاج، أو المسكن، وغير ذلك بحسب الظروف والأحوال.

{ د.الجليند: تيارات فكرية معاصرة ص٧٦ }.

٤. الاهتمام بدور اللغة في التنصير، ولا سيما اللغة العربية؛ لأنها لغة القرآن الكريم.

وكان "روجر بيكون" (١٢١٤-١٢٩٤م) يرى أن التنصير هو الطريقة الوحيدة التي يمكن بها توسيع رقعة العالم المسيحي. ولبلوغ هذا الغرض لابد من توفر ثلاثة شروط هي:

أ- معرفة اللغات الضرورية، وخصوصا العربية.

ب-دراسة أنواع الكفر وتمييز بعضها من بعض.

جـ. دراسة الحجج المضادة حتى يمكن دحضها.

{د. محمود حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري. ص٣٤-٣٥. ط٢، ١٤٠٩هـ=١٩٨٩م دار المنار بالقاهرة}.

٢- الاستشراق

تعريفه:

الاستشراق(Orientalism):

هو الدراسات الغربية المتعلقة بالشرق الإسلامي، في لغاته وآدابه وتاريخه وعقائده وتشريعاته وحضارته بوجه عام.

والمستشرق(Orientalist):

هو كل عالِم غربي يشتغل بدراسة الشرق كله: أقصاه ووسطه وأدناه،في لغاته وآدابه وحضارته وأديانه، ولاسيما الإسلام.

• ومن الصعب تحديد تاريخ معين لبداية الاستشراق، لكن ظهرت بداياته الأولى في انجلترا منذ عام ١٧٧٩م، أي في نهاية القرن الثامن عشر للميلاد.

• إن الانتشار السريع والواسع للإسلام شرقا وغربا، قد شد انتباه رجال اللاهوت النصراني إلى هذا الدين؛ ومن هنا بدأ اهتمامهم بدراسة الإسلام من كل جوانبه.

• ولذا صارت الحركة الاستشراقية واحدة من أخطر المؤثرات على الفكر الإسلامي خلال العصر الحديث والمعاصر؛ لأنها حركة فكرية ثقافية لا يستهان بها. وفي الوقت الذي اتخذت فيه منهج المعاداة للإسلام؛ فإنها أيضا كانت تهدف إلى زيادة معلومات الغرب، ولاسيما في أوروبا وأمريكا، عن الإسلام وعن الشرق بصفة عامة.

• وقد ادعوا أن معلوماتهم تقوم على قاعدة علمية منهجية موثقة: حيث تبدأ بدراسة لغات أمم الشرق، ثم دراسة تراثها وحاضرها، ثم تكوين صورة خاصة للثقافة الشرقية وحضارة الشرق، من خلال مناظيرهم القائمة.

• ومن الذين اهتموا مبكرا بالحوار مع المسلمين، العالِم النصراني "يوحنا الدمشقي" (٦٧٦-٧٤٩م). وله كتابان هما: محاورة مع مسلم، وإرشادات النصارى في جدل المسلمين. ولكن هذه المحاولة لا تعتبر بداية للاستشراق.

{د.محمود حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري. ص٢٥ وما يليها}.

• ويلاحظ أن تاريخ الاستشراق في مراحله الأولى يعتبر تاريخا للصراع بين العالم النصراني الغربي في القرون الوسطى وبين الشرق الإسلامي؛ فقد كان الإسلام العظيم يمثل مشكلة بعيدة المدى بالنسبة للعالم النصراني في أوروبا على كافة المستويات، ولاسيما منذ الحروب الصليبية.

• لقد نشط اللاهوتيون النصارى في ذلك الوقت المبكر ضد الإسلام، وراحوا ينشرون الافتراءات والأكاذيب حول الإسلام وحول نبيه محمد ﷺ؛ بل زعموا كذبا أن الإسلام قوة خبيثة شريرة. وربما أسرف بعض أدبائهم في الخيال؛ حيث وصفوا المسلمين بأنهم "عُبّاد أصنام" ولعل خيالهم المريض يقصد طواف المسلمين حول الكعبة، ورميهم الجمار في منى لمناسك الحج.

وكان البعض منهم -لغفلته- يبدي دهشته من وجود علم بأوسع معانيه لدى المسلمين. وهو لا يعلم أصلا أن الإسلام دين يحث على العلم النافع بأوسع معانيه، وأن أول ما نزل من الوحي:

﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق۞ خلق الإنسان من علق۞ اقرأ وربك الأكرم۞ الذي علّم بالقلم۞ علّم الإنسان ما لم يعلم﴾

{سورة العلق:١-٥}.

• ومن عام ١١٣٠م كان العلماء النصارى في أوروبا يقومون بترجمة الكتب العربية في العلوم والفلسفة، نظراً لاقتناعهم بأن العرب والمسلمين يملكون قدراً كبيراً من مفاتيح تراث العالم الكلاسيكي. وكان لهذه الترجمة أثرها الواضح في بناء الحضارة الإنسانية.

• وقد توالت بحوث علماء الاستشراق عن الإسلام وعن نبيه صلى الله عليه وسلم، مثل كتاب: " التاريخ النقدي لعقائد وعادات أمم الشرق" لريتشارد سيمون" ١٦٨٤م.

وقد أبدى في كتابه هذا تقديره وإعجابه بالأخلاق الإسلامية. مما عرّضه للتساؤل والشبهات.

وألف المستشرق "ريلاند" أيضاً كتاباً باللغة اللاتينية بعنوان: " الديانة المحمدية" وضح فيه مفهوم العقيدة الإسلامية، وحاول دفع بعض الشبهات عنها، مما دفع الكنيسة أن تضع هذا الكتاب في قائمة الكتب التي يحرم تداولها.

ولما جاء القرن التاسع عشر: أصبحت نظرة الأوروبيين لغيرهم نظرة متعالية متغطرسة. بل وصل الأمر ببعض السفهاء أن يصف أي نظرية سيئة بأنها: " نظرية محمدية".

• كما ظهرت نظرية مزيفة تقسم الشعوب إلى أجناس راقية،هي الشعوب الآرية التي ينتسبون إليها، وإلى شعوب متخلفة وهى الشعوب السامية. ومعلوم أن " رينان" هو رائد هذه الحملة؛ من أجل الادعاء بأن الآريين هم صناع الحضارة دون الساميين.

{مصطفى عبد الرازق: تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية. ص٩ وما بعدها، ط١٩٦٦م القاهرة}.

• إن عصر ازدهار الاستشراق: بدا واضحا خلال القرن التاسع عشر الميلادي ومنتصف القرن العشرين. وقد قامت فرنسا بإنشاء مدرسة اللغات الشرقية الحية في باريس عام ١٧٨٥م؛ بهدف الإسهام في تقدم العلم والأدب.

لكن حركة الاستشراق في فرنسا بدأت تتخذ طابعا أكاديميا على يد رائد الاستشراق في عصره، وهو "سلفستر دي ساسي" المتوفى عام ١٨٣٨م، وهو الذي جعل من باريس مركزا للدراسات العربية، بل كعبة يؤمها طلاب العلم من أوروبا كلها. وقد استخدم نابليون بونابارت في حملته على مصر، عددا كبيرا من المترجمين من تلاميذ "دي ساسي". وذكر رفاعة الطهطاوي أنه اتصل بهذا المستشرق في باريس، وأفاد من صحبته.

وكانت أغلب جهود "دي ساسي" العلمية تتركز على الدراسات العربية في النحو والأدب شعرا ونثرا، ولم يكن له دراسة حول الإسلام.

ويمكن القول بأن الاستشراق كعلم قد بدأ في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، عندما تمّ التحرر من اللاهوت الكنسيّ شيئا فشيئا، بهدف البحث عن الحقيقة، بناء على المنهج العلمي الحديث، غير أن التعصب الكامن في النفوس أبى أن يترك شيئا مستقيما.

لكن في نهاية القرن التاسع عشر للميلاد، أضحت الدراسات الإسلامية تخصصا قائما بذاته داخل الحركة الاستشراقية العامة، على يد أعلام منهم: نولدكه، وجولد تسيهر، وفلهاوزن.

{د. زقزوق: الاستشراق ص٤٨-٥٠}.

❁❁❁

أهم مظاهر نشاط الاستشراق:

• لقد بدأت هذه الأنشطة على التدريج، حيث تأسست أولا الجمعية الملكية الآسيوية في بريطانيا وإيرلندا عام ١٨٢٣م، ثم تلتها الجمعية الشرقية الأمريكية عام ١٨٤٢م، ثم الجمعية الشرقية الألمانية عام ١٨٤٥م.

• وقد قامت هذه الجمعيات بإصدار مجلات متنوعة مثل: مجلة ينابيع الشرق، في فيينا عام ١٨٠٥ إلى عام ١٨١٨م. ومجلة الإسلام في باريس عام ١٨٩٥م وكانت تهتم بشئون العالم الإسلامي. وخلفتها في عام ١٩٠٦م مجلة العالم الإسلامي، التي صدرت عن البعثة العلمية الفرنسية في المغرب، وقد تحولت بعد ذلك إلى مجلة للدراسات الإسلامية.

• ومنذ عام ١٩١٠م ظهرت مجلات مماثلة في ألمانيا وروسيا وبريطانيا، حتى صار عدد المجلات الاستشراقية يزيد على ثلاثمائة مجلة متنوعة بمختلف اللغات؛ مما يؤكد علاقة الاستشراق بالتنصير، وأنه أحد جناحيه مع الاستعمار اللذين يحلق بهما في سماء الشرق.

• كذلك اهتم الاستشراق بالمؤتمرات، وكان أول مؤتمر دولي في باريس عام ١٨٧٣م. ثم توالت بعده مؤتمرات أخرى بصورة منظمة؛ حتى تجاوزت الثلاثين.

• هذا مع حشد أكبر عدد من العلماء في كل مؤتمر: فقد ضمّ مؤتمر أكسفورد مثلا: تسعمائة عالم، من خمس وعشرين دولة، وخمس وثمانين جامعة، وتسع وستين جمعية علمية، كما كان في المؤتمر أربع عشرة مجموعة عمل، تختص كل منها بجانب معين من الدراسات الاستشراقية.

• وتنشر أعمال تلك المؤتمرات في مجلدات ضخمة، يُهتَدى بها كمناهج، ثم أصبحت أصولا وأسانيد يعتمد عليها الباحثون. ولكن ما مدى مصداقية تلك البحوث؟ هذا ما سوف يتضح بعد.

{د. زقزوق: الاستشراق ص٥٢-٥٣}.

❁❁❁

علاقة الاستشراق بالاستعمار:

• بعد أن انتصف القرن التاسع عشر، تم استيلاء الغربيين على مناطق شاسعة من بلدان العالم الإسلامي: ففي عام ١٨٥٧م تم استيلاء الإنجليز سياسيا على الهند، بحيث صارت تابعة للتاج البريطاني بصورة رسمية.

• وفي عام ١٨٥٧م أيضا تم استيلاء فرنسا على الجزائر كلها. وفي بداية القرن السابع عشر، احتلت هولندا جزر الهند الشرقية (إندونيسيا). وبعد عام ١٨٨١م تم احتلال مصر وتونس. وبذلك طوّق الاستعمار الغربي العالم الإسلامي من الشرق والغرب. وفي نهاية الحرب العالمية الأولى، كان العالم الإسلامي كله تقريبا خاضعا لنفوذ الاستعمار الغربي.

{محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص٢٩ وما بعدها. ط١٩٧٣م، دار الفكر، بيروت}.

• ولقد استطاع هذا الاستعمار، أن يجند طائفة من المستشرقين لتحقيق أهدافه وتمكين سلطانه في بلاد الشرق والمسلمين.

• وارتضى عدد كبير من المستشرقين تسخير علمهم كوسيلة لمعاونة الاستعمار؛ من أجل إذلال المسلمين وإضعاف شأن الإسلام، مثل "بيكر" الألماني، بينما ترفع قلة منهم عن هذا التدني مثل :"استفان فيلد".

• بل وصلت الجرأة ببعض المستشرقين الهولنديين وهو"سنوك هورجرونيه" المتوفى عام ١٩٣٦م أن انتحل اسما إسلاميا وهو "عبد الغفار" وأقام بمكة ستة أشهر عام ١٨٨٥م كي يخدم الاستعمار، وكانت إجادته للغة العربية أكبر عون له على التخفي وتحقيق غرضه الخاص.

• وكان معظم هؤلاء يعملون مستشارين لوزارة الاستعمار في بلادهم مثل "ماسينيون" الذي كان مستشارا للإدارة الاستعمارية، في الشئون الإسلامية.

• لقد كانت العودة إلى احتلال العالم العربي وبلاد الإسلام حُلما يراود أهل الغرب، منذ هزيمة الصليبيين. ولهذا اتجهوا إلى دراسة تلك البلدان في كل أمر من أمورها الدينية والاقتصادية؛ ليتعرفوا على مواقع القوة فيها فيضعفوها، وعلى مواطن الضعف فيتخذوا منها ثغرة لهم، وكثيرا ما تكون المعرفة مصدرا من مصادر القوة.

{د. مصطفى السباعي: الاستشراق والمستشرقون ص١٩ وما بعدها. ط١٩٦٨م مكتبة دار البيان، بالكويت}.

• ويجدر بنا هنا أن نشير إلى أمر عجيب حقا، ألا وهو انخراط اليهود في الحركة الاستشراقية التي تعمل على خدمة التنصير ودعم الاستعمار الأوروبي. وهم قد دخلوا حركة الاستشراق بوصفهم مستشرقين، لا بوصفهم يهودا حتى لا يعزلوا أنفسهم فيضعف تأثيرهم.

• لكن العجب ما يلبث أن يزول إذا علمنا أن اليهود قد حصلوا على مكاسب من مشاركتهم للمستشرقين، من أهمها:

أ. أنهم فرضوا أنفسهم على الحركة الاستشراقية كلها.

ب. خدمة الصهيونية كفكرة ودولة.

جـ. محاولة النيل من الإسلام، ولاسيما حين يدعّون كذبا، أن اليهودية هي المصدر الأول للقرآن والإسلام. وصدق الله تعالى في قوله:

﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهودَ والذين أشركوا ﴾ {المائدة:٨٢}.

• وقد يتساءل بعض طلاب العلم عن الاستشراق من حيث المستقبل، وهل سيظل هكذا؟

• والجواب أن المستشرقين أنفسهم يعرفون جيدا كمّ الانتقادات التي وجهت إليهم، ولاسيما تلك الأساليب البالية التي اتبعوها في فهم الإسلام بروح عدائية، مما أعطى مفكري الإسلام الحق في اتخاذ مواقف الحذر والشك في آرائهم؛ ولهذا حاول بعضهم أن يعدّل موقفه عن ذي قبل، ولكن بتثاقل شديد.

• والواقع يشهد أن الحركة الاستشراقية حتى الآن ماضية في طريقها؛ لأنها قوية ومنظمة. ولا يألو المستشرقون جهدا في حضور المؤتمرات والاشتراك في الجمعيات حتى اليوم.

• وإن انحسار المد العسكري عن العالم الإسلامي، لا يعني انتهاء حركة الاستشراق؛ فإنها بارزة مثل الشمس في وضح النهار.

ولا يتوقع لهذه الحركة أن تنحسر؛ لأن حكومات الغرب تدعمها دعما ماليا قويا، لتتمكن من أداء دورها في خدمة التبشير.

أبرز الأعمال العلمية للمستشرقين:

١) التدريس الجامعي:

حيث يوجد في كل جامعة أوروبية أو أمريكية معهد خاص للدراسات الإسلامية والعربية. كما يوجد في بعض الجامعات أكثر من معهد للاستشراق، مثل جامعة ميونخ، التي يوجد بها:

أ. معهد للغات السامية والدراسات الإسلامية.

ب. معهد لتاريخ وحضارة الشرق الأدنى.

وتقوم هذه المعاهد بمهمة التدريس الجامعي وتعليم اللغة العربية، وتخريج الدارسين في الدراسات العليا: ماجستير ودكتوراه، لمن سيواصلون عملهم في حقل الاستشراق، أو السلك الدبلوماسي.

ولكل معهد مكتبة عامرة بالكتب والمراجع العربية والإسلامية. كما أن هذه المعاهد تفتح أبوابها للدارسين من كل الأجناس حتى الآن.

{د. زقزوق: الاستشراق. ص٧١ وما بعدها}.

وصار من المعلوم أن المستشرقين على اختلاف مشاربهم وتخصصاتهم يتفانون في خدمة أهداف بلادهم بكل صبر ووسيلة، ولهم تميزهم في معرفة العديد من اللغات القديمة والحديثة. وربما كان لبعض المتمكنين من علمهم من يتحلى بالتواضع الشديد، بحيث يعتذر عن أي خطأ وقع فيه.

{مصطفى عبد الرازق: تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص٢٧ وما بعدها}.

٢) جمع المخطوطات العربية والإسلامية:

اهتم المستشرقون بجمع المخطوطات العربية من بلاد الشرق الإسلامي؛ بناء على وعي تام منهم بقيمة هذه المخطوطات؛ لما تحويه من تراث غني بألوان العلم والمعرفة.

وقد بلغ من اهتمامهم بجمع المخطوطات العربية، أن بعض حكام أوروبا كان يفرض على كل سفينة تجارية تتعامل مع الشرق أن تحضر معها بعض المخطوطات.

بل كانت الجهات المعنية في أوروبا ترسل مندوبيها لشراء مخطوطات من الشرق. وقد تم جمع مخطوطات من الشرق بطرق مشروعة وغير مشروعة، ولقيت في أوروبا اهتماما عظيما، لكن مع عنايتهم بصيانتها وفهرستها ووصف كل مخطوط وصفا دقيقا، مع ذكر بيانات المؤلف.

وقد قامت باحثة استشراقية بإعداد بحث خاص، عن نوادر مخطوطات القرآن الكريم في القرن السادس عشر الميلادي. وهكذا قيّض الله للمخطوطات العربية والإسلامية من يعتني بها من أعداء العرب والإسلام.

٣) التحقيق والنشر للمخطوطات:

قام العديد من المستشرقين بتحقيق الكثير من كتب التراث تحقيقا علميا:

أ- قابلوا بين النسخ المختلفة.

ب- لاحظوا الفروق وأثبتوها.

ج- ورجحوا منها ما حسبوه أصحها وأعدلها.

د- وأضافوا فهارس أبجدية: للموضوعات والأعلام في أواخر الكتب.

هـ- بل قاموا أحيانا بشرح بعض الكتب المخطوطة شرحا مفيدا.

• وقد كانت الكتب التي حققوها عونا كبيرا للباحثين في الغرب والشرق. ومن أمثلة تلك الكتب ما يلي:

صحيح البخاري، وسيرة ابن هشام، والكشاف للزمخشري، والفهرست لابن النديم، والكتاب لسيبويه، والإتقان للسيوطي، وتاريخ الطبري، ومعجم الأدباء لياقوت، وغيرها من دواوين الشعر العربي.

٤)الترجمة:

قام المستشرقون بترجمة مئات الكتب العربية والإسلامية، إلى اللغات الأوروبية كافة: فقد نقلوا إلى لغاتهم الكثير من دواوين الشعر، والمعلقات، وتاريخ أبي الفداء، وتاريخ الطبري، ومروج الذهب للمسعودي، وتاريخ الخلفاء للسيوطي، والمنقذ من الضلال، وإحياء علوم الدين للإمام الغزالي، وغير ذلك.

هذا فضلا عما ترجم في القرون الوسطى من مؤلفات مفكري العرب والمسلمين في: الفلسفة والطب والفلك، وغيرهما من المعارف والعلوم.

وقد ترجم القرآن الكريم لأول مرة في القرن الثاني عشر للميلاد، ثم توالت ترجمات المستشرقين له إلى كافة اللغات الأوروبية. وقد مهدوا للترجمة بمقدمات وضعوا فيها تصوراتهم عن الإسلام؛ كي يعطوا للقارئ تصورهم في بادئ الأمر الذي لا يتفق غالبا مع الحقائق الإسلامية، بل يصطدم معها اصطداما جوهريا.

وقد ترجم القرآن الكريم إلى: الإنجليزية ١٠ ترجمات، والفرنسية ٩، والألمانية ١٤، والإيطالية ١٠، والروسية ١٠، والأسبانية ٩، واللاتينية٧، والهولندية ٦. ثم توالت الترجمات بعد ذلك.

٥) التأليف:

بلغ عدد ما ألفه المستشرقون عن الشرق، في الدراسات العربية والإسلامية،زهاء قرن ونصف، منذ أوائل القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين- بلغ ستين ألف كتاب، في التاريخ والشريعة وعلوم القرآن والسنة وغيرها؛ بحيث لم يتركوا مجالا في العلوم العربية والإسلامية إلا وقد ألفوا فيه.

وقد تنوعت مؤلفات المستشرقين: ما بين مؤلفات ذات فائدة علمية للباحثين، وما بين مؤلفات أخرى تزخر بالطعن في الإسلام، وتمتلئ بالأكاذيب:

مؤلفات ذات قيمة علمية مفيدة:

١. تاريخ الأدب العربي:

ألفه المستشرق الألماني "كارل بروكلمان" توفي عام ١٩٥٦م. وهو كتاب أساسي في الدراسات العربية والإسلامية، لا يستغني عنه باحث في الدراسات العربية والإسلامية، وقد قام به بروكلمان بمفرده.

ويشتمل على كل ما كتب باللغة العربية من المدونات الإسلامية، فهو يعتبر سجلا للمصنفات العربية: المخطوط منها والمطبوع، مع سيرة ذاتية لحياة كل مؤلف، ويشتمل الكتاب على ثمانية عشر جزءا.

وقد ترجم أجزاء منه الدكتور:عبد الحليم النجار، ثم ترجمه حديثا: الدكتور محمود فهمي حجازي. ولم يفكر أحد من علماء العرب في العصر الحديث أن يكمل المشوار الذي بدأ به بروكلمان. إلى أن قام رجل تركي هو: فؤاد سزكين، فكتب في نفس الموضوع لكن عن المخطوطات، وكتابه بعنوان: "تاريخ التراث العربي" وهو مطبوع، ونشرته جامعة الإمام بالسعودية في عشرة أجزاء.

٢. دائرة المعارف الإسلامية:

تعد ثمرة من ثمار التعاون العلمي الدولي بين المستشرقين. وقد صدرت في الفترة من عام ١٩١٣-١٩٣٨م في طبعتها الأولى بالإنجليزية والفرنسية والألمانية.

وقد قامت لجنة مترجمين مصريين بالترجمة منذ عام ١٩٣٣م، ولكنها لم تصل في الترجمة، إلا إلى حرف العين. وقد عمد المترجمون إلى كتابة تعليقات للرد على أخطاء المستشرقين وتجاوزاتهم.

وقد أعاد المستشرقون كتابة هذه الدائرة مرة أخرى، وبدأ ظهور الموسوعة الجديدة منذ عام ١٩٥٤م. وقام بعض المترجمين المصريين بترجمة الزيادات والملاحق، في طبعة دار الشعب.

. المعاجم:

قام المستشرقون بجهد لا يستهان به في ميدان المعاجم والقواميس اللغوية وغيرها.

فقد أنجزوا أول قاموس لاتيني عربي، في القرن الثامن عشر للميلاد، والمعجم العربي اللاتيني الذي ألفه "جورج فرايتاج" المتوفى عام ١٨٦١م ولا زال يستعمل حتى الآن.

هذا بالإضافة إلى قواميس صغيرة وكبيرة، يراعون فيها الجمع بين اللغة العربية وبين لغات أوروبية مختلفة، كالإنجليزية والفرنسية والألمانية.

وهناك "معجم اللغة العربية القديمة" الذي ألفه "أوجست فيشر" المتوفى ١٩٤٩م. وقد ظل يجمعه أربعين عاما، مع بعض معاونيه.

ومن الجدير بالذكر هنا الإشارة إلى "المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي" الذي قام بتصنيفه المستشرق الألماني "ونسنك" وقد نشر من عام ١٩٣٦م إلى ١٩٦٩م في سبعة مجلدات ضخمة، بطبع حجر، وله فائدة عظيمة لدى الباحثين؛ لأنه يشتمل على تسعة كتب من كتب الصحاح في الحديث النبوي.

{د. زقزوق: الاستشراق من ٧٠إلى ٨٣}.

أهم أهداف حركة الاستشراق:

١) معرفة عادات وثقافات الشعوب التي حكموها بعد الاستعمار:

وقد ركز المستشرقون على إفريقيا وآسيا، كما وجّهوا الشباب الأذكياء إلى تلك الدراسات،وخصصوا لهم ميزانيات شخصيّة، ونظموا لهم الزيارات وطرق الاتصال المختلفة، كما أنشأوا معاهد ومؤسسات بحثية ومكتبات شاملة بصفة عامة.

ويفهم من هذا: أن الاستشراق كان ولا يزال، وثيق الصلة بالاستعمار: سواء في صورته التقليدية العسكرية، أو في صورته الجديدة.

٢) منع الإسلام بعقائده وشرائعه وثقافته: من الوصول إلى العالم النصراني، وذلك بإقامة سدّ منيع يصعب اختراقه وهو:

شنّ هجوم مخطط عام على الإسلام، وعلى نبيّه ﷺ، وعلى الكتاب العزيز، وعلى الحضارة الإسلامية. هذا مع رَمْي الإسلام عامة بالوثنية، والتقليد، وإلصاق التهم والأكاذيب بالأمة الإسلامية كلها.

وهذا يكشف هدف الاستشراق مبكرا، ومدى صلته بالدوائر الكنسية بالغرب، ثم بحركة التبشير المسيحي في الشرق.

٣) وهناك هدف ثالث يجمع بين الطابع الديني والطابع العلمي الأكاديمي:
بما يكشف عن البواعث المركّبة للاستشراق، وهو يتمثل في: محاولة الوصول إلى فهم أفضل للغرب وحضارته عن طريق فهم الشرق الذي شهد مبعث الديانة المسيحية، وانتقلت منه بعد ذلك إلى أوروبا، وأصبحت أصلا من أصول حضارتها.

• ولما كانت المسيحية تعتمد على التوراة، فإن فهم المسيحية، كان يقتضي فهم التوراة أيضا. وممن قام بهذا الدور من المستشرقين "سلفتر دو ساسي"، الذي كان من أهم أهدافه فهم الشرق، مهما كان تراثه خلوا من الروح النقدية فيما يرى.

• واقتضى الأمر كذلك: فهم أصول الحضارة الغربية التي انتقلت بالترجمة إلى اللاتينية. وقد ترتب على الترجمة ما يلي:

أ- تحولٌ عن المنطق الأرسطي الذي كان سائدا في أوروبا.

ب- نشأت بأوروبا حركة فلسفية تنتمي إلى ابن سينا وابن رشد، مع تعرض آراء ابن رشد لنوع من التحريف.

ج- حدثت موجة حُمّى اجتاحت الباحثين من المستشرقين؛ لإرجاع الإسلام نفسه إلى مصادر أجنبية.

٤) نشر المدنية الغربية:
لقد قام المستشرقون بعرض الإسلام على حسب أمزجتهم وهواهم، بأنه صورة مشوّهة للمسيحية.

وبذلك صار الاستشراق سلاحا في معركة فكرية، ووضع نفسه في خدمة الاستعمار داخل البلاد المُستَعْمَرة، كما أسهم في تشويه الإسلام.

٥) ساعد الاستشراق على ظهور أديان مزيفة في البلاد الإسلامية:
كي تقوم هذه السبل الباطلة بنسخ الإسلام عقيدة وشريعة، وتروض الناس على الخضوع لحكم الاستعمار الغربي: كالقاديانية في الهند، والبهائية في إيران.

❁❁❁

ومع هذا كله فلا يجوز لنا مقاطعة العمل الاستشراقي؛ لأن الجهل به، والهجوم الانفعالي عليه قد يحقق أهدافه، دون أن يفيدنا بشيء.

منهج المستشرقين:

١) يركز المستشرق على الجانب العلمي غالبا مثل: بحث، أو كتاب، أو ندوة.

٢) يخاطب المثقف بما يناسبه بعد اكتشاف ميوله، كما هو منهج الباطنية: بالكتاب، بالندوة، بالصداقات الشخصية.

٣) يلجا في مؤلفاته إلى النيل من الإسلام والنبي ﷺ والقرآن مباشرة، تحت ستار البحث والموضوعية. وقد فعل ذلك بعض أتباعهم من مفكري العرب.

{د. حسن الشافعي: في فكرنا الحديث والمعاصر. ص١٢٥ وما بعدها ط١٤١٠هـ=١٩٩٠م دار الثقافة للنشر والتوزيع بالقاهرة}.

موقف المستشرقين من القرآن الكريم:

إن القرآن الكريم هو وحي منزل من الله تعالى على نبينا المصطفى ﷺ. وهو المصدر الأول للتشريع في الإسلام، وتنبثق منه أخلاق الإسلام وآدابه، والإيمان به واجب؛ لأنه وحي إلهي.

ومن أجل ذلك ركز الاستشراق على مناهضة القرآن الكريم، والتشكيك في صحته ومصدره. ومن قبلُ بذل المشركون كل جهد في مقاومة فكرة أن القرآن وحي منزل من الله تعالى، وقالوا إنه:

﴿إفكٌ افتراه وأعانه عليه قوم آخرون﴾. {الفرقان ٤}.

وقد سلك المستشرقون نفس الطريق الذي سلكه سابقا مشركو مكة؛ لإثبات أن القرآن ليس وحيا من عند الله، وإنما هو من تأليف محمد ﷺ. يقول "جورج سيل G.sale"، في مقدمة ترجمته الإنجليزية لمعاني القرآن الكريم التي صدرت عام ١٧٣٦م ما يأتي:

" أما أن محمدا كان في الحقيقة مؤلف القرآن، والمخترع الرئيسي له ، فأمر لا يقبل الجدل، وإن كان من المرجح -مع ذلك- أن المعاونة التي حصل عليها من غيره في خطته هذه، لم تكن معاونة يسيرة. وهذا واضح في أن مواطنيه لم يتركوا الاعتراض عليه بذلك".

{د. زقزوق: الاستشراق.ص١٠٠}.

وكان هذا المستشرق ممن لهم اهتمام بالغ بالإسلام، لدرجة أنه وُصف بأنه: "نصف مسلم"، ولكن ما أشد بعده عن هذا الوصف الكريم!.

وقد أصبحت قصة تأليف محمد ﷺ للقرآن لدى المستشرقين أمرا لا يقبل الجدل. بل إن بعضهم اعتبر الرسالة المحمدية امتدادا طبيعيا للحركة الدينية التي كانت سائدة في عصر محمد ﷺ، دون أن تشتمل هذه الرسالة على أي جديد، وربما توهم هؤلاء أنهم ينحون منحى علميا.

{د. محمد عبد الله دراز: مدخل إلى القرآن ص١٣٠، ط١٩٧٤م، دار القلم بالكويت}.

وتابع بعض المستشرقين أوهامه، حين قرر أن النبي ﷺ قد اعتمد في كتابته للقرآن على الكتاب المقدس، وخاصة على العهد القديم في قسم القصص، كما يرى "بل-Bell".

ويدّعي فريق منهم أن محمدا ﷺ تعرّف على النصرانية من "بَحِيرَى الراهب" في رحلته التجارية إلى الشام، وأن محمدا قد تمثّل في نفسه ما سمعه من الراهب، وما عرفه من أتباع اليهودية، وأنه خرج على الناس يعلن دينه الجديد الذي لفقه من الدينين الكبيرين. وهذه المزاعم والتخمينات يتوهم هؤلاء أنها حقائق، وصدق الله تعالى في قوله:

﴿الشيطان سوّل لهم وأملى لهم﴾.

لقد جاء القرآن بما هو أعلى وأوسع وأكمل من كل معلومات اليهود أو النصارى أو بحيرى الراهب. بل جاء القرآن مصدقا لما نزل على موسى وعيسى وداود وسليمان وغيرهم؛ من حيث كون الكتب التي نزلت عليهم هي في الأصل وحي من عند الله تعالى.

كذلك جاء القرآن الكريم مهيمنا على الكتب السابقة وحاكما عليها، من حيث ما فيها من حقائق، ما وقع فيها من تزييف أو تحريف.

• ومن مزاعم المشركين ومن قلدهم من المستشرقين، أن الذي كان يعلم محمدا ﷺ هو عبد رومي كان يصنع السيوف بمكة، وقد رد القرآن على هذه الفرية التي تدل على تفاهة أصحابها فقال:

﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسانُ الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾. {النحل ١٠٣}.

• وهناك معلومات أتى بها القرآن الكريم، مثل قصة نوح، لم يكن لليهود ولا النصارى علم بها، قال تعالى:

﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾. {هود ٤٩}.

◦ إن الإسلام وحي من الله تعالى، وهو ليس تابعا لأي دين آخر، ولكنه الدين الذي أراد الله أن يكون خاتم الأديان، كما أن نبيه ﷺ خاتم النبيين. قال الله تعالى:

﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾. {المائدة ٣}.

• <u>وفيما يخص صحة النص القرآني:</u>

فقد <u>استخدم</u> المستشرقون السلاح الذي استخدمه القرآن ضدهم؛ حيث كشف القرآن أن التوراة والإنجيل قد أصابهما التحريف والتبديل، مع ملاحظة أن التحريف لا يكون إلا جزئيا. وقد تذرع المستشرقون بموضوع القراءات السبع، بناء على ما ورد في الصحيحين، أن النبي ﷺ قال: "أنزل القرآن على سبعة أحرف"، محاولين إثبات أن القراءة كانت حرة طليقة؛ مما نتج عنه أن تعرّض نص القرآن للتغيير. وأوهموا الناس أن التدوين قد وقع في ظل تلك الحرية. وفي هذا الجو تمّ تسجيل قراءات مختلفة لم يرد بها الوحي أساسا، بل هي قراءات بالمعنى.

• لكن الثابت أن الرسول ﷺ كان حريصا كل الحرص على تسجيل الوحي فور نزوله، والعناية بحفظه في السجلات التي دوّن فيها.

وقد بلغ عدد كُتاب الوحي تسعة وعشين كاتبا، كانوا حاضرين بالقرب منه ﷺ، منهم الخلفاء الراشدون الأربعة، ومنهم معاوية، وسعيد بن العاص، وعمرو بن العاص، وأبيّ بن كعب، وزيد بن ثابت.

وبالنسبة للأوجه السبعة في القراءة، فإن الأمر لم يكن متروكا فيها هكذا، وإنما كان محكوما بما يقرئه النبي ﷺ للناس من أوجه القراءة، وكان الغرض منها التخفيف على الناس في أول الأمر، حسب لهجاتهم الخاصة.

فلما تمكن الناس من الاقتصار على الطريقة الواحدة، عارض جبريل عليه السلام، النبي ﷺ القرآن مرتين في السنة الأخيرة، واستقر على ما هو

معروف عليه الآن، ولا ريب أن المسلمين جميعا يقدّسون القرآن لفظا ومعنى.

{الزركشي: البرهان في علوم القرآن ١: ٢١٣ طبعة الحلبي بمصر}.

❁❁❁

خطورة القرآن على أعدائه:

تبيّن من كتابات المستشرقين، أن القرآن الكريم مقلق لهم؛ نظرا لشعورهم بخطورة هذا الكتاب على العالم الغربي؛ بناء على بحوث علمية تتحكم فيها الأهواء الشخصية والأهداف السياسية والدينية.

وهم عندما يدرسون القرآن الكريم، ويتأملون ما فيه من قيم أخلاقية ومزايا سامية فريدة، يحاولون بكل ما أوتوا من قوة، أن يطمسوا هذه الحقائق والمكارم؛ لأن تطبيقها يمكّن المسلمين من الوحدة، فيسودوا العالم، ويتحكموا في مصيره، وينقطع بذلك دابر الاستعمار القديم والجديد:

"وتقوم وسائل الإعلام في الشرق والغرب، بتصوير الحركات الإسلامية في العالم الإسلامي، بالتطرف والتشدد والجحود والرجعية والتعصب والإرهاب".

{د. زقزوق: الاستشراق. ص١١٧}.

موقف المستشرقين من السنة النبوية:

إن السنة النبوية هي الأصل الثاني للتشريع في الإسلام. وقد أمر الله عز وجل نبيّه ﷺ أن يبلّغ رسالته إلى الناس جميعا، فقال تعالى:

﴿يأيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك﴾. {المائدة ٦٧}.

• ولكن الأمر لم يكن مجرد تبليغ، وإنما هو تبليغ مصحوب بالتّبيين، كما قال الله تعالى:

﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبيّن للناس ما نُزِّل إليهم﴾. {النحل ٤٤}.

• فكانت سنته ﷺ المتمثلة في أقواله وأفعاله وتقريراته بالنسبة للقرآن، بمثابة تفصيل مجمله، وبيان مشكله، وبسط مختصره. ولا يتصور أن ينفصم الارتباط بين القرآن والسنة أبدا، كما جاء في الحديث الشريف:

"تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وسنتي".

{رواه الحاكم في مستدركه عن أبي هريرة}.

• من أجل ذلك اهتم الإسلام اهتماما عظيما بالسنة النبوية بوصفها الأصل الثاني للتشريع في الإسلام. وحين بعث النبي ﷺ "معاذ بن جبل" واليا على اليمن سأله: "كيف تقضي إذا عرض لك قضاء؟ قال: أقضي بكتاب الله، قال: فإن لم تجد؟ قال: بسنة رسول الله، قال: فإن لم تجد؟ قال:أجتهد رأيي".

• ولما فشل المستشرقون في التشكيك في القرآن الكريم، أضافوا إلى ذلك محاولة أخرى فاشلة، وهي التشكيك في السنة النبوية.

وقد قام "جولد تسيهر" المستشرق اليهودي بأول محاولة في كتابه "دراسات محمدية". وكان تشكيكه في الحديث النبوي مبنيا على أن هذا الحديث قد جاء نتيجة تطور الإسلام دينيا وتاريخيا واجتماعيا في القرنين الأول والثاني الهجريين، وأن كل الفرق والاتجاهات الإسلامية راحت تبحث عن إثبات شرعيتها بالاستناد إلى مؤسس الإسلام محمد ﷺ، وإلى ما أجرته على لسانه من الأقوال التي تعبر عن شعاراتها، وقد ظهر ذلك واضحا في العهد النبوي، كما يدعّي هذا المستشرق.

{د. مصطفى السباعي: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ص١٩٠ وما بعدها، ط١٩٧٨م، بيروت}.

إنه لابد من التسليم بأن هناك بعض الأحاديث الضعيفة والموضوعة، وقد ألفت فيها كتبٌ قديما مثل "الموضوعات" لابن الجوزي وغيره، وحديثا سلسلة "الضعيف والموضوع" للشيخ الألباني.

لكن على الجانب الآخر توجد أحاديث صحيحة، أقرّ بصحتها أهل الاختصاص، الذين دققوا في شروط قبول الحديث، وفي أخلاق الراوي

التي تعد أساسا في قبول روايته أو رفضها. وكان هذا المنهج النقدي أساس وضع منهج النقد التاريخي.

وقيل "ليحيى بن سعيد القطان"، وكان معروفا بشدة نقده للرواة: "أما تخشى أن يكون هؤلاء الذين تركت حديثهم خصماءك عند الله يوم القيامة؟ فقال: لأن يكون هؤلاء خصمي أحبَّ إليّ من أن يكون خصمي رسول الله ﷺ يقول: لِمَ لَمْ تَذُبَّ الكذب عن حديثي!"

• ولما فشت الفتن تشدد أهل الحديث في الإسناد، ولم يكونوا يسألون عنه قبل. يقول أبو العالية: "كنا نسمع الحديث من الصحابة، فلا نرضى حتى نركب إليهم، فنسمعه منهم". ويقول ابن المبارك: "بيننا وبين القوم القوائم". أي الإسناد.

{مقدمة صحيح مسلم بشرح النووي ١: ٨٠-٨٨. دار إحياء التراث العربي، بيروت}.

• ومن مظاهر التدقيق في الحديث لدى المسلمين، أن الإمام البخاري ﷺ، لم يأخذ في صحيحه إلا حوالي أربعة آلاف حديث نبوي فقط، من مجموع نصف مليون حديث.

• وقد توفي النبي ﷺ بعد أن اكتمل الدين، كما قال الله تعالى:

﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾. {المائدة ٣}.

وليس الإكمال هنا للقرآن وحده، لكن يشمل أيضا إكمال السنة؛ لأن النبي ﷺ كان مبلّغا ومبيّنا لما في القرآن الكريم. فمن الباطل أن يقال إن الإسلام قد تطوّر بعد مؤسسه الأول، في أصله أو مصدره الثاني، وهو السنّة.

ولا يجوز الاحتجاج على التطور، باختلاف المذاهب وتعددها بعد القرن الأول؛ فإن ذلك راجع إلى اختلاف أفهام المسلمين في فهم الكتاب والسنة، وهو اختلاف في الفروع لا في الأصول، بناء على الاجتهاد الذي يجيزه الإسلام.

{د. زقزوق: الاستشراق. ص١٢٠-١٢٨}.

• وهكذا خاب أمل المستشرقين وأذنابهم، في العثور على ضالتهم مرة أخرى، في السنة النبوية، وكفاهم بذلك خزيا وخسرانا!.

موقف المستشرقين من الشريعة الإسلامية:

• كانت دائرة عمل المستشرقين في الطعن على الإسلام، أوسع من أن يقفوا عند الكتاب والسنة؛ ولذا زحفوا نحو الشريعة الإسلامية، التي يميل معظمهم إلى الادعاء بأنها متأثرة "بالقانون الروماني".

فهم يرون أن الشرع المحمدي، ليس إلا القانون الروماني للإمبراطورية الشرقية معدلا وفق الأحوال السياسية للبلدان العربية.

ويوسعون فريتهم هذه، فيذكرون أن النبي ﷺ كان على معرفة واسعة بالقانون الروماني في البلاد التي كانت لا تزال فيها مدارس هذا القانون قائمة بعد الفتح الإسلامي.

لقد فاتهم أن النبي ﷺ كان أميا لا يقرأ ولا يكتب، يضاف إلى هذا، أن رحلته الأولى مع عمه أبي طالب إلى الشام تمت وكان عمره لا يزيد على اثنتى عشرة سنة.

وأما رحلته ﷺ فقد كانت سِنّه وقتها خمسا وعشرين سنة، ولم يرافقه فيها إلا عربٌ خُلّص، ولم يكن هناك ما يدعو أحدا من علماء القانون الروماني؛ كي يعلّمه ﷺ القانون الروماني. ثم إن تلك المدارس الرومانية، كانت قد اندثرت قبل الفتح بثلاثة أرباع القرن.

• أمّا ما يدّعونه من التشابه المزعوم بين الأحكام الشرعية الإسلامية وبين القانون الروماني؛ فإن التشابه لا يعني التأثر بالضرورة، فربما كان ناتجا عن تشابه الظروف الاجتماعية.

وما أبعد الفرق بين القانون الروماني، الذي يعتمد على العقل البشري، الذي يخطئ ويصيب، وبين الشريعة الإسلامية التي قوامها الوحي الإلهي!.

وقد تميز فقهاء الإسلام بالاجتهاد في تطبيق الأحكام على الوقائع، كما أنهم توصلوا إلى استنباط علم شامخ، وهو "علم أصول الفقه".

موقف المستشرقين من الفلسفة الإسلامية:

• يوجد في طبيعة المستشرقين ميل شديد إلى تجريد العقلية الإسلامية، من الابتكار والإبداع الفكري. وهم ينظرون إلى فلاسفة الإسلام على أنهم مجرد نقلة للتراث اليوناني الفلسفي؛ بناء على أن هؤلاء المستشرقين يفرقون بين عقلية آرية مبتكرة متفوقة، وبين عقلية العرب السامية السطحية.

{د. محمد علي أبو ريان: تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام. ص٩ وما بعدها، ط١٩٨٣م الإسكندرية}.

• وقد تزعم هذه الفكرة الباطلة "رينان" في كتابه: "تاريخ اللغات السامية"؛ حيث يقرر لنفسه أن الفلسفة العربية أو الإسلامية، ما هي إلا فلسفة يونانية مكتوبة بحروف عربية.

بل يرى "بيكر" أن اليونان كانوا أقدر على التفلسف من المسلمين الذين لا يقررون رأيا إلا بناء على إجماع؛ بينما نرى الروح اليونانية تمتاز بالفردية واحترام الذات، بما يتناسب مع الروح الفلسفي. ومن الواضح هنا أنهم يجهلون معنى الإجماع.

• ومن المستشرقين من يدعي أن الإسلام لا يشجع على العلم والفلسفة. ومنهم من يزعم - مثل " تتمان"- أن القرآن يعوق عن النظر العقلي الحرّ. وليس لنا في دحض هذه الفِرى إلا أن نتذكر قول الله تعالى:

﴿**أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها**﴾. {محمد ٢٤}.

• لقد تلاشت هذه النظرية بالتدريج لعدم استنادها على أساس علمي سليم؛ ولأن قوامها التعصب والحقد الأعمى والسطحية في فهم الإسلام.

• لكن الأمر الأسوأ، أن تكون هذه النظرية الفاسدة مدخلا لهؤلاء الحاقدين إلى النيل من الإسلام، ومن كتابه المقدس؛ بادعاء أن الإسلام دين يعوق النظر العقلي، ولا يتفق مع التفكير الحرّ، وأنه عقبة في طريق العلم والفلسفة.

{د. زقزوق: الاستشراق ١٣٣ وما بعدها}.

هذا مع أن المنصفين في العالم كله، يقرون بأنهم لم يعرفوا دينا من الأديان يعلي من شأن العقل مثل الإسلام، كما يشهد بذلك القرآن الكريم. قال تعالى:

﴿وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾.

{سورة المُلك ١٠}.

• ودعا القرآن الكريم دعوة صريحة إلى حسن استخدام الملكات الفكرية دعوة صريحة، وأن هذه ستكون موضع مساءلة يوم القيامة، قال تعالى:

﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا﴾. {الإسراء ٣٦}.

❁❁❁

ملاحظات عامة على منهج المستشرقين:

١) جمود منهج المستشرقين:

فالاستشراق لم يطوّر كثيرا في مناهجه، وبقي جامدا عند أساليب عقيمة، لم تثمر شيئا مما أرادوه. وها هو الإسلام بحمد الله تعالى، يقف شامخا ويأخذ مداه في الاتساع يوما بعد آخر، في ديار هؤلاء المستشرقين أنفسهم.

وقد ثبت أن فكر المستشرقين عن الإسلام، لم يتحرر من الخلفية الدينية للجدل اللاهوتي العقيم؛ الذي انبثق منه الاستشراق؛ والمهم ما فيه من مجافاة للحق، وما فيه من تهجم أحمق على نبي الإسلام ﷺ.

{د.عبد الجليل شلبي: الإسلام والمستشرقون. ص٣ وما يليها، ط١٩٧٧م القاهرة}.

٢) الخلط بين حال المسلمين المتردي اليوم، وبين الإسلام كدين له أحكامه الثابتة:

ذلك أن إسلام الكتاب والسنة يعد في نظر بعض المستشرقين: "إسلاما ميتا"، وأن الإسلام الحيّ هو الذي يمارسه الدراويش-أو المتصوفة- في

مختلف البلدان الإسلامية، وهذا جهل بالإسلام بكل المقاييس؛ نظرا لحصر الإسلام العظيم في دائرة واحدة هي التصوف، بكل ما فيه من اعتدال أو غلو أو تهريج.

٣) تشجيع الفرق المغالية:

يؤكد المستشرقون على أهمية الفرق المنشقة عن الإسلام مثل: البابية والبهائية والقاديانية وغيرها من فرق قديمة وحديثة، كما يعملون على تعميق الخلاف بين السنة والشيعة، مع النظر إلى هؤلاء الغلاة، على أنهم أصحاب فكر ثوري تحرري عقلي.

٤) البعد عن الموضوعية:

إن معظم كتابات المستشرقين تخلو من الموضوعية، عندما يكتبون عن الإسلام وعن نبيه ﷺ وعن الكتاب العظيم، بينما يتظاهرون بالموضوعية عندما يكتبون عن البوذية والهندوكية وغيرهما.

وما هو إلا الحقد والخوف اللذين يمثلان القاعدة التي ينظرون من خلالها إلى الإسلام. وقد كانت أوروبا حتى نهاية القرن السابع عشر الميلادي تفزع من "الخطر العثماني" الذي يمثل لديهم تهديدا مستمرا للنصرانية.

٥) الاستشراق هو الخصم والحكَم:

ذلك أن المستشرقين يعطون لأنفسهم الحق في دراستهم للإسلام، وأن يقوموا بدور ممثل الاتهام والقاضي في آن واحد. ومن هنا كان واجبا على مفكري الإسلام، أن يردوا عليهم، ويوقفوهم عند حدودهم بالحجة والبرهان.

والحق أن العديد من مفكري الإسلام قد ردّوا عليهم، وقاموا بواجبهم لله تعالى في هذا المجال. ومن أنصع الأمثلة على ذلك ردّ الأستاذ الدكتور محمود حمدي زقزوق على هؤلاء المستشرقين في كتابه: "الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري"، وقد أفدنا منه في كتابة هذا الموضوع.

٦) التفرقة بين الشرق والغرب:

فمن عادة المستشرقين أن يبنوا تفكيرهم على أن الشرق شرق، والغرب غرب، ولن يلتقيا. فأهل الغرب عقليون مسالمون متحررون متطورون، وليس لأهل الشرق من ذلك شروى نقير.

وقد تجاهل الغربيون، أن الحضارة الغربية التي يفخرون بأنها حضارة نصرانية؛ إنما هي مبنية في الأصل على تعاليم رجل شرقي، وهو المسيح ﷺ، وكذا بنيت على ما نقلوه عن العرب من علوم عربية، ومن تراث قديم.

وإن التقدم الذي يشهده الغرب الآن في مجال العلم والتكنولوجيا، لا علاقة له بالنصرانية كدين، كما أن التخلف والتفرق الذي يعاني منه الشرق الآن، لا علاقة له بالإسلام كدين.

٧) تطبيق المقاييس النصرانية على الإسلام:

وهذا من أشد المظالم التي وقع فيها أهل الاستشراق، دون وعي أو منطق. فهم ينسبون النصرانية إلى المسيح ﷺ، على أساس أنه هو "أساس العقيدة"، وهذا متسق مع اعتقادهم الذي يرتكز على أن المسيح هو الله.

• وكذلك اعتبروا أن محمداً ﷺ مثل ذلك؛ ولهذا أطلقوا على الإسلام اسم: "المذهب المحمدي"، وعلى المسلمين اسم: "المحمديين".

• والسرّ في ذلك أنهم يريدون أن يعطوا للناس انطباعاً عن الإسلام بأنه دين بشري من صنع محمد ﷺ، وليس من عند الله تعالى.

وما أشد حمق من يقارن منهم بين المسيح وبين محمد، عليهما الصلاة والسلام!، بحيث يبرزون محمدا شهوانيا ومزواجا، في مقابل المسيح الحصور العفيف الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولدا.

وكذلك عندما يصفون محمدا بأنه سياسيّ ومحارب، في مقابل المسيح المسالم المغلوب على أمره، والمعذّب الذي يدعو إلى محبة الأعداء.

• إن ما ذكروه عن نبينا محمد ﷺ، لا يعدو الكذب والافتراء والاجتراء على سيد الأولين والآخرين.

ونقول لهم: أين مكارم أخلاق المسيح عليه السلام لديكم، سواء في حضارتكم المادية الصارخة، أم في علاقاتكم الدولية مع المسلمين!

٨) **تقديم صورة زائفة للإسلام:**

من دأب معظم المستشرقين أن يكذبوا ويزيفوا في الدراسات الإسلامية. فهم إذا قدّموا الإسلام في كتبهم، لا يقدمونه إلا من خلال أوهامهم وخيالاتهم الضالّة.

فليس الإسلام الذي قدّموا هو الإسلام الذي ندين به المسلمين. كذلك فإن محمدا ﷺ الذي تفننوا في الكذب عليه، ليس هو محمدا الذي نؤمن بنبوّته وبرسالته، وبما جاء به من عند الله تعالى.

❁❁❁

إن هذا المنهج الزائف الذي تعامل به المستشرقون مع الإسلام وكتابه ونبيّه، قد أضعف فرصة التعاون بين أهل الديانات الثلاث: اليهودية والمسيحية والإسلامية، في مواجهة المذاهب الإلحادية الحديثة التي تسري في العالم كله سريان النار في الهشيم، والتي تهدد الديانات السماوية الثلاث. وعلى هؤلاء المستشرقين أن يراجعوا أنفسهم، ويثوبوا إلى رشدهم، إن أرادوا إصلاحا.

واجب المسلمين نحو الاستشراق:

١) على المسلمين المحافظة على:

أ- ثبات العقيدة الإسلامية.

ب- وتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية.

لأن هدف المستشرقين هو إبعاد المسلمين عن دينهم.

٢) تشجيع العلماء المسلمين على الرد عليهم.

٣) التعاون مع الحركات الإصلاحية السلفية؛ بشرط البعد عن الحزبية والعصبية، وعدم الانتصار للقومية.

٤) إصدار موسوعة تسمى "موسوعة الردّ على المستشرقين" لأنهم كتبوا وهاجموا الإسلام في كل صغيرة وكبيرة، ونشر فكرهم بمختلف اللغات. وكذلك تنشر هذه الموسوعة بعدّة لغات.

٥) إنشاء مؤسسة إسلامية عالمية لمواجهة الفكر الاستشراقي: دون أن يتحكم فيها شخص معين أو حزب خاص، أو دولة بعينها.

٦) دائرة معارف إسلامية جديدة: فلا يجوز أن نقتات على دائرة المعارف الإسلامية التي قام بإعدادها المستشرقون قبل الحرب العالمية الثانية. ويكون للموسوعة الجديدة فضل التميز في تحرير موضوعات الإسلام بدقة وأمانة.

٧) دار نشر إسلامية عالمية: تنشر بكل اللغات. مثال: "جارودي" لما أسلم امتنعوا عن النشر له.

{د.زقزوق ص١٥٥ وما بعدها}.

٣- العلمانية

تعريفها:

العلمانية Secularism ترجمتها: اللادينية، أو الدنيوية. وهي:
" دعوة إلى إقامة الحياة على العلم الوضعي والعقل، ومراعاة المصلحة بعيدا عن الدين".

{الموسوعة الميّسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ٢:٦٨٩. إشراف: د. مانع بن حماد الجهني- ط٣، ١٤١٨هـ دار الندوة العالمية بالرياض}.

• وعلى هذا فإن العلمانية، هي فصل بين مجالين في حياة الإنسان: مجال الدنيا، وزينتها ومتعتها، ومجال الصلة الخاصة بين الإنسان وخالقه ﷻ. فهي فصل بين سلطتين غير متجانستين: بين دين، وبين سلطة زمنية أو دولة، في محاولة لمنع الاحتكاك بينهما.

• والعلمانية تعني في جانبها السياسيّ بالذات: "اللادينية" في الحكم، وهي اصطلاح لا صلة له بكلمة العلم:Science. وقد ظهرت في أوروبا منذ القرن السابع عشر، وانتقلت إلى الشرق في بداية القرن التاسع عشر. وانتقلت بشكل أساسي إلى مصر وتركيا وإيران ولبنان وسوريا، ثم تونس، ولحقتها العراق في نهاية القرن التاسع عشر. أما بقية الدول العربية فقد انتقلت إليها في القرن العشرين. وقد اختيرت كلمة "علمانية" لأنها أقل إثارة من كلمة "لادينية".

• وتتفق العلمانية مع الديانة النصرانية، في فصل الدين عن الدولة؛ حيث إن لقيصر سلطة الدولة، ولله سلطة الكنيسة. وهذا مأخوذ عن قول المسيح عليه السلام: "أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله".

• أما الإسلام فلا يعرف هذه الثنائية، والمسلم كله لله، وحياته كلها لله:

﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين﴾.

{سورة الأنعام: ١٦٢}

• **وقد نشأت العلمانية في الغرب لسببين:**

أ- سبب ديني: وهو أن الفصل بين الدين والحكم لا يتعارض مع روح المسيحية.

ب- سبب تاريخي: وهو ما حدث من تسلط الكنيسة ورجال الدين، وكانت العلمانية منقذا للغرب.

ولكن العلمانية ما لبثت أن تطورت إلى علمانية متوحشة، تعمل على القضاء على الدين ذاته في العالم كله، بالتعاون مع مذاهب حديثة أخرى، مثل الماركسية والوجودية.

وقد انتشرت هذه الدعوة في أوروبا، وعمت أقطار الغرب والعالم، بحكم النفوذ الغربي والتغلغل الشيوعي. وأدت ظروف كثيرة قبل الثورة الفرنسية التي قامت عام ١٧٨٩م وبعدها، إلى انتشارها الواسع وتبلور منهجها وأفكارها. وقد تطورت الأحداث وفق الترتيب الآتي:

١- تحول رجال الدين المسيحي إلى طواغيت ومحترفين سياسيين ومستبدين، تحت ستار الرهبانية، وبيع صكوك الغفران.

٢- وقوف الكنيسة ضد العلم وهيمنتها على الفكر، وتشكيلها لمحاكم التفتيش، واتهامها للعلماء بالهرطقة مثل:

أ. كوبرنيكوس: نشر سنة ١٥٤٣م كتاب "حركات الأجرام السماوية"، وقد حرّمت الكنيسة تداول هذا الكتاب.

ب. جرادانو: صنع التلسكوب فعُذّب عذابا شديدا، وكان عمره سبعين عاما، وتوفي عام ١٦٤٢م.

٣- قيام الثورة الفرنسية: وقامت أول حكومة فرنسية عام ١٧٨٩م وهي حكومة لادينية تحكم باسم الشعب، كرد فعل ضد تحكم الكنيسة وجمودها.

{الموسوعة الميسرة ٢: ٦٨٩-٦٩٥}.

• **وفي العالم الإسلامي تتخذ العلمانية اتجاهين أساسيين:**

الأول: يقرر ضرورة إلغاء الشريعة، وعدم تطبيقها في الحياة الاجتماعية، ويقتصر ذلك على المسجد، أو على الفرد وحده.

الآخر: العمل من أجل القضاء على الدين الإسلامي ذاته، كما يقصد الماديون والماركسيون. وهم يدّعون أن الأخذ بنظام الإسلام، يتولّد عنه ما يلي:

أ- الدولة الثيوقراطية: وهو النظام الذي كان الحاكم يتلقى فيه سلطته: إما من رجال الدين، وإما من الحق الإلهي بوصف الحاكم ظل الله في الأرض.

وهذه مقولة باطلة، لأن الحكومات التي قامت من قبل في ظل الإسلام، لم تكن على هذا النمط الذي قامت عليه الحكومات في أوروبا أيام سيطرة الكنيسة. ثم إن الإسلام لا يعرف "رجل الدين"، وإنما يعرف "عالِم الدين" الذي ينصح القادة والحكام دون أن يشترك في الحكم. فحكومة الإسلام التي تطبق مبادئه: ليست إلهية، بل هي بشرية تخضع للنقد، وتقبل الشورى.

ب- عدم قبول المسلمين لنظرية نسبية الأخلاق: ويرى العلمانيون أن الأخلاق مرتبطة بالمجتمع، فهي نسبية وليست بثابتة. بينما يقرر الإسلام أن الأخلاق من الثوابت المرتبطة بالعقيدة الإسلامية، مع مراعاة المرونة والصلاحية للتطبيق في كل زمان ومكان.

ج- رفض المسلمين لنظرية حرية الفكر: فهم في الغرب يرون حرية الفكر وإطلاقه من ضوابطه وقيوده، بعد التحرر من سلطان الكنيسة. بينما الإسلام يقرر حرية الفكر، لكن مع قيود تحقق الانضباط.

ولا غرو أن يدعي بعض أنصار العلمانية من العرب، أن القرآن الكريم فيه أخطاء نحوية، وأن الحجاج بن يوسف الثقفي وحده صحح فيه ثلاثة عشر خطأ، وهذا محض افتراء.

{د. حلمي محمد القاعود: ثقافة التبعية: المنهج، الخصائص، التطبيقات ص١٢٧، ط ١، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م دار الفضيلة بالقاهرة}

د-نظرية التطور: عند الأخذ بمبادئ الإسلام فسيكون مصير هذه النظرية الرفض والإبطال، لأنه لا يوجد لها مستند من عقل ولا علم. فالإسلام لا يقبل ما يسمى التطور في تعاليمه وأحكامه. أما في الغرب فإن كل شئ هناك يتطور، ولا يوجد ثبات أبدا.

وعليه فإن العلمانية في الغرب حقيقة واقعة ومسلم بها، بينما هي في الإسلام انحراف عن الصراط المستقيم. وصدق الله تعالى:

﴿إن الذين يحادّون الله ورسوله أولئك في الأذلين ۞ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز ﴾.

{المجادلة: ٢٠، ٢١}.

{أنور الجندي: أصالة الفكر الإسلامي في مواجهة التغريب والعلمانية والتنوير الغربي ص١٨٠-١٨٣ طبع ١٩٩٦م، دار الفضيلة بالقاهرة}

۞۞۞

رفض الإسلام للعلمانية في كل مجالاته:

١- في مجال الاعتقاد:

لا مكان للعلمانية في العقيدة الإسلامية على الإطلاق؛ لأن الإسلام يقرر أن الله ﷻ واحد لا شريك له، وله الأسماء الحسنى.

وكل المخلوقات تقبل الثنائية ولاسيما الإنسان: روحا وجسدا. ولا يجوز أن يتوزع الإنسان المؤمن بالله الواحد، بين سلطتين: سلطة دينية وأخرى سياسية. وإن هذا التوزع يؤدي إلى القلق والحيرة والشتات.

٢- في مجال الحكم:

لابد من الاحتكام إلى كتاب الله تعالى، بعيدا عن أي أغراض شخصية:

﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيرا من الناس لفاسقون﴾. {المائدة ٤٩}.

إن الحكم بالهوى لا يلتزم طريقا واحدا؛ وإنما يتبع الميل البشري في اتجاهه، وهو إحدى خصائص الجاهلية:

﴿أفحكم الجاهلية يبغون۝ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون﴾. {المائدة ٥٠}.

فحكم الهوى هو حكم الإنسان حسبما يهوى، وهو الذي يحكمه الطغيان والمادية، ويطلق عليه القرآن "حكم الجاهلية". أما الحكم بالقرآن وبما أنزل الله فيه، فهو الحكم بالطريق الأقوم والأحسن، لقوم يودون أن يسود الإحسان والعدل فيما بينهم.

إن حكم القرآن ليس حكما إلهيا، وإنما هو حكم بما أنزل الله، حسب اجتهاد الحاكم الإنسان فإ . هو حكم إنساني يجتهد فيه الإنسان فيصيب ويخطئ.

• <u>أما الحكومة الإلهية:</u> فهي من ابتداع البشر، الذين جعلوا لله ولدا، وجعلوا ذلك من نظام بيوت عبادتهم.

وإن وحدانية الله تعالى، والاعتقاد فيها، هي التي تحول دون عصمة أحد من البشر، باستثناء النبي ﷺ فيما كلفه الله بتبليغه للناس. وبعد هذا فإن الناس جميعا متساوون في عدم العصمة، وفي احتمال وقوع الصواب والخطأ في اجتهاداتهم.

٣- <u>في مجال السياسة:</u>

إذا كان هناك ولاء ومودة، فليكن ذلك بين المؤمنين بعضهم بعضا:

﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم﴾. {التوبة ٧١}.

• وهذا الولاء يجب أن يكون أمرا واقعا، لا مجرد تعبير بالكلام، ومن المنهي عنه أن يكون ولاء المؤمن في الأمة لغير المؤمن:

﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾: أي بدلهم. **﴿ ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير﴾**. {آل عمران ٢٨}.

فيجوز الولاء لغير المؤمن في حالة واحدة، <u>وهي اتقاء الكافرين</u>. فهنا يجوز إظهار المودة للكافرين، ولكن ليس على حساب المؤمنين حتى لا يصيب المؤمنين أذاهم. والتقية تدعو فقط إلى <u>إظهار الصداقة</u> للكافرين، ولكن ليس بدلا من المؤمن بأي حال من الأحوال.

إن مبدأ "الولاء" مبدأ أساسي في سياسة الأمة الإسلامية، وقد فصّله الكتاب العزيز فقال:

﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ۞ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هو الغالبون ﴾. {المائدة ٥٥،٥٦}.

• فالذين يكون لهم الولاء والمودة، هم الله ورسوله، والمؤمنون الذين يباشرون العبادة والطاعة لله تعالى. فإذا حدث هذا نجح التماسك في الأمة على أساس من مثل ذلك الولاء.

إن منع الولاء لغير المؤمنين راجع إلى أن غير المؤمنين يستهزئون بدين الله؛ فقد اعتاد المشركون وأهل الكتاب أن يسخروا من الصلاة عندما يؤذّن لها، فليس من حسن السياسة، أن يكون الإنسان مواليا، أو صاحب وُدّ وصداقة لمن لا يحترمه ولا يحترم اعتقاده:

﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين ۞ وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ﴾. {المائدة ٥٧،٥٨}.

• ومن هذا الباب ما نهى عنه القرآن الكريم من اتخاذ "خاصة" أو "مستشارين" من المشركين وأهل الكتاب، ممن اعتادوا أن يسخروا من المؤمنين ومن دينهم، فقال تعالى:

﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون ﴾.

{آل عمران ١١٨}.

• **إن اتخاذ المستهزئين مستشارين وخاصة، يترتب عليه:**

أ. افتعال الأزمات والشر والفساد للمؤمنين.

ب. انطواء نفوسهم على الحقد والحسد.

ج. البحث عما يسبب العنت للمؤمنين، وهو ما يشق على نفوسهم.

د. الرغبة في الانتقام من المؤمنين:

﴿وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ﴾.

هـ. وبأن نجاح المؤمنين يسوؤهم، بينما يسعدهم إخفاقهم:

﴿إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها﴾.

و. أما نهاية المطاف فهي **﴿ودوا لو تكفرون﴾.**

يقول الدكتور محمد البهي:

" فهل يعي المؤمنون سياسة القرآن بالنسبة لأمتهم في تماسكهم، وبالنسبة لأعدائهم في عدم موالاتهم، واتخاذ بعضهم خاصة له؟ ما أصاب المسلمين بالأمس، وما يصيبهم اليوم أو غدا، هو بسبب عدم اتباعهم لسياسة القرآن، وبقائهم مع حزب الشيطان في اتباع سياسة الهوى والشهوة".

{د.محمد البهي: العلمانية وتطبيقها في الإسلام: إيمان ببعض الكتاب وكفر بالبعض الآخر. ص١٠ وانظر ما قبلها. ط١، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م مكتبة وهبة بالقاهرة}

٤- **في مجال الرأي:**

وهنا تكون الشورى هي المنهج:

﴿ وشاورهم في الأمر﴾. {آل عمران ١٥٩}.

فالشورى هي إحدى صفات المؤمنين الملازمة لهم:

﴿والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون﴾. {الشورى ٣٧،٣٨}.

فهنا اقتران بين الشورى، وبين الصلاة والزكاة. ذلك أن الشورى هي أساس المسئولية الفردية التي أشار إليها الحديث:

"كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته" ــ الحديث.

٥- في مجال المال:

إن المال قوام الحياة لجميع البشر؛ ولذا شرع الإسلام الحجر على السفهاء، فقال تعالى:

﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما﴾. {النساء:٥}.

والملكية الخاصة للمال، إنما هي ملكية استخلاف وتفويض من الله جلت قدرته:

﴿وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾. {الحديد ٧}

كذلك فإن تلك الملكية الخاصة تقترن بمنفعة المال العامة. ويبرز الإسلام اهتمامه بالمال: في إنمائه وفي استخدامه وإنفاقه؛ فهو أمر مرغوب في تحصيله والسعي إلى كسبه، لكن يجب تطهيره بالزكاة، وإبعاد وباء الربا عنه.

وبهذا المنهج ينجو المجتمع المؤمن من طغيان المال بعيدا عن الرأسمالية، وعن التسيب في الإنفاق، والتواكل في الإنماء. وكل هذا نقيض العلمانية.

٦-في مجال العمل:

يجعل الإسلام العمل في سبيل الرزق مساوقا لأداء عبادة الصلاة يوم الجمعة:

﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون﴾. {الجمعة ١٠}

• والإنسان في حياته في حاجة إلى التعاون والترابط مع الآخرين، وهو أيضا محتاج إلى الاستقلال والاعتماد على الذات، بعد الله ﷻ. وإن الترابط قوة، والاستقلال كذلك قوة أخرى. فإذا لم يكن الإنسان غير مستقل في توفير متطلبات معيشته، فهو ضعيف. وطالما كان غير مترابط مع الآخرين على أساس إنساني، فهو ضعيف بعزلته ووحدته بين الناس.

٧-في مجال الأسرة:

إن غاية الزوجية في الإسلام أمران:

أ- زيادة العدد وكثرة الكمية:

﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا ۞ وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات﴾. {النحل ٧٢}

ب- المودة والرحمة:

﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾. {الروم ٢١}

والأسرة هي النواة الأولى للمجتمع، ولا آفة للأسرة والمجتمع أكثر من الفردية، التي تعني الأنانية، بما يتنافى مع بناء الأسرة على السكنى والمودة والرحمة، وبما يتعارض أيضا مع تكوين مجتمع مؤمن قوى.

٨- في مجال العبادات:

لقد فرض الإسلام جملة من العبادات مثل: الصلاة والصيام والزكاة والحج، والتي كان لها أثرها المباشر من صقل الفرد وتهذيبه .

فالعبادة صاحبة الأثر الكبير في تعاطف المؤمنين وتراحمهم وتوادهم، وفيي المؤاخاة بينهم. والعبادة ليست صياغة لعلاقة المؤمن بربه، في عزلة عن المشاركة في روابط الأسرة والمجتمع. وبذلك كان الإسلام نظاما شاملا لحياة الإنسان، بما يتعارض مع منهج العلمانية.

{د. محمد البهي: العلمانية ص١١ إلي ١٩}

❁❁❁

لماذا نرفض العلمانية؟

١- العلمانية ترفض الحكم بما أنزل الله تعالي: مع إقصاء الشريعة عن كافة مجالات الحياة، والاستعاضة بالقوانين الوضعية التي وضعها البشر، بل ربما ادعى بعضهم أن هذه القوانين الراهنة، ليس فيها ما يخالف تعاليم الإسلام، وهم ينكرون وجود الله أصلا.

{د. محمد عبد القادر هنادي: قلاع المسلمين مهددة من داخلها وخارجها. ص١١٧. ط١، ١٤٠٨هـ-١٩٧٨م مكتبة الطالب الجامعي- مكة المكرمة}

٢- تحريف التاريخ الإسلامي وتزييفه: مع تصوير العصور الذهبية لحركة الفتوح الإسلامية ، بأنها عصور همجية تسودها الفوضى والمطامع المادية، مع إحياء الحضارات القديمة، ولاسيما ما كان منها وثنيا .

٣- إفساد التعليم: وجعله ميدانا لنشر الفكر العلماني عن طريق:
- بث الأفكار العلمانية في المناهج الدراسية بالمدارس والجامعات.
- تقليص المادة الدينية إلي أقل حد ممكن كما وكيفا وزمنا.

٤- إذابة الفوارق بين الرسالة الصحيحة وهي الإسلام، وبين الأديان الأخرى التي تعرضت للتحريف والتبديل. وجعلوا "الوحدة الوطنية" هي أصل العلاقة الاجتماعية، ولذا يرون الفصل بين الدولة والدين .

٥- نشر الإباحية والفوضى الأخلاقية: وتهديم بنيان الأسرة باعتبارها النواة الأولى في البنية الاجتماعية ، وذلك بواسطة القوانين التي تبيح الرذيلة ولا تعاقب عليها، وبواسطة وسائل الإعلام المختلفة من صحف ومجلات وإذاعة وتلفاز، والترويج للسفور والاختلاط ؛ بحجة تحرير المرأة.

٦- تحجيم الدعوة الإسلامية: وذلك بتضييق الخناق على نشر الكتاب الإسلامي، وإفساح المجال في وسائل الإعلام للعلمانيين الذين يخاطبون الناس بفكرهم الفاسد .

٧- إنكار فريضة الجهاد في سبيل الله تعالى: وما ترك قوم الجهاد في سبيل الله، إلا ذلوا .

٨- الترويج للقوميات: حتى لا يكون الدين عاملا من عوامل التجميع.

{د. محمد شاكر الشريف : العلمانية وثمارها الخبيثة . ص ٢١-٢٨ ،ط١، ١٤١١هـ ، دار الوطن للنشر بالرياض}

٤- العولمة

أولا: التعريف بالعولمة:

العولمة Globalization: لفظ لم يرد في معاجم اللغة العربية، وهو من المصطلحات غير البريئة. وقد بدأ في العقد الأخير من القرن العشرين، وأشار إليها قاموس أكسفورد عام ١٩٩١م، أي في التسعينيات. وقد أطلق عليها البعض: القرية الكونية: (Global Village)
ونظرا لعدم استقرار اللفظ في اللغة العربية، فقد سمّاها البعض: "إمبراطورية الفوضى".

• لكن يمكن القول إن العولمة في دلالتها اللغوية:"هي جعل الشئ عالميا" أي جَعْل العالم كلّه وكأنه منظومة واحدة متكاملة.

• لقد بدأت العولمة: في ميدان الاقتصاد كصيغة لانتقال رءوس الأموال عبر القارات والدول؛ كي تمارس الشركات العالمية هيمنتها على أسواق العالم. ثم امتدّ هذا المصطلح؛ لتكون له آثاره الاجتماعية والسياسية والثقافية؛ ومن هنا كان الاحتراس واجبا من هذه الظاهرة.

• يقول محمد إبراهيم مبروك: "إن الإسلام بمنظومته الرسالية، لا يستطيع أن يقف مكتوف الأيدي أمام ما تمارسه العولمة الأمريكية، من سحق للشعوب، وتحطيم للكينونية الروحية للإنسان. وبعد سقوط الأيديولوجيات الغربية، يظل الإسلام الأيديولوجية الوحيدة القادرة على استنهاض شعوب العالم الفقيرة والمستضعفة، وإنقاذها من مظالم العولمة، بل وبإنقاذ الطبقات الفقيرة والمستضعفة في بلاد الغرب الأمريكي ذاته".

{الإسلام والعولمة ص٩، تأليف مجموعة من الباحثين بإشراف: محمد إبراهيم مبروك. ط١٩٩٩م الدار القومية العربية بالقاهرة}

• والعولمة ليست فكرة مجردة؛ وإنما هي تعبير عن واقع اقتصادي، يدل على توحّش الشركات الكبرى، التي تحتكر المال والتجارة والاقتصاد في العالم.

• وتقوم مراكز الأبحاث المستقبلية: بدراسة تطور الأسواق لترويج منتجات هذه الشركات، فقدمت من خلال منظمة التجارة العالمية قوانين، يطلق عليها اسم "الجات"؛ لتكون صيغة يرتضيها الجميع للتبادل التجاري، والتي تؤكد هيمنة الشركات الكبرى على الأصناف الحيوية مثل: الأغذية والأدوية.

• ولا يمكن رفض العولمة كصيغة أصبحت تفرض نفسها، كواقع اقتصادي وسياسي. يضاف إلى هذا أنّ العولمة كواقع جديد، فرض ثقافة الغرب بما في ذلك أمريكا، بواسطة الشركات المتعددة الجنسيات.

{د.حامد عمار: بين العولمة والهوية الثقافية. ص٣٠ وزارة الثقافة بمصر، ٢٠٠٠م}

• ولا يجوز الخلط بين "العولمة" وبين بعض المفاهيم القريبة منها مثل: العالمية، والكوكبية، والدولية:

فالعالمية: شئ طيب، وقد اتصف به الإسلام؛ لأنه دعوة عالمية لخير البشر: ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾.

والكوكبية: مصطلح أقرب إلى علوم البيئة، التي تشتمل على مبادئ يتفق عليها أهل الأرض؛ لحمايتها من التلوّث.

والدولية: تعني اجتماع دول العالم السياسية على ميثاق الأمم المتحدة.

وأهم سمات عصر العولمة ما يلي:

١. استخدام التقنية الجديدة.
٢. مركزية المعلومات التي أصبحت ممكنة؛ بسبب الاتصال الفوري: أي "عصر المعلومات".
٣. الاتجاه المتزايد نحو توحيد المنتجات الاقتصادية والاجتماعية: "توحيد القياس والمعايير العالمية".
٤. نموّ التكامل والامتزاج بين القوميات، فالعولمة بطلة توسيع الأسواق.
٥. قابلية الجميع للتعرض للمخاطر معا، بسبب زيادة الاعتماد المتبادل فيما بينهم.

• فالعولمة مدفوعة بثورة تكنولوجية قلصت الزمن والمسافات. وتقوم التكنولوجيا المتقدمة بتحريك تريليون دولار من رءوس الأموال حول العالم كل يوم. يقول الدكتور مجدي قرقر في هذا المعنى:

"يقول الاقتصاديون إن هناك ٣٠٠ مليار دولار تتحول يوميا في ظل العولمة، أموالاً هائمة سابحة، دون صاحب، عن طريق "الفيزاكارت" و"الإنترنت". والتدهور الذي حدث في كوريا على سبيل المثال، كان بسبب هذه الأموال الهائمة".

{الإسلام والعولمة ص٧١ بإشراف: محمد إبراهيم مبروك، ط١٩٩٩م. الدار القومية العربية بالقاهرة}

• وللعولمة نجومها: وهي الشركات الصناعية الكبرى المتعددة الجنسيات، وكذلك رجال الإعلام (شبكات تليفزيونية، وصحافة عالمية)، ومراكز المال، وشركات تسويق وإعلان، مع الاستفادة بالمخابرات، وربما ببعض المافيات.

{د. حازم الببلاوي: النظام الاقتصادي الدولي. ص٢٣٦-٢٣٧، عالم المعرفة، الكويت ٢٠٠٠م}

آثار العولمة:

أ. آثار إيجابية:

١- تقريب أجزاء المعمورة بانفتاح العالم على بعضه البعض معرفيا وثقافيا.

٢- محاولة الاستفادة من العولمة؛ لأن رفضها على الإطلاق يجعل الرافضين أبطالا للفرص الضائعة.

٣- جددت العولمة الثقة في العلم والتكنولوجيا.

ب. آثار سلبية:

١- تزايد القلق من وجود ثلاثة تكتلات (أوروبا، وأمريكا، واليابان)؛ مما نتج عنه أسواق مالية غير متوازنة تنتقل فيها الأموال دون إذن الدولة، في شكل ومضة كهربية.

٢- وجود نفايات ومخلفات الإنتاج التي صارت عبئا على البيئة، وهذا قد يعادل حربا نووية.

٣- هبوط ثروات مفاجئة لأهل الشطارة والفهلوة والبهلوانية.

٤- وجدت شركات كبرى عالمية أخرى، أعلنت إفلاسها؛ فدول العالم الثالث تبيع الشركات والمؤسسات باسم الخصخصة، وباسم رعاية الطبقة الفقيرة.

٥- تقليل عدد العمال، وفصل أكبر عدد من العمال الدائمين ومنحهم معاشات مبكرة، وإحلال الآلات محلهم.

٦- قد تنخفض السوق ويقل التوزيع بسبب فصل العمال، فالإنسان لن يشتري شيئا ما دام لم يكسب.

٧- نشر القيم الثقافية والعادات الاستهلاكية وأنماط السلوك على الطريقة الأمريكية أو الأوربية، ولاسيما في دول "العالم الثالث".

٨- الاعتداءات العسكرية الأمريكية، باسم مكافحة الإرهاب.

{د.كريم أبو حلاوة: الآثار الثقافية للعولمة، ص.١٧٥، عالم الفكر، مجلد ٢٩ الكويت ٢٠٠١م}

ثانياً: دور الدعوة الإسلامية في عصر العولمة:

إن الإسلام كالنور، فإن صادف أرضا مستوية نشر فيها ضوءه، وإن وجد عائقا انكسر النور، ليبث ضوءه في صورة من الصور. وصدق الله تعالى:

﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون﴾. {سورة الصف ٥}

والإسلام دين دعوة، والدعوة دائما من أخطر الأمور والقضايا. فمتى وجد إسلام، فلا مفر من دعوة للخير ومكارم الأخلاق، ولا مفر كذلك من أن تواجه هذه الدعوة ألوان الشرور والآثام.

• ولكن ما هي الدعوة ؟

الدعوة هي تبليغ هداية الله تعالى إلى خلقه، في ضوء ما جاء في القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، والسيرة العطرة لرسول الله ﷺ، وما أثر عن أصحابه وتابعيه من السلف الصالح، رضوان الله عليهم.

ومن هنا كانت الدعوة أشرف عمل في الوجود؛ ولأنها أيضا رسالة الأنبياء والمرسلين. قال الله تعالى:

﴿ قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾. {سورة يوسف ١٠٨}

وعليه فلا يجوز لمن يحمل ويبلغ رسالة الأنبياء، أن يُرَوَّع أو يُهَدَّد أو يهان أو أن يفعل به كل ذلك!

• وحكم الدعوة في الإسلام: أنها فرض كفاية على الأمة الإسلامية كلها؛ بحيث يلزم الأمة أن تعد جماعة متفقهة في الدين، لها القدرة على تبليغ الدعوة، كما قال عز من قائل:

﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾. {سورة التوبة ١٢٢}

وإن إهمال الدعوة لإثم كبير؛ لأن التكليف العام للأمة الإسلامية لا شك فيه، كما توضحه الآية الكريمة:

﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾. {سورة آل عمران ١٠٤}

• **والنموذج الأعلى للدعوة:** هو منهج النبي ﷺ في دعوته إلى الله وإلى الإسلام. ومن أفضلية هذا المنهج، أن فيه تنوعا ما بين التبشير والإنذار، والتذكير بالله ﷻ، كما تدل الآية الكريمة:

﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا۞ وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا﴾.

{سورة الأحزاب ٤٥-٤٦}

واتسمت دعوة الحق بالرفق، الذي أمر الله به حيث قال:

﴿واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين۞ فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون﴾. {سورة الشعراء ٢١٥-٢١٦}

وكذلك حث عليه رسول الله ﷺ في قوله: **"إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه".** {رواه مسلم}

• **وحال الداعي يشبه حال الطبيب:** فإذا كان الغذاء الحسي له آثاره في تكوين الطفل، وفي تقوية الكبير، فإن الغذاء الروحي له آثاره البعيدة في تربية النشء على العقيدة الصحيحة، وعلى مكارم الأخلاق. وكل أولئك يكون بتبليغ ما جاء به النبي ﷺ تبليغاً صادقاً، والعمل على نشر الثقافة الإسلامية على أوسع نطاق.

والاقتناع أهم وسيلة للتأثير في الآخرين؛ فإذا لم يكن الداعي مقتنعا بما يدعو إليه، فلن يصل فكره إلى أحد.

ويحكى أن رجلاً قال للحسن البصري كلاماً حسناً. فقال له الحسن: إنا لم يؤثر فينا قولك، فإما أن يكون بنا عيب، أو بك. وإن ما كان من القلب يصل إلى القلب.

◦ والقدوة من أهم شئون الدعوة: فالداعي يقتدي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وسيرته. ولا ينسى الداعي في الوقت نفسه أنه قدوة كذلك لمن يتلقون عنه. وقد تكون القدوة في فرد، أو في جماعة، أو في دولة ما. قال الله تعالى:

﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾. {سورة الأحزاب ٢١}

كذلك فإن اعتبار القدوة، يوجب على الداعي أن يكون ملتزماً بالعمل الصالح، عاملاً بما يدعو إليه، قال تعالى:

﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين﴾.

{سورة فصلت ٣٣}

ولا يجوز أيضاً أن يكون الداعي ممن يأمرون بالمعروف ولا يأتونه، وينهون عن المنكر ويأتونه. قال الله تعالى:

﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾.

{سورة البقرة ٤٤}

{أ.د. عبد المنعم محمد حسنين: الدعوة إلى الله على بصيرة. ص ١٧٠ ط١، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م- دار الكتاب اللبناني، بيروت}

وحيث كان الداعي مكلفاً بهذه التكليفات الشاقة؛ فلابد أن يعطي حقوقاً وتسهيلات تمكنه من أداء رسالته، كتوفير النفقة والمسكن والمركب والعلاج، كي يستغني عن الناس، وحتى يتشبه بالأنبياء والرسل في قولهم:

﴿وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين﴾.

{الشعراء١٠٩}

• **وذكر الله عز وجل:** من أفضل الأمور التي تقوي النفس: لكل إنسان على العموم، وللداعي على وجه الخصوص، ولاسيما في المواقف الصعبة. ويدل على ذلك قول الله تعالى مخاطباً موسى عليه السلام:

﴿ اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكري﴾. {سورة طه ٤٢}

وهذا يمهد للحكمة والموعظة الحسنة:

﴿اذهبا إلى فرعون إنه طغى ۝ فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى﴾.

{سورة طه ٤٣، ٤٤}

كما يمهد لإزالة الرهبة والخوف من الداعي، ولاسيما أمام الطغاة والجبابرة:

﴿قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى۝ قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى﴾. {سورة طه ٤٣، ٤٤}

• **ومن أفضل الزاد في الدعوة:** العناية بكتاب الله عز وجل، حفظاً وتجويداً وتفسيراً ، مع حث غيره على ذلك، ولاسيما مع الناشئة.

ويضاف إلى هذا: علم بالسنة النبوية، والسيرة العطرة، وحياة الصحابة والسلف الصالح. وكذلك العلم بما في الدين من أمور كلية، مثل حديث:

"إن الله يرضى لكم ثلاثا، ويكره لكم ثلاثا: يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم. ويكره لكم: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال".

{رواه مسلم}

والخلاصة أن الداعية يأخذ نفسه بفهم الإسلام، فهما صحيحا عميقا، من أصوله ومنابعه، لتثبت قدمه، ويتحقق تفاعله مع الناس.

{الأستاذ فتحي يكن: مشكلات الدعوة والداعية. ص٦٦ وما بعدها. ط١٤٠١هـ -١٩٨١م مؤسسة الرسالة. بيروت}

❁❁❁

وحيث إننا بصدد الحديث عن العولمة أو ما يسمى Globalization. فإن الكلام عن عالمية الإسلام من أهم الأمور. ومظاهر هذه العالمية يتلخص فيما يلي:

١. عموم الرسالة المحمدية ﴿**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾.

{الأنبياء ١٠٣}

٢. ختم النبوة ﴿**وخاتم النبيين**﴾. {الأحزاب ٤٠}

٣. شريعة عامة صالحة لكل زمان ومكان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا**﴾. {سورة المائدة ٣}

{الشيخ محمد الراوي: الدعوة الإسلامية دعوة عالمية. ص٢٦ وما بعدها. سلسلة من الشرق والغرب ١٣٨١هـ-١٩٦٢م القاهرة}

• **ومن عجائب الدعوة في الإسلام:** أنك قد تجد مسيرة الهداية قائمة على يد تاجر مسلم في أحراش آسيا، وفي أدغال أفريقيا.

والداعي المسلم قد يساعد البيت والمدرسة على إرساء العقيدة فى نفوس النشء، وكذلك الثقافة والأخلاق والعادات الطيبة.

وفى ظل العولمة يجب التركيز على تربية الفتاة والمرأة أكثر من ذي قبل، من أجل الحصانة ضد التيارات الماجنة. وما ذكرناه إنما هو حق للمرأة؛ لأن الله تعالى سوى بينها وبين الرجل في المسئولية والحقوق والواجبات، كما قال سبحانه:

﴿**للرجال نصيب مما اكتسبوا، وللنساء نصيب مما اكتسبن**﴾.

{سورة النساء ٣٢}

وكذلك سوى بينهما في الحد والجزاء فقال:

﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله﴾. {سورة المائدة ٣٨}

ومما تجب مراعاته هنا، ألا يطغى حق المرأة فى التعليم على حقها كأنثى. وذلك باختيار نوع التعليم الذي يصلح شأنها؛ حتى لا تمسخ أنوثتها من خلال التعليم، ولا تضيع كرامتها من خلال الاختلاط.

لكن الجهل هو أخطر الأمور على المرأة؛ حيث يحجب عنها المعرفة الحقيقية، فلا تميز بين الحلال والحرام إلا قليلاً، كما يقل وفاؤها لربها ولنفسها ولزوجها.

ومن نافلة القول أن نؤكد على ضرورة التدرج فى الدعوة؛ لأن ذلك أمر مسلم به لدى أهل الذكر.

لكن الذى نشير إليه هنا، هو مراعاة التدرج فى الأوامر والنواهي، ولاسيما لدى من ضعف أخذهم بهما، والتفريق بينهما. والأسلوب الأمثل لتنبيه هؤلاء، هو الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدل بالتي هي أحسن:

﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾.

• **كذلك يجب التدرج في الدعوة مع غير المسلمين من أهل الكتاب وغيرهم:** ويكون التركيز بالرفق على جملة أمور هامة منها: التوحيد الخالص لله عز وجل، والتسليم بنبوة محمد ﷺ، والعبادات بكل أنواعها. كل ذلك في تدرج حكيم، ولاسيما في الأمور المحرمة التى ألفوا ممارستها مثل شرب الخمر.

ومن أهم ما تركز عليه الدعوة حديثاً، التعامل مع المال؛ لأنه منزلق خطير. وهو الميزان الذى يوزن به إخلاص الولاة والمسئولين فى أي موقع.

ومما يتصل بالمال، الحذر الشديد من الوقوع في الربا، وهو ما يؤكد عليه القرآن الكريم فى قوله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين. فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ۞ وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون﴾. {سورة البقرة ٢٧٨-٢٧٩}

وبمناسبة الكلام عن المال، فإن المال عصب الحياة، والداعية بشر يحتاج إلى المال لتدبير حياته وحياة أسرته.

فلا يجوز أن يتناوله الناس بالنقد والتشهير، إن وجدوه يباشر تجارة أو زراعة أو صناعة؛ ليرفع مستوى معيشته من طريق حلال، بما يغنيه عن الحاجة والسؤال، ولاسيما لدى من يدعوهم ويؤمهم. فإن سأل الناس شيئاً سقطت منزلته وضاعت ثمرة موعظته.

ونؤكد كذلك على أمر آخر هام بالنسبة للداعي، وهو أن الناس ينظرون إليه على أنه هو المكلف وحده بتطبيق الشريعة، وأن الأمر بالنسبة لهم اختياري أو حسبما اتفق.

وليس الأمر كذلك تماماً؛ لأن الداعي وغير الداعي يشملهم التكليف. وإذا كان الداعي يراعي بشريتهم، فعليهم أيضاً أن يراعوا بشريته. فقد تحدث له ظروف حرجة، وقد يصيبه ما أصابهم، من معاناة ومشقة الحياة والمرض والموت.

۞۞۞

وفي ظل العولمة قد يتغير كل شيء: والدعوة الإسلامية من الأمور التي تستوجب التغيير والتطوير. والإصلاحُ والتطوير في كل أمر، يبدأ أولاً بالتجرد من السلبيات.

ومن أهم السلبيات التي يجب على الدعوة الإسلامية التجرد منها؛ لتواكب ظروف العولمة والعالمية ما يلي:

• الحذر من الدخول في تخصصات دقيقة لها أهلها، مثل من يقحمون أنفسهم في الكلام عن الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، مع معرفتهم بوجه واحد هو تفسير النص ولو على النمط السالف. ومن الخطأ هنا أن يتحدث الداعي عن الخلية والذرة، وهو لم يدخل معملا للتجارب العلمية مثل أهل الذكر، فهذا له خطورة شديدة وربما أدى إلى الاستهانة بالدين.

{أ.د/ يوسف القرضاوي: ثقافة الداعية ص١٨٧ط-١٣٩٦هـ نشر الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية بالكويت. كتاب رقم ٢٦}

• ومما يجب أن تتخلى عنه الدعوة من السلبيات: بناء الدعوة على الصراع مع الأفراد والهيئات والسلطات، وتحدي الحكام مما يجرئ العامة عليهم وعلى الدولة. ومما يتبع ذلك: الإسراف في العبارات العاطفية، وأساليب الإثارة التي تصرف الناس عن العمل والتطبيق.

• ألا يكون للظروف الخاصة بالداعي، أي تأثير على أدائه، مهما كانت هذه الظروف. فقد يتحدث مثلا عن مشكلة الإسكان؛لأنه يعاني من مشقة الحصول على مسكن. وكل ذلك له آثاره غير الطيبة على المتلقين.

• ومما يجب النظر فيه، حشد الحكايات والروايات في المناسبات الخاصة، كسرد موضوع الهجرة، أو الإسراء والمعراج والغزوات، دون إعطاء فرصة للتفقه في هذه الحوادث الجليلة. وهذا مما ينتج عنه سطحية ولامبالاة، خصوصا لدى الذين يحفظون هذه الأمور من تكرارها على مسامعهم كل عام.

• ومن المسلم به أن العقل من أعظم النعم التي منحها الخالق للإنسان. فلا يجوز عزله والانتقاص من قيمته وشأنه. والذي يحدث من بعض الدعاة أن يقلل من شأن العقل؛ كي يعلي من قيمة النص. مع أن العقل له دور كبير في فقه النص من جهة، وفي التطبيق من جهة أخرى. قال أحد مفكري الدعاة ممن نُجلّهم:

"إن ما فعله الفلاسفة المسلمون، مثل: ابن سينا والفارابي والكندي وابن رشد-ما كان سوى نوع من أنواع التكلف، يلوون معه أعناق النصوص القرآنية؛ ليتفق مع ما أولع به القوم من فلسفة أرسطو وأفلاطون".

{أ.د. السيد رزق الطويل: الدعوة في الإسلام: عقيدة ومنهج، ص٤٣،٤٤ ط.٤ ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م نشر رابطة العالم الإسلامي- مكة المكرمة}

وليس لنا من تعليق على هذا الكلام، سوى أنه تعميم سريع يتناسى أن الفلسفة حكمة، وأن الفلاسفة حكماء، وأنهم كان لهم دور رائد في التنوير الإسلامي، مع تسليمنا ببعض الزلات والهفوات، ليظل هناك فارق دائما بينهم وبين الأنبياء المعصومين.

وقد صرح غير المسلمين بأنه من عوامل انتشار الإسلام، أنه يقوم على أساس المنطق والعقل مع التسليم بأنه وحي من الله.

{أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص٣٤٥ ترجمة د.حسن إبراهيم وزميليه (دون تاريخ) مكتبة النهضة المصرية}

• وينادي بعض الدعاة الأفاضل، بتوحيد المناهج في دروس الدين، بالدول العربية والإسلامية؛ نظرا لأن السلام هو الإسلام في عقيدته وعباداته ومعاملاته.

{أ.د. أحمد عمر هاشم: الدعوة الإسلامية: منهجها ومعالمها. ص٧٧ ط١٩٩٠م مكتبة غريب، القاهرة}

ومع احترامنا لأصحاب هذا الرأي ودوافعهم الطيبة، في توحيد الأمة الإسلامية، فإننا نرى عدم وحدة المناهج، ونرى تعدد البحوث والمؤلفات؛ لأن هذا يعمق الفكر الإسلامي ويثري الثقافة الإسلامية، بشرط أن تطابق تلك المناهج والمؤلفات أصول العقيدة والشريعة في الإسلام.

• والتقليد من السلبيات التي يجب أن تتنزه عنها الدعوة اليوم، فليس من واجب المسلم أن يقلد أحد أئمة الفقه، وقد قال أحدهم وهو الشافعي:
"لا تقلدوني، ولا تقلدوا مالكا، ولا الأوزاعي ولا الثوري، وخذوا من حيث أخذوا"

ومما يتبع ذلك: أن يجتهد أحد الدعاة في مسألة، ثم يوجب على الناس أن يأخذوا برأيه. وقد يدعي أن رأيه حجة، مع أن الحجة للنص الصحيح وحده.

• ومن الأولى تنزيه الدعوة عن التكلف، ومنه التنطع والتشدد. وقد وقع في ذلك- وما زال- عدد غير قليل من الدعاة. وهم يعلمون قوله ﷺ:
"هلك المتنطعون" قالها ثلاثا وقوله: "إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه؛ فسددوا وقاربوا وبشروا". {رواه البخاري}

• والدعوة لا تقل عن المرابطة في سبيل الله، لحديث:

"أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر". {رواه النسائي وابن ماجة وأحمد}

وهنا قد يقع البعض في عدم التمييز بين العادل والجائر، أو في تحديد كلمة الحق، ما هي؟ فيترتب على ذلك إيذاء نفسه وإيذاء غيره، ثم يتوهم أنه من المجاهدين.

وقد يعرف الداعية "كلمة الحق" لكن البيئة التي يعيش فيها قد لا تسمح بذلك، مثل المعارين والمبعوثين إلى بلاد أخرى.

• وربما كثر الوعاظ في المناطق الشعبية. لكن الذي يلفت النظر أن تلك المناطق لا تتأثر بالوعظ إلا تأثرا آنيا أو بُرْهيا، ثم تعود المياه العكرة إلى مجاريها، من إلقاء المخلفات في الطريق، ومن سوء السلوك، والدجل والشعوذة والسحر، وما يترتب على ذلك من علاج بالقرآن الكريم، ولا يتم العلاج به إلا بشروط خاصة لا تتوفر لدى الكثيرين.

• ومن غرائب الأمور أن يوهمك بعض الدعاة بأنه يتحدث عن الدعوة، وإذا بك تكتشف يوما أنه يتحدث عن دعوته هو، لنفسه أو لمذهب أو لفرقة ينتمي إليها. وليس هذا وليد اليوم، بل إنه انحدر إلينا مع فكر الغلاة والباطنية.

• وإذا كنا في ظل العولمة أو العالمية، نطالب بإعلام إسلامي متميز، فقد تمكن المسلمون من لون من هذا الإعلام فعلا، لكنه للأسف استغل على مستوى شخصي ومذهبي خاص، ومن أمثلة ذلك:

- المراكز الإسلامية بالدول الأوروبية، وهي مجال خصب للدعوة إلى الله وإلى الإسلام. لكن بعض الأشخاص من ذوي الانتماء إلى اتجاهات خاصة يسيطر عليها، ويجعل منها منبرا لتأكيد الدعوة إلى هذا الاتجاه الذي يرعاه. ولا يَستدعى لإلقاء محاضرات هناك إلا أشخاصاً معينين من أنصار ذلك الاتجاه. وهذا قد ضيع فرصة الدعوة الحقيقية، كما حجب كفاءات نادرة.

- بعض القنوات الفضائية، ركبها بعض أصحاب الاتجاهات الخاصة، ممن يدّعون أنهم "دعاة"، وأخذوا يبثون آراءهم وعصبيتهم وأهواءهم من خلال تلك القنوات. فأضاعوا بذلك فرصاً كثيرة على دعاة ومفكرين آخرين متميزين، كان باستطاعتهم أن يقولوا قولا لينا واعيا، وأن يدعوا إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

- وقل مثل ذلك في برامج دينية، سيطر عليها مذيعون من الإذاعة والتليفزيون، وهم خريجو كليات عملية لا تمت للدعوة بصلة. ولم يقف الأمر عند هذا الحد من السوء، بل ينتدبون بعض أساتذتهم ومعارفهم للحديث في تلك البرامج الدينية، فيتحدثون بسطحية وسذاجة، ناهيك عن ذبح اللغة العربية بغير سكين.

- وخذ أيضا ذلك البرنامج الطيب للتليفزيون المصري، الذي يسمى "حديث الروح"؛ فقد احتكره قوم تكرر ظهورهم فيه إلى حد أن سئم الناس منهم. وحوله بعضهم إلى خطب منبرية تقليدية لا روح فيها. وترتب على ذلك حجب كفاءات أخرى كانت تستطيع أن تأتي بالجديد والشيق في عالم الفكر الإسلامي.

وبعد: فهذا قليل من كثير، وما قلناه عن الإذاعة والتليفزيون ينطبق أيضا على بعض الصحف والمجلات، التي قصرت الفتوى في بعض المشكلات المعروضة عليها على خواص من أهل الثقة، وغاب عنها أهل الخبرة الحقيقيون الذين هم أهل للفتوى وأهل للتقوى.

❁❁❁

فإذا أردنا للدعوة الإسلامية، أن تواكب العالمية أو العولمة-مع إقرارنا بفوارق بينهما- فلابد من الرجوع إلى الإيجابيات، والتخلي عن السلبيات التي تجمد الدعوة وتعطل مسيرة الإسلام.

﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب﴾.

٥- مفهوم الحضارة في الإسلام

تعريفها:

الحضارة "Civilization": لغة:

هي الإقامة في الحضر، بخلاف البداوة، وهي الإقامة في البوادي. قال القطامي:

ومن تكن الحضارة أعجبته   فأيّ رجال باديةٍ ترانا

• ومع أن استخدام هذا اللفظ قديم، فإن أول من أطلقه على معنى قريب من معناه الحاضر هو ابن خلدون، حيث فرّق في مقدمته بين العمران البدوي والعمران الحضري، وجعل أجيال البدو والحضر طبيعية في الوجود. فالبداوة أصل الحضارة، والبدو أقدم من الحضر؛ لأنهم يقتصرون على انتحال الزراعة والقيام على الحيوان؛ لتحصيل ما هو ضروري لمعاشهم.
أما الحضر فإن انتحالهم للصنائع والتجارة، يجعل مكاسبهم أكثر من مكاسب البدو، وأحوالهم في معاشهم زائدة على الضروري منه.

• وإذا كانت البداوة أصل الحضارة، فإن الحضارة غاية البداوة ونهاية العمران.

والحضارة عند المحدثين:

لها معنيان:

أ. معنى موضوعي: وهو إطلاق لفظ الحضارة على جملة من مظاهر التقدم الأدبي والفني والعلمي والتقني، التي تنتقل من جيل إلى جيل في مجتمع واحد أو عدّة مجتمعات متشابهة. تقول: الحضارة الصينية، والحضارة العربية، والحضارة الأوروبية. وهي بهذا المعنى متفاوتة فيما بينها، ولكل حضارة نطاقها وطبقاتها ولغاتها: فنطاقها هو حدودها الجغرافية، وطبقاتها: هي آثارها المتراكمة بعضها فوق بعض في مجتمع واحد، أو في عدة مجتمعات، ولغاتها هي الأداة الصالحة للتعبير عن الأفكار السياسية والتاريخية والعلمية والفلسفية.

ب. معنى ذاتي مجرد: ويطلق على مرحلة سامية من مراحل التطور الإنساني المقابلة لمرحلة الهمجية والتوحش. وربما أطلق على الصورة الغائية التي نستند إليها في الحكم على صفات كل فرد أو جماعة، فإذا كان الفرد متصفا بالخلال الحميدة المطابقة لتلك الصورة الغائية، قلنا: إنه متحضر. وكذلك الجماعات؛ فإن تحضّرها متفاوت بحسب قربها من هذه الصورة الغائيّة أو بُعْدها عنها.

ومع أن الصورة الغائية للحضارات مختلفة باختلاف الزمان والمكان؛ فإن اختلافها لا يمنع من اشتراكها في عناصر واحدة. وتتألف تلك العناصر في عصرنا من: التقدم العلمي والتقني، وانتشار أسباب الرفاه المادي، والميل إلى القيم الروحية والفضائل الأخلاقية.

ولكن ما هو الفرق بين الثقافة والحضارة؟

الجواب هو أنهما لا يدلان على معنى واحد: فقد يطلق لفظ الثقافة على تنمية العقل والذوق، أو على مجموع عناصر الحياة وأشكالها ومظاهرها في مجتمع من المجتمعات.

وخير وسيلة للتفريق بينهما: أن يطلق لفظ "ثقافة" على مظاهر التقدم العقلي وحده، وهي ذات طابع فردي، وأن يطلق لفظ الحضارة على التقدم العقلي والمادي معا، وهي ذات طابع اجتماعي.

{د. جميل صليبا: المعجم الفلسفي١: ٤٧٥-٤٧٧. ط١، ١٩٧١م.دار الكتاب اللبناني- بيروت}.

وهل يوجد فرق بين الحضارة والنهضة؟

إن الحضارة هي مظاهر الرقي العلمي والفني والاجتماعي في الحضر. أما "النهضة" فهي تعني اليقظة والنشاط والوثبة في سبيل التقدم الاجتماعي وغيره.

{انظر:المعجم الوجيز لمجمع اللغة العربية مادة "حضر" ومادة "نهض"}.

• ويلاحظ أن الحضارة والنهضة يدلان على مفهوم واحد، وهو الرقي والتقدم في جميع مجالات الحياة دينيا وعلميا وفنيا واجتماعيا.

• لكن الحضارة أعم وأشمل من النهضة؛ لأن النهضة وثبة سريعة بعد ركود وفساد من أجل الإصلاح، بينما الحضارة منهج إصلاح حثيث دائم؛ بحيث يترك بصمات واضحة على تاريخ الأمة، ويكون أحد معالمها البارزة.

والخلاصة:
أن الحضارة هي نتاج الإنسان المدني والاجتماعي، بخصائصه الفكرية والروحية والوجدانية والسلوكية؛ تحقيقا لأهداف أمته، وما ارتضته هذه الأمة لنفسها من قيم ومبادئ: "الحضارة ليست أجزاء مبعثرة ملفقة، ولا مظاهر خلابة... هي جوهر ينتظم جميع أشيائها وأفكارها وروحها ومظاهرها، وقطب يتجه نحوه تاريخ الإنسانية".
{مالك بن نبي: شروط النهضة. ص١٥٩ ترجمة: د.عبد الصبور شاهين ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م دار الفكر بدمشق}.

وقد توجد أمة متفوقة ماديا، ومتقدمة علميا وصناعيا، ولكنها غير متحضرة إنسانيا، وغير ناهضة، روحيا وخلقيا. ومن أمثلة ذلك تلك الدول الكبرى، التي يوجد فيها "تفرقة عنصرية" بين البيض والسود، والتي يوجد فيها استعباد واضطهاد للأقليات الإسلامية، وكل ذلك يباعد بين هذه الدول، وبين أن توصف بالحضارة.

ومما يخرج من مفهوم الحضارة، تلك الدول المادية العظمى، التي استخدمت ثراءها وقوتها في إشعال الحروب المدمرة التي راح ضحيتها ملايين كثيرة من الأبرياء. وتلك الدول أصابها- وسوف يصيب الموجود منها- ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح. وصدق الله تعالى:

﴿حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأنْ لم تَغْن بالأمس﴾. {يونس ٢٤}

مفاتيح الحضارة في الإسلام:

١. العلم الشامل:

يعتبر الإسلام أول عقيدة كرمت العلم والعلماء، ومعناه أنه عني بأصل الحضارة وقوتها الدافعة.

{احمد علي الملا: أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية من ١١٢، ط٦، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م دار الفكر بدمشق}

فالله ﷻ قد كرّم العلم والعلماء، في أول آية نزلت في القرآن الكريم:

﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق ۞ خلق الإنسان من علق ۞ اقرأ وربك الأكرم ۞ الذي علّم بالقلم ۞ علّم الإنسان ما لم يعلم﴾.

{سورة العلق ١-٥}

• والله ﷻ قرن الإيمان بالعلم، رفعا لمقام العلماء:

﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾.

{المجادلة ١١}

• وإن طالب العلم في صف المجاهدين:

"من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع".

{رواه الترمذي}

وطريق العلم يؤدي إلى الجنة:

"من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهّل الله له طريقا إلى الجنة".

{رواه مسلم}

إن العلم في الإسلام يشمل كل علم نافع، سواء كان دينيا أو كان دنيويا، نظريا أو تجريبيا، فرض عين أو فرض كفاية. المهم أن يكون هذا العلم في خدمة الدين والدنيا؛ لرفع لواء المدنية والنهضة والحضارة.
وحيث حث الإسلام على العلم، لم يقيّده بالعلم الديني، أو الكوني، أو النظري، أو التجريبي، وإنما أطلق لفظ العلم ليشمل كل علم نافع يعود بالخير على الأمة في دينها ودنياها، قال تعالى:

﴿وقل رب زدني علما﴾. {طه ٢٠}

فلم تقيد الآية ذلك بعلم الدين، ولا بعلم الدنيا، وإنما أطلق اللفظ ليشمل الأمرين معا، وليدل على كل علم نافع. وقال ﷻ:

﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾. {الأنفال٨}

ونرى أن الإعداد يشمل الإعداد المادي والإعداد المعنوي. فصار تعلم الهندسة والكيمياء والفيزياء والذّرة من قبيل فرض الكفاية لدى الأمة الإسلامية، إذا قام به البعض سقط الإثم عن الباقين، وإن لم يقم به أحد فالكل آثمون.

يضاف إلى هذا أن كل الآيات القرآنية التي تحض على التأمل والتفكر في خلق السماوات والأرض، إنما هي في الحقيقة حَضٌ على العلم التجريبي في كل صوره وأنواعه، وهذا يزيد المسلم إيمانا بعظمة الخالق العظيم:

﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾.

فالعالم كلما ازداد علما بخفايا الكون وأسرار الطبيعة، ازداد إيمانا بالله وخشية منه.

وإذا كان الواجب الحربي، يتطلب من المسلمين في الماضي أن يكون عندهم خيل ودروع وسيوف ورماح، فإن الواجب عليهم الآن أن يعدّوا الطائرات والقنابل والصواريخ والمدافع، بما يتناسب مع حروب العصر، ومتطلبات الجهاد؛ ليقابلوا القوة بالقوة والإعداد بالإعداد، وإلا وقعوا جميعا في الإثم، لأنهم لم يحققوا هذا الواجب، ولم يقوموا بهذا الإعداد.

ويظهر مما سبق أن مبدأ العلم في الإسلام: هو مفتاح كبير من مفاتيح الحضارة خلال العصور. مع ملاحظة أن ما كان مفتاحا للحضارة، فهو أيضا مفتاح للنهضة.

٢. التفكر في ملكوت الله:

لا يخفى على مسلم ما يفيض به كتاب الله تعالى من الآيات التي تحض على التفكر في ملكوت الله ﷻ، من مثل:

﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾.

{سورة البقرة ١٦٤}

وكذلك قوله تعالى:

﴿ أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجلٍ مسمى وإنّ كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون ﴾. {الروم ٨}

وفي هذه النصوص ما يلفت نظر الإنسان إلى وجود الإله الواحد المعبود، وتُحرّكُ في قلبه الإيمان بالله ﷻ. وهي أيضا تفتح أمام العقل الإنساني آفاقا جديدة من المعرفة الكونية وعلوم الأحياء وسرّ وجود الحياة؛ ليزداد المؤمن إيمانا بعظمة الخالق وقدرته الفائقة. وصدق الله تعالى:

﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾. {سورة فصلت ٢٣}

ويتبين من هذا كله، أن مبدأ التفكر في ملكوت الله، هو مفتاح كبير من مفاتيح الحضارة والنهضة في الإسلام.

٣. مبدأ تكريم الله للإنسان:

ويتضح هذا من قول الله ﷻ:

﴿ ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾. {الإسراء ٧٠}

وأهم مظاهر هذا التكريم:

أ. تكريم الله للإنسان بالعقل والحواس: فهما الطريقان إلى المعرفة واستجلاء الحقيقة، واكتشاف عظمة الله في الكون، كما قال تعالى:

﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾. {النحل ٧٨}

وقد جعل الله تعالى الإنسان مسئولا عن عقله وحواسه إذا هو لم يستعملها في طاعة الله وخدمة عباده كما قال تعالى:

﴿ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا﴾. {الإسراء ٣٦}

ومن يعطّل حواسه فهو كالأنعام، بل هو أضلّ:

﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعينٌ لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضلّ أولئك هم الغافلون﴾. {الأعراف ١٧٩}

ب. وكرمه بالاستخلاف في الأرض:

كما قال تعالى:

﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾. {الأنعام ١٦٥}

وتقتضي الخلافة أن يكون الإنسان سيد الأرض، ومالك زمامها، والمستجلي لكل سرّ فيها. ولا يتأتى له شيء من ذلك إلا بالعلم والمعرفة، ليتمكن من تسخير هذه القوى الطبيعية لخدمة الحضارة الإنسانية. وعلى هذا فإن مبدأ تكريم الله للإنسان إنما هو مفتاح كبير من مفاتيح الحضارة والنهضة الإسلامية.

٤. مبدأ المساواة الإنسانية:

ويتجلى ذلك من قوله تعالى:

﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾. {الحجرات ١٣}

وفي الحديث الشريف:

" كلكم لآدم، وآدم من تراب، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى والعمل الصالح".

فكل من ينضوي تحت راية الإسلام فقد ساهم في بناء الحضارة الإنسانية، بغضّ النظر عن أجناسهم المختلفة، وألوانهم المتباينة، ولغاتهم المتعددة.

وكان غير العرب في الدول الإسلامية، يتبوأون أسمى المراتب، وينالون أعلى المناصب. وصاروا من أشهر الرجال في النبوغ العلمي والتفوق الحضاري، أمثال: أبي حنيفة وسيبويه والبيروني والخوارزمي والرازي وابن سينا، ومئات غيرهم ممن حملوا ألوية الفقه والطب والرياضيات والفلسفة والتاريخ والفلك والجغرافيا وسائر العلوم. وقد ساهم أولئك في بناء الحضارة الإنسانية إسهاما عظيما.
وبذلك كان مبدأ المساواة الإنسانية في الإسلام أحد المفاتيح الكبيرة للحضارة الإسلامية.

٥. مبدأ الانفتاح والتعارف:

قال الله تعالى:

﴿يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا﴾. {الحجرات ١٣}

وفي الحديث الذي رواه الترمذي:

"الحكمة ضالة كل حكيم فإذا وجدها فهو أحق بها".

ومما يؤكد هذا التعارف: الإحسان والبر والقسط، للذين لم يقاتلونا في ديننا، ولم يخرجونا من ديارنا، ولم يتآمروا على بلادنا:

﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾. {الممتحنة ٨}

ومن الأمور التي تؤيد هذا التعارف:

- المحافظة على العهود والمواثيق، ولو كان ذلك مع المشركين:

﴿إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدّتهم إن الله يحب المتقين﴾. {التوبة ٤}

- ومن ذلك: إجارة غير المسلم ولو كان مشركا:

﴿وإنْ أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون﴾. {التوبة ٦}

- ومنه: تجويز أكل ذبائح أهل الكتاب، والتزوّج من نسائهم:

﴿ اليوم أحلّ لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حلّ لكم وطعامكم حلّ لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين

أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان﴾. {المائدة ٥}

{د. عبد الله ناصح علوان: معالم الحضارة في الإسلام وأثرها في النهضة الأوروبية. ص١٣-٣٠. ط٢، ١٤٠٤هـ١٩٨٤م دار السلام-بيروت}

❁❁❁

ميادين الحضارة الإسلامية:

أولا: ميدان الدين الإسلامي:

إن أهم ما يتميز به الإسلام هو عقيدة التوحيد الخالص التي جاء بها الإسلام. وهذه العقيدة:

١. قررت الإيمان بالله الواحد: المنزّه عن الشبيه والشريك والولد، وشعارها في ذلك:

﴿قل هو الله أحد ۞ الله الصمد ۞ لم يلد ولم يولد ۞ ولم يكن له كفوا أحد﴾. {سورة الإخلاص}

٢. نفت عقيدة الوساطة بين الخالق والمخلوق: وشعارها في ذلك:

﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾. {البقرة ١٨٦}

٣. جمعت في طياتها عقيدة كل الديانات السابقة:

﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾. {الشورى ١٣}

٤. قررت أن الكتب السماوية يصدق بعضها بعضا، والمتأخر يتمم منها المتقدم وينسخه:

أ. تصديقها للكتب السابقة:

﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه﴾. {المائدة ٤٨}

ب. ناسخة للكتب السابقة:

﴿يأيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردّها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا﴾. {النساء ٤٧}

٥. قررت أن الأنبياء والعلماء والربانيين ليس لهم من الأمر شيء: ولا يملكون لمخلوق ضرا، ولا هداية، ولا مغفرة؛ وإنما مردّ ذلك إلى الله سبحانه وحده. قال تعالى:

﴿ ليس لك من الأمر شيء﴾. {آل عمران ١٢٨}

وقال سبحانه وتعالى:

﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾. {التوبة ٥١}

٦. قررت مبدأ المسئولية الفردية: واعتبرت كل إنسان مسئولا عن عمله، كما نفت أن تتحمل نفسٌ مسئولية نفس أخرى بعد تربيتها:

﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾. {الإسراء ١٥}

﴿كل امرئ بما كسب رهين﴾. {الطور ٢١}

٧. قررت حق الحاكمية والتشريع لله وحده: فلا يملك أحد من البشر أن يحرّم ما أحلّ الله، أو أن يحلّ ما حرّم الله:

﴿ إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه﴾. {يوسف ٤٠}

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾.
{المائدة ٤٤}

• ولقد ندد القرآن الكريم بأهل الشرائع السابقة، الذين اتخذوا الأحبار والرهبان أربابا من دون الله.
وفسّر النبي ﷺ لعدي بن حاتم هذا المعنى من الربوبية، حين سأله: إنهم ما عبدوهم؟ فقال ﷺ: "**إنهم إذا أحلّوا لهم شيئا استحلّوه، وإذا حرّموا عليهم شيئا حرّموه، فهذه عبادتهم**".

❁❁❁

لقد كان لعقيدة التوحيد هذه آثار بعيدة المدى. وحين قامت حركات الإصلاح الدينية في أوروبا منذ القرن السابع الميلادي، حتى عصر النهضة الحديثة: وُجد من النصارى من ينكر عبادة الصور، ومن ينكر الوساطة بين الخالق والمخلوق، ومن ينكر أن المسيح هو ابن الله أو ثالث ثلاثة.
وقد ثبت أن "مارتن لوثر" في حركته الإصلاحية ضد رجال الكنيسة، كان متأثرا بما قرأه للفلاسفة العرب. والعلماء المسلمين من آراء في الدين.
{د.عبد الله علوان: معالم الحضارة في الإسلام ص٣٠-٤٢}

ثانيا: ميدان العلوم المتنوعة:

من المسلّم به تاريخيا، أن أوروبا في القرون الوسطى، كانت في تخلف فكري كبير، سواء كان ذلك في الفلسفة أم في الطب أم في الرياضيات والكيمياء والفلك، إلا قليلا.
وفي الوقت الذي كان علماء الإسلام، يتحدثون في حلقاتهم العلمية عن كروية الأرض ودورانها، وعن الأجرام السماوية وحركاتها- كانت عقول أهل أوروبا تغرق في الخرافات والأساطير والجهالات والأوهام.

• بل كانت الكنيسة حينذاك تحكم بالكفر والإعدام، على كل من يأتي بآراء علمية تخالف تعاليم الكنيسة. وكان لمحاكم التفتيش في أوروبا تاريخ حافل بالقسوة والغلظة، في مطاردة رجال الفكر والفلسفة والعلم والإصلاح.

بل صادرت وأحرقت كتب هؤلاء العلماء، حتى لا يطلع الناس على ما فيها من آراء تُحرّمها الكنيسة، كالقول بدوران الأرض، والقول بتحريم الصور، وحرية الإنسان في فهم الكتاب المقدس دون وساطة القساوسة.

وكل هذا يبيّن قيمة انطلاق الحضارة العلمية والفلسفية والأدبية، التي كانت متمثلة في مفكري الإسلام الأفذاذ، والتي كانت سببا في نهضة أوروبا الحديثة، ونهضة القرن العشرين.

أمثلة من العلوم المتنوعة:

١- في الفلسفة: يوجد لدى المسلمين أسماء لامعة، وإنتاج غزير، أمثال: ابن باجة (ت٥٣٣هـ)، وابن رشد (ت٥٩٥)، وغيرهما. وكان الفيلسوف الفرنسي "توما الإكويني" المتوفى عام ١٢٧٤م يعتبر من أكبر فلاسفة اللاهوت المسيحي في القرون الوسطى، ومع هذا كان عالة في آرائه على فلسفة ابن رشد.

وقد ترجمت كتب ابن رشد إلى اللاتينية، وبقيت فلسفته مسيطرة على الفكر الفلسفي الأوروبي من أواخر القرن الثاني عشر الميلادي، حتى إن مجمع "باريس" اللاهوتي، أصدر قرار الحرمان عام ١٢٦٩م لكل من يردد كلام "ابن رشد" في النفس والإنسان، وغير ذلك من الموضوعات الفلسفية.

كذلك فإن الفيلسوف ابن سينا، ذاع صيته في العصور الوسطى شرقا وغربا، في الفلسفة والطب، ورأى أن العقل هو مرشد النفوس البشرية إلى طرق الخير. ومن أشهر مؤلفاته كتاب "الشفاء"، ويعتبر موسوعة فلسفية كبرى حوت أقسام الفلسفة من منطق وطبيعيات وإلهيات، وقد ترجم إلى اللاتينية، ومنها إلى بعض اللغات الأوروبية الأخرى.

٢- في التاريخ: لقد كان للمسلمين الفضل في جعل التاريخ علما قائما بذاته له فنّه وأصوله. ويعتبر "ابن خلدون" من أبرز مَنْ كتب في "علم التاريخ"، ومن الذين ابتكروا في منهجه، وقد حظيت مقدمته بالترجمة

عدة مرات إلى لغات مختلفة. ومن مقدمة ابن خلدون استمد "أوجست كونت" العالم الفرنسي كثيرا من آرائه ونظرياته.

كذلك كان "ابن حيان القرطبي" من أكبر علماء التاريخ، سواء في التأليف، أم في المنهج النقدي والتحليلي. وكان يذكر التاريخ الهجري وما يقابله من الميلادي للحادثة الواحدة، بل ويحدد ساعات الحادثة غالبا، مما يندر وجوده الآن في كتب التاريخ.

- ومن أشهر المؤرخين المسلمين غير ما ذكرنا: الرازي، وابن الخطيب، وابن الأثير، والطبري وغيرهم. وكان منهجهم في التاريخ يسير على طريقتين:

أ. الحوليات: وهي ذكر الحوادث سنة بعد سنة، فيقول المؤرخ مثلا: وفي سنة كذا، حدث كذا وكذا من الحوادث، ثم ينتقل إلى سنة أخرى.

ب. التاريخ المتسلسل: حيث يبدأ المؤرخ بالحادثة، فيسردها من أولها إلى آخرها، أو يبدأ بتاريخ حاكم أو دولة أو عهد، فيعرض كلا بتواريخه كوحدة مستقلة.

٣- **في الجغرافيا:** ثبت أن المسلمين الأوائل ارتادوا الأماكن والبحار، وفتحوا الطريق للعالم، من أجل القيام برحلات استكشافية. كذلك اخترع المسلمون وسائل وآلات لخدمة هذا العلم براً وبحرا.

ومن أشهر الجغرافيين المسلمين: الرازي، وأبو عبيد البكري، والإدريسيّ، وابن جبير، وابن بطوطة، وغيرهم.

وإن بعض التقارير التي كتبها هؤلاء، لتعتبر حتى الآن من المصادر الأولى، وربما الوحيدة عن أقطار معينة. ولعلهم أول من تحدثوا عن شمال أوروبا وشرقها.

والإدريسي هو الذي صنع كرة فضية ضخمة تمثل الكرة الأرضية، ولازالت تحفظ في متاحف برلين حتى اليوم، وله كتاب "نزهة المشتاق إلى اختراق الآفاق"، وقد ترجم إلى معظم لغات أوروبا الحديثة.

وقد برهن المسلمون على كروية الأرض، بما برهن عليه العلم الحديث الآن: وهو أن الشمس لا تطلع على جميع بلدان العالم في وقت واحد، ولا تغرب عنها في وقت واحد. كذلك قاس هؤلاء المسلمون أبعاد الأرض أيام المأمون.

واشتهر من جغرافيّ المسلمين البحّار "أحمد بن ماجد" الذي دل "فاسكودي جاما" على طريق الهند.

٤- **في الفلك:** قام علماء الإسلام بتأليف نظريات فلكية وأودعوها في كتب عديدة، وقد ترجمت تلك الكتب إلى اللغات الأوروبية المتنوعة.

وتعتبر جداول "ألفونسوْ العاشر" الفلكية في القرن الثالث عشر الميلادي منقولات عن اللغة العربية التي سطرتها الأقلام الإسلامية.

ولقد كان للمسلمين المراصد العلمية والفلكية في طليطلة وقرطبة وبغداد ودمشق والقاهرة وسمرقند وفارس.

٥- **في الهندسة:** كان لعلماء الإسلام القِدْح المُعلّى في ميدان الهندسة والعمران؛ ولاسيما في الزخرفة والنقوش والزينة. وأكبر شاهد على ذلك ما نشاهده من الجوانب الفنية في تصميم المساجد والقصور والمدارس والمؤسسات:

تلك آثارنا تدل علينا ** فانظروا بعدنا إلى الآثار

لقد تأثرت أوروبا بالهندسة المعمارية التي تفنن بها المسلمون، من حيث فنّ الزخرفة، والنقوش، وهندسة البناء. وثبت أن كثيرا من الكنائس في فرنسا تأثرت بالهندسة العربية، حتى إن كنيسة "نوتردام" في باريس عمل فيها مهندسون من العرب. أما تأثير العرب في هندسة أسبانيا فظاهر ظهور الشمس والقمر.

٦- **في الرياضيات:** نبغ علماء الإسلام في علم الرياضيات، وهم الذين وضعوا للعالم أصولها ومبادئها. وقد ألف "ليونارد البيزي" حوالي ١٢٠٠ رسالة في الجبر الذي تعلمه من العرب.

كذلك اخترع المسلمون الصفر الذي حلّ مشاكل كثيرة في العمليات الرياضية، ونقل إلى أوروبا من الأندلس. كذلك اخترعوا الكسور العشرية في الحساب، والرموز الرياضية مثل "س"، "ج" للجذر، وكل ذلك ترجم إلى لغات أوروبية، كذلك مهدوا لاكتشاف "اللوغاريتمات" على يد ابن يونس.

وإن أعظم من نبغوا في فن الرياضيات من المسلمين: الحسن بن الهيثم، وابن سينا،والخوارزمي وغيرهم كثير.

٧- **في الفيزياء:** بحث المسلمون سابقا في الفيزياء بجميع فروعها، غير أن بحوثهم لم تصل إلينا، لأن أكثرها قد ترجم إلى اليونانية واللاتينية، وانتحل المترجمون لها أسماءً أوربية.

ففي الضوء المسمى بعلم البصريات أو علم المناظر، نجد أن بعض علماء الإسلام قد اهتموا بهذا الجانب اهتماما كبيرا، مما كان له أثره على تقدّم الفلك والطبيعة.

وأبرز رائد في هذا العلم، هو ابن الهيثم، وله في هذا التخصص كتاب "المناظر" وهو كتاب علمي يقوم على المشاهدة والتجربة والاستنباط، وقد ترجم إلى اللاتينية، وصار هو المرجع الوحيد للباحثين في هذا العلم طوال العصور الوسطى. ويقع كتاب "المناظر" في سبعة مجلدات مخطوطة، تبحث في علم المناظر، وفي تشريح العين ورسمها وأسماء أقسامها من الشبكية والقرنية والسائل الزجاجي، كل ذلك بناء على تجارب، مع بيان كيفية إجراء التجربة وشروطها.

وقد ثبت تاريخيا أن المسلمين هم أول من عرفوا خاصية الاتجاه، وأنهم أول من استعملوا الإبرة المغناطيسية بعد اكتشافهم لها، وقد نقلتها عنهم أوروبا بعد ذلك، كما أقرّ بذلك المنصفون من علماء الغرب.

٨- **في الكيمياء:** ساهم علماء الإسلام في علم الكيمياء مساهمة فعّالة، بدليل نقل الكثير من مصطلحاتها بأسمائها العربية، إلى الأوروبية.

ولقد توصل المسلمون إلى كثير من الصناعات بواسطة المواد الكيميائية: في الصبغ والدبغ وصناعة المعادن وتركيب العطور. كما أن المسلمين وحدهم هم الذين اخترعوا ملح البارود كمادة متفجرة قابلة لإطلاق القذائف، وعنهم أخذت انجلترا ثم بقية الدول الأوروبية.

وكان الرازي وابن جابر، أول من وضعا أساس الكيمياء الحديثة، وحاولا كشف "الإكسير" الذي يجدد الحياة كما كانوا يظنون. كما عرفوا التقطير والتصعيد والتجميد والتحليل.

٩- في الصناعة: أبدع علماء الإسلام في مجال الصناعة، وأفادت منهم أوروبا أيما إفادة، مما أعانهم على النهضة الصناعية الحديثة.

ويعتبر "الورق" من الخدمات الكبيرة التي أسداها علماء الإسلام إلى أوروبا وإلى العالم. كما ازدهرت في الأندلس "صناعة الفخار" والفسيفساء الملونة والمنسوجات والمعادن والجلود والكِتاب.

ولما بعث هارون الرشيد، الساعة الدقاقة الكبيرة إلى شارلمان، تعجب منها أهل ديوانه، ولم يعرفوا كيفية تركيب الآتها، مما يدل على أن العرب قد قطعوا شوطا في الميكانيكا.

وسبق العرب أوروبا إلى الطيران، وقد حاول "عباس بن فرناس" حكيم الأندلس، وهو أول من استنبط صناعة الزجاج من الحجارة، وأول من مثل في بيته السماء بنجومها وغيومها وبروقها ورعودها تمثيلا يخيل للناظر أنه حقيقة.

١٠- في الزراعة: لقد تقدم العرب والمسلمون في مضمار الزراعة تقدما ملحوظا، وكان لهم الأثر الأكبر في هذا المجال. وتعتبر رسالة "كتاب الفلاحة" لابن العوّام من أهم المؤلفات في هذا الموضوع في العصور الوسطى، شرح فيها مئات الأنواع من النباتات، وطرق زراعتها، والتطعيم، وخصال التربة، والسماد، ووصف أمراض النبات.

وقد حمل المسلمون معهم إلى "أسبانيا" زراعة الزيتون والبرتقال والكروم والأرز وقصب السكر والقطن، والتي لا تزال أسبانيا حتى الآن تشتهر بهذه المزروعات، وتنتج أجودها، يضاف إلى هذا زراعة الحدائق التي لا تزال أسبانيا مشهورة بها حاليا. وقد ترجمت كل المؤلفات الزراعية للمسلمين إلى اللاتينية.

١١- في الطب: أبدع المسلمون في ميدان الطب وأضافوا إلى تراث اليونان وغيرهم. وقد قام الزهراوي (ت٤٠٤هـ) بتأليف موسوعته الطبية" "التصريف لمن عجز عنه التأليف" الذي ترجم بعضه إلى اللاتينية في القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي. وهو كتاب في الجراحة، أثبت المؤلف أنه تمكن من سحق الحصاة في المثانة، والتشريح، ومن إجراء عمليات في العيون والأسنان والولادة، واتخاذ الخيوط من أمعاء بعض الحيوانات.

ووضع الطبيب الغرناطي المسلم "ابن الخطيب" كتابه: "حقيقة السائل عن المرض الهائل" ليرشد أهل أوروبا إلى علاج مرض الطاعون الذي انتشر في أوروبا في منتصف القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) ولم يستطيعوا أن يفعلوا أي شئ لتلافي هذا الوباء.

وكان أبو بكر الرازي (٨٥٠-٩٣٢م)، أول من دوّن من العرب ملاحظاته على مرضاه، وراقب تطوّر المرض وظواهره، وأثر العلاج فيه. وكان كثير الملاحظة، عظيم الإنتاج. وهو أيضا أول من وصف مرض الجدري والحصبة في رسالته المشهورة، وهو كذلك أول من قال بالعدوى الوراثية، وأول من استخدم الماء البارد في أمراض الحميات المستمرة، مما أقرّه الطب الحديث.

وأشهر كتب أبو بكر الرازي: الحاوي، ورسالة في الجدري والحصبة، والكتاب المنصوري، والأسرار، والجامع، وطب الفقراء، وقد ترجمت معظم تلك الكتب إلى اللغات الأوروبية، وكان بعضها يدرّس في جامعات أوروبا.

{راجع لنا: أصول الفكر الفلسفي عند أبو بكر الرازي (في مواضع متفرقة) نشر مكتبة الأنجلو المصرية عام ١٩٧٦م}

وقد أنشأ المسلمون المستشفيات، وكانوا يسمونها "بيمارستانات" وكان بعضها لعلاج الجذام، والأمراض العقلية والنفسية، وكذلك خصصوا مستشفيات عسكرية لعلاج جرحى الحرب، وكان بعض هذه المستشفيات العسكرية ينقل على أربعين جملا، وغير ذلك.

وعن طريق الأندلس انتقل علم الطب إلى أوروبا، حيث ترجمت هذه الكتب إلى اللاتينية. وتدل كثرة المصطلحات الطبية في اللغات الأوروبية ذات الأصل العربي على هذا الأثر.

١٢- في الصيدلة: كان للمسلمين الباع الأعظم في ميدان الصيدلة وتركيب الأدوية. وأوجد العرب طرق التقطير والتكليس والتحويل والتبخير والتبلور. وهم الذين اكتشفوا الكحول والقلويات والنشادر ونترات الفضة، والراسب الأحمر، وملح البارود، والزرنيخ، والبوتاس، وروح النشادر.

يضاف إلى هذا أن العرب هم أول من ألف "الأقرباذين" أي: علم تركيب الأدوية، واستفادوا منه في عمل "الترياق" المؤلف من عشرات الأدوية.

ومن كبار العلماء المسلمين الذين لهم شهرة ذائعة في علم النبات وتركيب الأدوية: العلامة "ابن البيطار" المتوفى عام ٦٤٦هـ. ومن أشهر كتبه "المغني في الأدوية المفردة"، و"الجامع لمفردات الأدوية والأغذية". ولايزال ابن البيطار يعرف في أوروبا بلقب "أبو علم النبات".

وكل هذا يدل على أن القرآن الكريم هو مشعل العلم، وأن الإسلام هو دين الحضارة.

{د.عبد الله علوان: معالم الحضارة في الإسلام ص ٤٣-٨٦}

ثالثا: ميدان اللغة والأدب:

إن الإسلام دين العقل والنقل والأدب والعلم ومكارم الأخلاق، وهو صاحب الفضل على العرب وعلى المسلمين في كل مكان، حين أطلق مواهبهم وطاقاتهم في العلوم والمعارف، التي لم يكن لهم سبيل إليها، لولا فضل ورحمته ونعمة الإسلام بكتابه وسنته ونبيه ﷺ، فلله الحمد ولله الشكر.

وحين شاء الله ﷻ، أن ينطلق العرب المسلمون من شبه جزيرتهم، ونزلوا الشام والعراق وفارس والأندلس، كان للبيئة الجميلة التي انطلقوا إليها، فعلها الكبير في عقولهم وبلاغتهم، وأدبهم الذي جاء ممزوجا بالخيال الواسع، ومعبرا عن واقع الحياة. فضلا عما اكتسبوه من بلاغة القرآن الكريم، وفصاحة الأحاديث النبوية.

لقد كان للغة العربية تأثير في لغات الأوربيين، فوجدت آلاف من الكلمات العربية الأصيلة في لغات العرب، حينما أقبل هؤلاء على حضارة الإسلام في القرون الوسطى، يرتشفون الكثير من علوم المسلمين ومعارفهم؛ فجاءت اللغة العربية نتيجة هذا الارتشاف مطعّمة بكلمات عربية أصيلة في التخاطب وفي مصطلحات العلم. ومن أمثلة تلك الألفاظ ما يلي: القرنية، الشبكية، سكر، جمل، قطن، جبر، كيمياء، صفر.

أما تأثير الأدب العربي على أدب الأوربيين، فهو أمر مسلم به؛ فقد حمل العرب إلى الغرب في جملة ما حملوا روحهم الشعرية، وكان الشعر عندهم لا يعدو أن يكون بعض أغانٍ هي أشبه بشعر العامة منه بشعر الخاصة.

• فكان من اختلاط العرب بالفرنج في الأندلس وصقلية وغيرهما، ما لقن تلك الأمم اللاتينية معنى الشعر والأدب، فأخذوا عن العرب ما أولعت به نفوسهم، وما لاءم طباعهم كالفروسية والملاحم.

لقد استفاد أدباء الغرب من الأدب العربي أهم عناصر الأدب، من الصور والأخيلة وعلم البيان والمعاني، وكل ما له صلة بفن البلاغة وبحوثها.

وقد بلغت الأندلس في عهد الحكم الإسلامي، الذروة في الإبداع الشعري، والنبوغ الأدبي. وقد انتقل كل هذا من الأندلس إلى أوروبا، وبدت واضحة في آدابهم.

❁❁❁

هكذا رأينا أن الإنسانية كلها، وأوروبا بصفة خاصة، قد اقتبست من حضارة المسلمين وعلومهم ومعارفهم، على مرّ القرون، الكثير والكثير.

ولم يكن للحضارة المادية الحديثة أن تتألق شرقا وغربا، إلا بفضل ما أخذوه عن علماء الإسلام وأدبائهم، سواء كان عن طريق صقلية، أم الأندلس، أم الحروب الصليبية. فكانت الدولة الإسلامية في العصور الذهبية الأولى أستاذا وإماما للإنسانية بأجمعها.

ولو لم يظهر العرب والمسلمون على مسرح التاريخ، لتأخرت نهضة أوروبا الحديثة عدّة قرون. وما ذلك إلا برهان ساطع على أن الإسلام دين العلم والحضارة، وشريعة النهوض والتقدم والرقي، كما شهدت بذلك الدكتورة "سيجريد هونكة" في كتابها الهام: "شمس العرب تسطع على الغرب".

{د.علوان: معالم الحضارة ص٨٧-٩٢}

❁❁❁

ويتبين مما سبق أن الإسلام قادر على بناء الحضارة؛ لأنه يملك خاصية التفاعل مع الحضارات الأخرى، وفق ضوابط ومقاييس دقيقة، بحيث أخذ منها ما أخذ، ورفض ما رفض، تبعا للمصلحة العامة التي تعود على الأمة الإسلامية ومازال الإسلام له القدرة على التفاعل مع الحضارات الحالية يأخذ ويعطي، في إطار موازين حكمته؛ فلا يتصور أن ينعزل أبدا عن أي حضارة؛ بشرط أن ينطبق عليها المقومات المادية والروحية التي يرتضيها الإسلام. وهو أيضا صالح للتأثير في أي حضارة أو نهضة من أجل إصلاحها، وما أحوج البشرية اليوم إلى حضارة عادلة سامية!.

- {د. محمد عبد القادر هنادي: قلاع المسلمين مهددة من داخلها وخارجها ص٣٧١-٣٧٣. ط١، ١٤٠٨هـ-١٩٧٨م مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة}

النزعة الإنسانية في الحضارة الإسلامية:

إن الحضارة لا تكون ذات طابع إنساني، حتى تتصف بالرقيّ المادي والرقي المعنوي على حد سواء. والمراد بالرقي المادي للحضارة: مظهرها المتمثل في الصناعة والزراعة والتجارة، وأصناف الفنون، وأنواع العلوم.

أما الرقي المعنوي فهو المبادئ الروحية، والقيم الخلقية، والمفاهيم الفكرية، التي تعبّر عن معتقدات الأمة وسلوكها وفلسفتها في الحياة. ولابد أن يكون هذا وذاك تعبيرا عن مقاصد إنسانية سامية، وتجسيدا لأهداف خلقية نبيلة.

وفيما يتصل بالحضارة الإسلامية: فإنها قد بلغت الذروة العليا في القرون الوسطى، وصارت رائد الحضارات للعالم كله، بل كان الجميع يرتشف من معينها الصافي؛ نظرا لما فيها من نزعة إنسانية تقوم على منهج للتربية القومية لكل فرد مسلم. وهذا المنهج في إصلاح الفرد واستقامته يقوم على ركنين أساسيين:

الأول: تربية الضمير داخل النفس.

والآخر: الاستقامة على شريعة الله ﷻ، وتوضيح ذلك كما يلي:

الأول: ما الذي يربي الضمير في داخل الإنسان؟

الجواب: أن العقيدة الربانية المستشعرة عظمة الله وخشيته في السر والعلن، إذا ترسّخت في النفس البشرية، ولدت الشعور بالمراقبة لله تعالى، وولّدت الشعور بالمسؤولية؛ وكل ذلك يدفع بالنفس الإنسانية، أن تحاسب نفسها قبل أن يحاسبها غيرها، وهذا من شأنه أن يقوّي الإدارة الذاتية لدى المؤمن، فلا يكون أسيراً لشهواته، ولا عبدا لأطماعه وأهوائه، بل ينضبط بحساسية التقوى ووازع الإيمان، ويتجه نحو إتقان العمل محتسبا أجره عند الله تعالى.

ولا ريب أن المواظبة على العبادة، وأداءها في أوقاتها، مع التزام النوافل، وتذكّر الموت والبلى، واستشعار اليوم الآخر بأحواله وأهواله- كل ذلك مما يقوّي في النفس الإنسانية جانب العقيدة الربانية، ويجعلها تتحرر من الخوف

والجبن، وتقف أمام كل قوى الأرض، دون رهبة من سلطان، أو إغراء بالمال، أو بأي لون من مفاتن الأرض ومغريات الحياة.

• وهنا يقف المسلم في مكان عَلِيّ، مع تواضع وخفض جناح للمؤمنين، لكنه يودّ أن يرتقوا مثله، ولو شاء أن يساعدهم على السمو لفعل؛ لأن النفس الخيّرة تحبّ الخير لغيرها كما تحبه لذاتها.

الثاني: الاستقامة على شريعة الله:

وتلك أقصى ما يتمناه المؤمن؛ إذ لا صلاح إلا في الأخذ بالشريعة التي أنعم الله بها عليه.

• ومعنى الاستقامة هنا: أن يلتزم المؤمن بمنهج الإسلام في: العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات.

ولا يجوز الاقتصار على العقيدة بمفردها، ثم يحيد عن أنظمة التشريع اتكالا على العقيدة وحدها، فهذا غير صحيح ولا مقبول؛ لأنه يكون مثل من يؤمن ببعض الكتاب، ويكفر بالبعض الآخر، ومن يفعل ذلك فمصيره الخزي في الدنيا، وأشد العذاب في الآخرة، قال تعالى:

﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يُرَدّون إلى أشد العذاب﴾. {البقرة ٨٥}

• وسئل الفضيل بن عياض: عن أحسن العمل في قوله تعالى:

﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملا﴾. {هود ٧}

فقال: أحسن العمل أخلصُه وأصوبه. قالوا: يا أبا عليّ ما أخلصُه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يُقبَل، وإذا كان صوابا، ولم يكن خالصا لم يُقبَل؛ فالعمل لا يقبل حتى يكون خالصا صوابا. ثم قال: والخالص ما كان لله، والصواب ما كان على الشريعة.

ثم قرأ قول الله تعالى:

﴿فمن كان يرجو لقاء ربّه فليعمل عملا صالحا ولا يشركْ بعبادة ربه أحدا﴾. {سورة الكهف ١١٠}

• ويبلغ المسلم درجة التوازن، عندما يطمئن إلى تربية ضميره، واستقامته على شريعة الله، وقد سأل رجلٌ رسولَ الله ﷺ وقال: قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك؟ فأجاب النبي ﷺ : **"قل آمنت بالله ثم استقم".**

• إن حُسْن الخاتمة هي جزاء الاستقامة؛ حيث يُثبِّت الله تعالى، المؤمن المستقيم بالملائكة في الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد:

﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون. نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدّعون﴾. {سورة فصلت ٣٠-٣١}

أهم المبادئ التي تقوم عليها النزعة الإنسانية في الحضارة الإسلامية:

١) مبدأ لا إكراه في الدين:

إن الإكراه يقهر النفس الإنسانية ويذلها، ويحطم الشخصية، ويزرع الأحقاد والضغائن في القلوب، وينزع إلى النفور وردود الأفعال حين تسنح الظروف، ويسئ إلى سمعة الدعوة الإسلامية في الداخل والخارج، ويجعل إيمان المكره غير مقبول عند الله سبحانه وتعالى. من أجل ذلك كانت الحكمة الإلهية بعدم الإكراه:

﴿لا إكراه في الدين قد تبيّن الرشد من الغيّ﴾. {سورة البقرة ٢٥٦}

و: **﴿ أفأنت تُكْره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾.** {يونس ٩٩}

٢) <u>مبدأ التعارف بين الشعوب:</u>

إن في التعارف إعطاء القدوة عن الإسلام في شخصية المسلم، والتعرف على حضارات الأمم والشعوب والانفتاح عليها، ودعوة الناس بالحجة والإقناع إلى الإسلام الحق، وإظهار التسامح الإسلامي في التعامل مع غير المسلمين. وكل هذا يوضح حكمة التوجيه الإلهي، حين يقول:

﴿يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمك عند الله أتقاكم﴾. {الحجرات ٤٩}

٣) <u>مبدأ العلاقات بين الدول:</u>

من التحضر أن يكون هناك علاقات بين دول المسلمين والدول الأخرى، فالدولة مثل الفرد، لا يمكن لكليهما أن يعيش بدون صداقة أو حسن جوار. لكن بشرط ألا تكون الدول الأخرى تقاتل المسلمين في الدين، أو تخرجهم من ديارهم، أو تتعاون مع المعتدين على ذلك. يقول الله ﷻ في تقرير هذا المبدأ:

﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ۞ إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولّوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾. {الممتحنة ٩،٨}

٤) <u>مبدأ تحقيق العدالة للجميع:</u>

لقد رفع الإسلام راية العدل في كل مكان، مع الصديق والعدّو، قال تعالى:

﴿ولا يجرمنّكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾. {المائدة ٨}

وتقرر الآية الكريمة أن العدل واجب على المسلمين، فيما بينهم، وفيما بينهم وبين الأعداء. ولا يجوز أن تكون العداوة والكراهية سببا لوقوع المسلمين في الظلم مع غير المسلمين، فهذا العدل هو أقرب إلى التقوى.

٥) مبدأ الجنوح للسلم:
وهذا أصل مقرر في قوله تعالى:

﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم﴾. {الأنفال ٦١}

فإذا مال العدوّ أثناء القتال إلى المسالمة والمصالحة، فعلى المسلمين أن يكفّوا عن قتالهم، ويرفعوا أمام العدو راية السلام، دون مراوغة أو مخادعة.

٦) مبدأ الإحسان إلى الأسرى:
والإحسان إلى الأسرى يكون بالمنّ أو الفداء بالمال، لقوله تعالى:

﴿حتى إذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاق فإمّا منّاً بعد وإمّا فداءً حتى تضع الحرب أوزارها﴾. {سورة محمد ٤}

٧) مبدأ المعاملة الرحيمة في الحرب:
وهذا المبدأ يقرره قول الله تعالى:

﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾. {سورة البقرة ١٩٠}

• فلا يجوز للمسلمين أن يقاتلوا إلا من قاتلهم من الرجال، أمّا الذين لا يقاتلون المسلمين من النساء والأطفال والشيوخ والعاجزين، فلا يحلّ للمسلمين أن يقاتلوهم أو يقتلوهم، إلا إذا ظهر جهد ومشاركة في الحرب ضد المسلمين.

• وكان النبي ﷺ إذا أمّر أميراً على جيش أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيرا، ثم يقول:"اغزوا باسم الله،

وفي سبيل الله، اغزوا ولا تغلّوا(لا تخونوا في الغنيمة)، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدا ولا امرأة ولا مُدْبِرا...".

وقد أوصى أبو بكر الصديق ﷺ بمثل هذه الوصية، أسامة بن زيد حين وجهه إلى قتال الروم. وكل هذا يدل على أن هذه الوصايا من أعظم المظاهر الحضارية التي لا تدانيها قوانين الدول في العصر الحديث.

٨) <u>مبدأ المحافظة على العهود والمواثيق:</u>

إذا كان بين المسلمين وبين غيرهم معاهدة فعلى المسلمين أن يفوا بذلك حتى نهاية المدة المتفق عليها. فإذا بدا من هؤلاء المعاهدين ما يشير إلى الخيانة والاحتيال على نقض المعاهدة، فلا تحل محاربتهم إلا بعد نبذ عهدهم إليهم، وإعلان هذا النبذ، بحيث يكون معلوما لدى الطرفين، قال تعالى:

﴿إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدّتهم﴾.

{التوبة ٤}

وقوله تعالى:

﴿وإما تخافنّ من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء﴾.

{الأنفال ٥٨}

• إن الإسلام وهو يقرر شرعية المعاهدات والمواثيق، إنما يريد سلاما وأمانا واستقرارا، ليس للمسلمين وحدهم، ولكن لكل أجناس الأرض.

{د. عبد الحميد إبراهيم أبو سعدة: المعاهدات والمواثيق في الإسلام ضمن: صور حضارية من عطاء الإسلام ٢:٨٢ إعداد لجنة التعريف بالإسلام. العدد ٩٨، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة}

٩) **مبدأ محاسنة الذميين:**

المراد بالذميين: اليهود والنصارى الذين يعيشون في الدول الإسلامية، ويلحق بهم المجوس والصابئة. فهؤلاء إن رضوا أن يدخلوا في ذمة المسلمين وعهدهم، وأن يعيشوا في ديارهم، فعلى المسلمين أن يحاسنوهم، وأن يؤدوا لهم حقوقهم.

وأبرز تلك الحقوق ما يلي:

أ- المحافظة على أموالهم ودمائهم وأعراضهم، وعدم ظلمهم وانتقاصهم وتكليفهم فوق طاقاتهم؛ لقوله ﷺ:

"من ظلم معاهدا، أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ شيئا منه من غير طيب نفسه، فأنا حجيجه يوم القيامة". {رواه أبو داود}

ب- يجب أن يتركوا أحرارا في معابدهم وأحوالهم الشخصية، لقوله تعالى:

﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾.

وكتب أحد الرعية إلى عمر بن عبد العزيز يقول:

" ما بال الولاة يتركون أهل الذمة يشربون الخمر، ويأكلون الخنزير، ويتجرون بها؟"

فأجابه عمر: **"أمر رسولنا أن نتركهم وما يدينون، وإن أنت إلا متبع ولست بمبتدع".**

ج- يجب أن يراعى لهم حسن الجوار، وعدم الاعتداء، وحق ممارسة العبادة. ومما جاء في عهد النبي ﷺ لنصارى نجران:

"أمانا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصليبهم وسقيمهم وبريئهم وسائر ملتهم. إنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضارّ أحد منهم، ولهم على ذمّة الله وذمة رسوله".

د- يجب حمايتهم من كل اعتداء، سواء أكان داخليا أم خارجيا، مقابل ما يدفعون من جزية.
- كذلك يجب إسقاط الجزية عن الأعمى والمريض المزمن والرجل العاجز والشيخ الكبير.
- ولا تُضرب الجزية على نساء أهل الكتاب، ولا على صبيانهم حتى يبلغوا، ولا على عبيدهم، ومجانينهم، وأصحاب الصوامع من الرهبان.

١٠) **مبدأ العفو عند المقدرة:**

لقوله تعالى:

﴿فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين﴾. {المائدة ١٣}

وقوله سبحانه وتعالى:

﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾. {الأعراف ١٩٩}

وقد عفا النبي ﷺ عن أهل مكة يوم الفتح، مع أنهم أسرفوا في إيذائه، وأخرجوه من بلده، وتآمروا على حياته.
{د.عبد الله علوان: معالم الحضارة. ص١١١-١٣٠}

❁❁❁

هذه هي أهم مظاهر النهضة ومبادئ الحضارة الإسلامية، التي نفاخر بها العالم كله الآن، ولاسيما الدول العظمى التي تدّعي النهضة والتحضر، وهي على استعداد لالتهام الدول الضعيفة وقتل أهلها، كما نشاهد الآن في فلسطين والعراق وأفغانستان.

وعلى المسلمين اليوم أن يعودوا إلى هذه المبادئ التي سنّها لهم ربهم ﷻ، حتى يكون لهم إسهامهم في الحضارة الحديثة، ولا يجوز لهم أن يقعدوا هكذا يستوردون من الغرب كل صغيرة وكبيرة، وقد منح الله تعالى أقطارهم خيرات وخامات لا حصر لها. وقد ثبت الآن أن الحرية لها علاقة وثيقة بالحضارة، فالتخلف الحضاري طريق العبودية والمهانة والإذلال.

وقد أشار الأستاذ الدكتور حامد طاهر، إلى فكرة هامة جدا في موضوع الحضارة، وهي "التعاون الجماعي" لا الجهد الفردي،ذلك: "أن التقدم الحضاري عبارة عن حركة جماعية للأمام، في مجال الوسائل المادية والقيم الروحية"، وان التخلف الحضاري عبارة عن: "حركة جماعية للخلف في مجال الوسائل والأهداف السابقة".

{د.حامد طاهر: الفلسفة الإسلامية في العصر الحديث. ص٢٠٤-٢٠٥، ط٢، ١٩٩٣ دار الثقافة العربية، بالقاهرة}



٦- قضية الأصولية

مفهوم الأصولية:

إن الأصولية: معناها العودة إلى الأصول. وهى ظاهرة عالمية بين مختلف أصحاب الديانات، حتى غير السماوية منها. وربما كان مرجع ذلك إلى فشل النظريات الوضعية من مادية وغيرها.

{انظر: الموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ٢: ٩٧٦ بإشراف د. مانع ابن حماد الجهنى ط٣، ١٤١٨هـ دار الندوة العالمية بالرياض}.

• والأصولية حركة فكرية بروتستانتية، ظهرت بالغرب، فى القرن التاسع عشر الميلادي، بعد مؤتمر نياجرا عام ١٨٩٥م؛ من أجل أن تُحْيي من جديد أفكارَ أصحاب عقيدة المجيء الثاني للمسيح عليه السلام، مجيئا حرفياً حقيقياً.

• وقد ظهرت لهم كتب صغيرة بعنوان "الأصوليات" دعوا فيها إلى:
التمسك بالتعاليم الدينية القديمة، والقول بألوهية المسيح، وعصمة الكتاب المقدس عن الخطأ ووجوب الأخذ به حرفياً، وولادة المسيح عليه السلام من مريم عليها السلام، والفصل بين الدين والدولة. هذا مع اعتقادهم بالنبوءات الإنجليزية، التي تقود حسب اعتقادهم إلى استيلاء اليهود على فلسطين والقدس، وأن ذلك شرط للعودة الثانية للمسيح.

• وللأصولية فى الغرب: تنظيمات ومؤسسات ووسائل إعلام قوية تدعو إلى مبادئها. ومن أشهر مؤتمراتها المؤتمر الذى عقد فى عام ١٩٨٥م فى مدينة بال بسويسرا.

• وتعتبر الولايات المتحدة الأمريكية، المركز الرئيسي للاتجاهات الأصولية الإنجيلية التى ينتمى إليها معظم رؤسائها.

• وعبر وسائل الإعلام الغربية أسقط مصطلح الأصولية، على التيار الإسلامى فى العصر الحديث، بقصد تشويهه، وللحّد من تدفق مسيرته، حيث يُذكَر فى معرض الذم، وأن أصحابه أصحاب " التطرف". هذا مع أن

هذه اللوازم للأصولية، تلزمها بمعناها عند الغرب، والتى لم تنشأ عندهم إلا تفسيراً لأخطاء فى تاريخ الكنيسة يعرفها المنصفون منهم ويقرّون بها.

•إن مصطلح "الأصولية الإسلامية" مصطلح أطلق فى الغرب، ومع هذا فإنه مصطلح محمود وغير مذموم، وهو يطلق على العالِم بأصول الدين، وعلى العالِم بأصول الفقه.

• وكان المصطلح السائد لدى المسلمين من قبل هو "السلفية"، وهى العودة إلى الأصول الإسلامية الصحيحة، والاجتماع عليها والعمل بها والدعوة إليها، على ما كان عليه سلف الأمة الصالح رضوان الله عليهم.

{الموسوعة الميسرة ٢: ٩٧٤ ـ ٩٧٥}.

• ولن نخوض فى الحديث عن الأصولية اليهودية أو الصهيونية، والأصولية المسيحية، فقد كتب عنهما العديد من المؤلفات، ويجمعهما هدف واحد هو تشويه الإسلام فى نفسه، أو عن طريق أنصاره ممن سموهم المتطرفين أو الأصوليين. لذا فإن دراستنا سوف تقتصر على الأصولية الإسلامية، مع تقسيمها أولاً: إلى أصولية قديمة، وهى السلفية، وإلى أصولية حديثة وهى التى أطلقها الغرب على التيارات الإسلامية فى العصر الحديث والمعاصر.

أولاً : السلفية الإسلامية:

السلفية لغة: من مادة "سلف" وهى تعنى المضيّ والانقضاء.
و"السّلف": كل من تقدمك من آبائك وذوى قرابتك فى السّن أو الفضل، وتجمع على "أسلاف".

{المعجم الوجيز لمجمع اللغة العربية}

والسلفية اصطلاحاً: هم المسلمون الأوائل من الصحابة والتابعين، ومن تبعهم من أصحاب القرون المفضّلة الثلاثة الأولى. وعكسهم "الخلف"، وهم المسلمون الذين جاءوا بعدهم. إذ يمكن تسمية الأصولية الحديثة بـ" الخلف" أيضاً.

والسلفي: هو من يرجع فى الأحكام الشرعية إلى الكتاب والسنة فى المقام الأول، فهو مرادف للأصولي.

وللسلفية أسماء منها: أهل السنة والجماعة، وأهل الحديث، وأهل الأثر، والطائفة المنصورة، والفرقة الناجية.

بداية ظهور مصطلح السلفية:

ظهر بعد ما رفع أصحاب المذاهب الكلامية مصطلح أهل السنة والجماعة، فى وجه المعتزلة، وادعى الجميع الانتساب إلى السلف الصالح:
فكان لابد من التمييز ووضع قواعد وأصول واضحة للسلفية؛ من أجل التمييز بينها وبين الأدعياء من أصحاب البدع؛ فمن غير المنطقي أن يعيش إنسان بين ظهرانى السلف بينما هو يخالف أصولهم ومنهجهم.

• وأصبحت السلفية من حيث المصطلح، علَماً على أصحاب منهج الاقتداء بالسلف الصالح من الصحابة والتابعين، وكل من تبعهم من الأئمة الأربعة، وكذلك سفيان الثوري وسفيان بن عُيَيْنة والليث بن سعد والأوزاعي وابن المبارك والبخاري ومسلم، وسائر أصحاب السنن. ويمكن أن نعتبر هؤلاء هم الجيل الأول للسلفية.

• أما الجيل الثاني: فهم كل من سار على طريقتهم فى التمسك بالكتاب والسنة، مع تباين العصور وتفجّر المشكلات والتحديات مثل: ابن تيمية وابن القيم، وهما من أبرز علماء السلف من الجيل الثاني. وإن أغلب الذين كتبوا عن السلفية حديثاً قد اعتمدوا على آراء هذين العَلَمين غالباً.

• ويمكن القول بوجود جيل ثالث للسلفية الآن، وهم أغلب الاتجاهات السلفية المعاصرة بالجزيرة العربية والهند وشمال أفريقيا والشام، ومن سوف يلحق بهم فى المستقبل.

بعض الأدلة على مشروعية السلفية:

• ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾. {التوبة ١٠٠}.

ومحل الشاهد هنا: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾ فهؤلاء المتبعون لهم شملهم الرضا الإلهي.

- ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ {لقمان ١٥}: وكل من الصحابة منيب إلى ربه تعالى؛ فيجب اتباع سبيله، وإن أقواله واعتقاداته من أكبر سبيله.

{ابن القيم: إعلام الموقعين ٤:١٦٨}

- وقال ابن مسعود ﷺ: " **اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كُفيتم**".
- وقال الإمام الأوزاعي (ت١٥٧هـ) رحمه الله تعالى:

"اصبر نفسك على السنّة، وقِف حيث وقف القوم، وقل بما قالوا، وكفّ عما كفّوا عنه، واسلك سبيل سلفك الصالح فإنه يسعك"

{اللالكائي: شرح أصول اعتقاد أهل السنة ١:١٥٤}

وهذا يدل على أن لفظ سلف بمعناه هذا، كان معروفاً في القرن الثاني الهجري.

- ويقول أبو حنيفة رحمه الله تعالى:

" عليك بالأثر وطريقة السلف، وإياك وكلَّ محدثة؛ فإنها بدعة".

❁❁❁

وعلى ذلك فإن السلفي: هو كل من سلك سبيل هؤلاء القوم السابقين، ونهج منهجهم في التلقي والاستدلال والاعتقاد والأحكام، وتابَع مسيرتهم في السلوك والسّير إلى الله تعالى، ويكون شعاره دائماً: "ما لم يكن يومئذ ديناً، فليس اليوم بدين".

وأهم مزايا السلفية ما يلي:

١. إن السلفية تمثل منهج الإسلام الصحيح، والمحافظ على مضمونه، في ذروته الشامخة وقمته الحضارية السابقة؛ ذلك الدين الذي حافظ على التوحيد في جوهره النقيّ؛ فمنع تردّي العقيدة الإسلامية في أوحال

الوثنية. بل إنه حارب النزعة الجبرية التي نتج عنها ركود الهمم وإضعاف الإرادة الإنسانية، محافظا على مصادره وعقيدته وعبادته ومعاملاته ونظمه.

٢. إن السلفية كانت ولا تزال تأخذ على عاتقها المحافظة على أصالة الأمة الإسلامية، في عقيدتها وشريعتها وأخلاقها ومناهجها، حتى لا تتميع ولا تهتز، وذلك بالالتزام بمناهج السلف الصالح في: التوحيد والتلقي والاتباع والاستدلال والتزكية.

٣. وكما تدعو السلفية إلى الأصالة؛ فإنها تحمل طابع المعاصرة والسعي الدائم نحو التقدم؛ وذلك بالحث على مواكبة النهضة العلمية بالنظر والتجربة، وغير ذلك.

٤. إن السلفية قد جدّدت الدعوة الإسلامية دائما، ووقفت سدّا منيعا في وجه الحركات الغربية التي تريد استعباد الشرق ماديا وروحيا. كما أكدت على أن الإسلام دين ودولة، ودنيا وآخرة، وحملت راية تحرير العقول من الوثنية والشرك والتقليد، ودعت إلى التمسك بمكارم الأخلاق.

٥. إن السلفية لا تكفر أحدا من أهل القبلة، لمجرد رأي ارتآه في مسألة تحتمل التأويل، مع اعتباره مخطئا لا غير. فمن حكم بالتكفير سريعا عند أول خلاف شكلي، فليس من السلفية، والسلفية براء منه.

تشويه السلفية:

أ. قديما:

بالرغم مما يتصف به أهل السلف من مكارم ومزايا، فقد أراد أهل الأهواء والبدع تشويههم والإزراء بهم عند السفهاء والجهال:

{أحمد بن حنبل: السنة ص٤٠}.

فقد لقبوهم بألقاب كان خصومهم هم الأولى بها، من أمثال:

١) المشبّهة: سمّاهم بها كل من: المعطلة والمؤولة من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة. ولا عيب فيهم سوى أنهم أثبتوا ما وصف الله تعالى به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ، من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل ولا تأويل. وهم أيضا أشد الناس تعظيما لله عز وجل ولصفاته سبحانه. يقول نعيم بن حمّاد، شيخ البخاري (ت٢٢٨هـ):
"من شبّه الله بشيء من خلقه فقد كفر، ومن أنكر ما وصف الله به نفسه فقد كفر، فليس فيما وصف الله به نفسه، ورسوله: تشبيه".

٢) المجبّرة: أطلقها عليهم المعتزلة والقدرية (نفاة القدر).

٣) الناصبة: أطلقها عليهم الرافضة (غلاة الشيعة) لتقديمهم أبا بكر وعمر وعثمان على "عليّ" في الخلافة.

٤) الحَشْويّة: أطلقها عليهم المعتزلة والخوارج (والحشو من الناس: الذي لا يُعتمد عليه. والحشّية من الناس: أراذلهم.

٥) الشُكّاك: أطلقها عليهم المرجئة؛ لاستثنائهم في الإيمان على غير معنى الشك؛ مخافة واحتياطا للعمل.

٦) العامة والجمهور: أطلقها عليهم الرافضة على أنهم هم الخاصة والمؤمنون.

ب. حديثا:

يرى بعض المفكرين المحدثين أن المعتزلة هم السلف؛ لأنهم روّاد عصر الإبداع، الذي تبلورت فيه حضارة الأمة العقلانية المستنيرة قبل عصر المماليك، وهم يدرجون جماعات التكفير ضمن السلفية. ومن أجل ذلك حاولوا اتباع منهج المستشرقين في تشويه صورة الإسلام، من خلال تشويه السلفية، حيث رصموهم بالرجعية والتشدد والنصوصية والأصولية.

• بل يرى بعض أذناب المستشرقين، أن السلفية الدينية، ليست إلا رجعيّة جسّدت مرحلة العقم الحضاري والتحوّل إلى علاقات بدائية، ثم الانكفاء إلى الأصول الدينية الأولى، في صيغتها النصية العقدية. وهذا الكلام الفاسد يهاجم الدين قبل أن يهاجم الجنود والأنصار.

• ونقول لهؤلاء الحاقدين: "موتوا بغيظكم"؛ فإن السلفية منهج شامل صالح لكل زمان ومكان، وهي ليست بمرحلة زمنية، أو طور تاريخي قد انتهى.

بل هي منهج يحمل في طياته الأصالة مع المعاصرة، لا الرجوع إلى الوراء. والسلفية بهذا هي المنهج الوحيد المؤهّل لعودة الإسلام إلى دنيا المسلمين، أو كما يقول الإمام مالك ﷺ: **"لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها"**.

السلفية فرقة ومذهب:

ليس صحيحا ما ذهب إليه بعض الباحثين، من أن السلف ليست فرقة أو مذهبا. ونحن نرى أنهم فرقة؛ لأن الحديث قد أشار إلى ذلك "**.....قال ما أنا عليه وأصحابي**"، فالحديث سماهم فرقة من ثلاث وسبعين فرقة للأمة الإسلامية.

وهل من المعقول أن يعيش تيار من عهد الخلافة الراشدة مثلا، وقد واصل أتباعه المنهج حتى الآن، ثم يقال إنهم لا يكوّنون فرقة ولا مذهبا، ولا هم أنصار للسلفية؟!

• إن مشكلة الأحزاب انتساب بعض الأدعياء لها، فيختلط الحق بالباطل؛ مما يوقع في التعصب والبغضاء والفرْقة.

• كذلك فإن الأحزاب دائما يكون لها تكتلات، ولا يؤثر فيها النقد، ولا يقضي عليها أي قرار سياسي بحلّها، فإن حدث فإنها تتوارى ظاهرا، لكنها تعمل تحت الأرض، وتسعى للسيطرة على أي شيء.

❁❁❁

ثانيا: الأصولية الإسلامية:

هي السلفية الحديثة، ولها في العصر الحديث تيارات متنوعة، قد تربو على خمسة وعشرين حزبا وتيارا واتجاها، وهي موجودة كلها على الساحة الإسلامية، وهي متداخلة لا يمكن الفصل بينها:

١) تيار تقليدي ينشغل بإصلاح العقيدة، ويتركز أساسا في المملكة العربية السعودية، وهو التيار الوهابي.

٢) تيار متشدد: سلفية مجاهدة، في شمال أفريقيا.

٣) اتجاه تجديدي شامل، يتمثل في مدرسة الأفغاني، ومن أنصاره: الأفغاني نفسه، ومحمد عبده، ومحمد رشيد رضا، ومحب الدين الخطيب، ومحمد عمارة، وطارق البشري.

٤) اتجاه جديد شمولي حركي، يتمثل في حزب الإخوان المسلمين، ومنهم: الشيخ حسن البنا، وسيد قطب، وعبد القادر عودة، ومحمد الغزالي، ومحمد قطب، وأنور الجندي، ويوسف القرضاوي. وقد تأثر هذا الاتجاه- أو الحزب- بالسلفية وبالصوفية معا.

٥) اتجاه رافض للحضارة الغربية.

٦) اتجاه تجديديّ تطوري، يؤمن بأن الفقه الإسلامي قابل للتطور، ويمثله: محمد إقبال، ومعه: المودودي، والندوي، ووحيد الدين خان.

٧) اتجاه تجديدي عقدي، في المغرب الإسلامي، منهم السنوسيّ الذي تأثر بابن عبد الوهاب.

٨) اتجاه علمي حديث، متأثر بمنهج محمد عبده، ورشيد رضا، منهم: الطاهر بن عاشور من تونس.

٩) اتجاه إصلاحي حضاري ثوري في الجزائر، منهم:عبد الحميد باديس، ومالك ابن نبي، وأبو شعيب الدكالي، ومحمد حسن الفاسيّ، وعلال الفاسيّ، والمختار السوسيّ.

وبالنظر إلى هذه التيارات والفرق والمذاهب، التي تجاوز ٢٥ خمسة وعشرين مذهبا، فإننا نستطيع أن نقرر أننا بإزاء تيارات قد تباينت في مناهجها وأساليبها، وهي بالطبع لابدّ أن تحدث شروخا في الأمة الإسلامية، مثلما حدث مع الفرق الإسلامية كالخوارج والمعتزلة

والأشاعرة والماتريدية والمرجئة والجبرية، لكن فرق السلفية مع تعددها لم يحدث منها غلو في جانب العقيدة مثل بعض الفرق السابقة، لكن نرى أن غلوا قد حدث من بعض الفرق الأصولية المعاصرة.
{د.محمد سيد أحمد المسيّر: الحوار بين الجماعات الإسلامية ص١٥٤ ط١، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م دار الطباعة المحمدية بالقاهرية}.

• ولأن بعض تلك التيارات السلفية الحديثة يتطلع إلى الحكم بأي ثمن، فقد هلك الكثيرون منهم على يد السلطات الحاكمة، التي ترى لنفسها حق الولاء والطاعة من الجميع، تمكينا للأمن والاستقرار.

• وما قلناه هنا، لا ينطبق على المذاهب الفقهية والصوفية؛ فليس لهؤلاء حزبية سياسية تتطلع إلى السيطرة على الحكم، أو إحياء الخلافة كما تتمنى بعض الاتجاهات السلفية.

• ونعود للحديث عن السلفية الحديثة، أو الأصولية الإسلامية وربما أطلق عليها البعض "الصحوة الإسلامية". والأصولية عموماً هي مصدر صناعي منسوب إلى "الأصول".

ولا مانع لدى أصحاب الأصولية الحديثة أن يلقبوا بهذا اللقب، الذي جاء من الغرب؛ لأنه أولاً وأخيراً يدل على "ظاهرة الإحياء الإسلامي المعاصرة".

• ويرى الأصوليون المحدثون أن قبولهم لهذا الوصف ليس عيباً، لأن هذه طريقة في الجدل مع الخصوم، استخدمها المسلون سابقاً، كقول من قال:

إن كان رفضاً حبُّ آل محمد ** فليشهد الثقلان أني رافضي!

• ثم إن كلمة الأصول محببة في تراثنا؛ نظرا لما تدل عليه من "العودة إلى الأصول"، فلا مشاحة في الاصطلاح، ولاسيما أن الأصولية تشير أيضا إلى : "الوسطية الإسلامية" التي هي روح الإسلام، وهناك مقولة عند علماء الإسلام وهي: "من أضاع الأصول، حرم الوصول".

{د.يوسف القرضاوي: مستقبل الأصولية الإسلامية ص٩ وأماكن أخرى. ط١٤١٧،٦هـ-١٩٩٧م مكتبة وهبة بالقاهرة}.

الأصول الثلاثة للإسلام:

وهذه الأصول بمعنى المصادر وهي:

الأول: القرآن الكريم: وهو أصل الأصول. وهو وحي منزل من الله تعالى على رسوله محمد ﷺ، وهو الآية العقلية الكبرى التي أيد الله تعالى بها نبوّة محمد ﷺ. وقد وعد الله ﷻ بحفظه إلى يوم الساعة فقال:

﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾.

الثاني: السنّة النبوية: وهي ما ورد عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير، وهي أيضا الشرح التفصيلي، والتطبيق العملي للقرآن الكريم، قال تعالى:

﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزِّلَ إليهم﴾. {النحل ٤٤}

الثالث: الإجماع: وهو ما أجمعت عليه الأمة الإسلامية إجماعا يقينيا من أمور الدين؛ لأن هذه الأمة لا تجتمع على الضلالة، من أيام الصحابة، ثم التابعين ومن جاء بعدهم. وقد تظهر قيمة الإجماع فيما بني على مصلحة زمنية تغيّرت، أو عُرْف دعت الحاجة إلى تعديله.

الأصول الأربعة الدعائم:

١. أركان الإيمان الستة:

﴿ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا﴾. {النساء ١٣٦}

يضاف إلى ذلك الإيمان بالقضاء والقدر.

٢. العبادات الأساسية: وهي التي بني عليها الإسلام: الصلاة والزكاة والصيام والحج.

٣. الأحكام الفقهية: وهي جاء بها الإسلام في تحديد الحلال والحرام، والعلاقات بين الأفراد وبين الدول، والحدود التي سنها من أجل حماية الدين والنفس والعرض والمال والعقل.

٤. مكارم الأخلاق: وهي التي ترسّخ الحق والخير والجمال، وتحفظ على الإنسان آدميته وكرامته.
فالأصولي الحق هو من يتمسك ويلتزم بكل هذه الأصول السبعة: اعتقادا وعملا وفقها ودعوة.

أبرز فرق الأصولية المعاصرة:

١. **فرقة التكفير:**
ظهرت بمصر، وتبنت فكرة "تكفير المجتمع" أي جماهير الناس بالجملة، إلا من انضم إلى فرقتهم التي سمّوها "جماعة المسلمين"، ويرون أن جميع الناس غيرهم كفار مرتدون، وإن قالوا: لا إله إلا الله. ويترتب على ذلك استحلال دماء الآخرين وأموالهم وكرامتهم.

وكانت بداية هذه الجماعة في "السجن الحربي"، حيث عُذبوا وأهينوا كما يدّعون، ورأوا أن الذين عذبوهم وساعدوا على تعذيبهم إنما هم كفار. وقد قيل: ازرع استبدادا تحصد أصوليات.

{د.هيثم مناع: الأصوليات الإسلامية وحقوق الإنسان. ص٥،طبع١٩٩٩م مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان}

وهؤلاء امتداد لجماعة "الخوارج" الذين ظهروا أيام الإمام علي كرم الله وجهه، وقد وصفهم الحديث الشريف فقال:
"**يحقر أحدكم صلاته إلى صلاتهم، وقيامه إلى قيامهم، وقراءته إلى قراءتهم**" كما وصفهم بأنهم "**يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم**". أي تلاوة بلا تفقه، وأنهم أيضا: "يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميّة"، "يقتلون أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان".

وقد كفّر الخوارج الإمام عليا ﷺ، حين قبل التحكيم فيما بينه وبين معاوية، ثم دبّروا لاغتياله، فكان لهم ما أرادوا.

٢. **فرقة العنف:**
وهؤلاء يرون استخدام القوة والسلاح، في مقاومة ما يعتقد هو أنه باطل، وتغيير ما يراه من منكر. والأصل في العنف عند هؤلاء أنه

موجه إلى "الحكام" الذين لا يحكمون بما أنزل الله، والذين عطلوا أحكام الشريعة الإسلامية، وأحلوا محلها القوانين الوضعية؛ فقد صار ولاؤهم لأعداء الإسلام:

﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾.

وقد ترتب على تفرد هؤلاء بالرأي، أن ذهبوا إلى أن من امتنع عن أداء فريضة ظاهرة مثل الجهاد، فهو كافر، وكذلك من لم يغيّر المنكر بالقوة. هذا وإن التفقه في الدين يوجب ترك مثل تلك الأمور لولي الأمر الشرعي، حتى لا يرغم على دخول حرب ليست في طاقته ولا في طاقة دولته، وتلك هي التهلكة.

٣. **فرقة التشدد والجمود:**

وقد وُصِفَ أصحاب هذه الفرقة بالحرفية في الفقه، والتعسير في الفتوى، والتنفير في الدعوة، والخشونة في التعامل، وكل ذلك يجافي روح الإسلام.

وهم ينكرون التجديد في الخطاب الديني، والاجتهاد في الفقه، والتيسير في الفتوى، والتبشير في الدعوة، وتغيب عنهم المقاصد الكلية للشريعة، وإن أقرب كلمة عندهم "حرام" أو "بدعة"، ويظهر عنف هذا الفريق في لسانه لا في يده.

لقد يسر النبي ﷺ على أمته وشرع لها أمر التجديد فقال: "إن الله يبعث على رأسي كل مائة سنة لهذه الأمة من يجدد لها دينها" {رواه داود وغيره}.

كما شرع لنا الاجتهاد، فالمجتهد إن أصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر، بشرط أن يكون من أهل الاجتهاد.

• ولا مانع لدى هؤلاء أن يتركوا القضايا الهامة، ويدخلوا في معارك ساخنة؛ من أجل ترجيح النقاب على الحجاب، ومن أجل إعفاء اللحية تماما. ومن كتبهم: "توجيه الصحبة في النزول على الركبة" و" الواحة في جلسة الاستراحة"، أي الاستراحة بعد السجود.

• وهم يتبنون أشد الآراء تعسيرا على الأمة، ومنها تحريم الإقامة في بلاد الغرب، وأخذ الجنسية من البلاد الأجنبية؛ لأنها ولاء لهم:

﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾. {المائدة ٥١}

• ويحرمون على المرأة تولي الوظائف، أو الإدلاء بصوتها في الانتخابات، ناهيك عن ترشيح نفسها. ومنهم من حرّم هذا الترشيح على الرجل، وألف كتابا سماه: "القول السديد في أن دخول المجلس ينافي التوحيد" أي مجلس الشعب أو الشورى.

• هذا وإن عدم اعتدال هذا الفريق وغيره، جعل كثيرا من القوى المعادية تستهين بهم وبالإسلام معا؛ لأن الذين أطلقوا عليهم لقب الأصوليين، كانت غايتهم الكبرى سبّ الإسلام نفسه و الإساءة إليه.

{د. محمود النجيري: أكذوبة الأصولية الإسلامية. ص٦٨، ط ١٩٩٨م، دار البشير بالقاهرة}

٤. فرقة الوسطية:

وهذه تلتزم بمنهج يقوم على التيسير والتجديد، وتمثل الجمهور الأعظم ممن يمكن تسميتهم بـ"الأصوليين"، أو "الصحوة الإسلامية". **ويقوم منهج هذا الفريق على ثلاثة عناصر أساسية وهي:**

أ. منهج التيسير والتبشير:

وما يتبع هذا من التيسير في الفتوى، وهو في هذا يستلهم روح المنهج النبوي حيث قال ﷺ:

"يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا". {متفق عليه من حديث أنس}

وعندما بعث النبي ﷺ أبا موسى الأشعري، ومعاذ بن جبل إلى اليمن، قال لهما: **"يسّرا ولا تعسّرا، وبشرا ولا تنفرا"**. {متفق عليه}

• ويندرج تحت التيسير: عدم التضييق في الإيجاب والتحريم، والإفتاء بالرخص، ورعاية الضرورات والظروف الطارئة، واختيار الأيسر-لا الأحوط- لعموم الناس. يقول الإمام الثوري: "إنما الفقه الرخصة من ثقة، أما التشديد فيحسنه كل أحد".

• والوسطية تحتاج إلى: التحرر من العصبية المذهبية، والعمل بقاعدة تغيّر الفتوى بتغير الزمان والمكان والعرف والحال، فيجتهد علماء كل عصر لزمانهم وبيئتهم، كما فعل السابقون. وكان للإمام الشافعي مذهبان: قديم قبل أن يستقر في مصر، وجديد بعد أن استقر فيها. وربما نجد للإمام الواحد في المسالة الواحدة جملة روايات مختلفة، مثل الإمام أحمد، ويكون ذلك بسبب رعاية الظروف و الأحوال المتغيرّة.

• والتبشير في الدعوة يوجب: تحبيب الله إلى خلقه، أي قيادتهم إليه بزمام الحب، لا بسياط الخوف وحده، وزرع الأمل في قلوب الناس، وإشاعة الرجاء في إصلاح الحال لا المثبطات عن العمل.

ب. **التجديد والاجتهاد:**

إذا تجدد الدين، تجددت النفوس والعقول بالمعرفة، والقلوب بالإيمان، والحياة بالحركة والتقدم إلى الأمام.

ومن مظاهر التجديد في الدين: الاجتهاد فيه، وهو باب مفتوح إلى يوم القيامة. ومنه تجديد الخطاب الديني للداعية نفسه، لا في حقائق الدين.

وقد وجد التجديد حتى في عصور انحطاط الدولة الإسلامية: ففي القرن السابع الهجري: كان ابن دقيق العيد والعز بن عبد السلام. وفي الثامن: ابن تيمية ومدرسته، والشاطبي وابن خلدون. وفي التاسع: ابن الوزير اليمني وهكذا. فلا يجوز أن يخلو عصر من مجتهد، ولا تخلو الأرض من قائم لله بالحجة.

ج. **الوسطية المتوازنة:**

وينتج عن هذا فكر تتجلى فيه النظرة الوسطية المعتدلة المتكاملة للناس وللحياة، والتي تمثل المنهج الوسط للأمة الوسط، بعيدا عن الغلوّ و التقصير.

كذلك فإن هذا الموقف: وسط بين دعاة المذهبية الضيقة، ودعاة اللامذهبية المنفرطة.

- وسط بين أتباع التصوف وإن انحرف وابتدع، وأعداء التصوف وإن التزم واتبع.
- وسط بين المحكّمين للعقل وإن خالف النص القاطع، والمغيبين للعقل ولو في شيء قليل مثل فهم نص ما.
- وقل مثل ذلك في الذين ينكرون الإلهام مطلقا، والذين يبالغون في الاعتداد به، حتى جعلوه مصدراً للأحكام الشرعية.
- وكذلك في مجال: التراث، والفلسفة، والوسائل والغايات، والانفتاح والانغلاق، والاعتدال والانحلال، والإقليمية والعالمية، والتحليل والتحريم. وكل هذه القضايا تحتاج إلى اجتهاد حسب ظروف العصر والمكان.

❁❁❁

وأخيرا فإنه يجب على كل مسلم مهما ظن أنه مصلح، أن يجعل إصلاحه لوجه الله تعالى، من أجل مصلحة الأمة والوطن الذي تربى عليه، وأن يحذر من أن يكون الإصلاح سببا للإضرار بدينه ووطنه ونفسه. وهذا الإضرار لا يحدث إلا تحت عباءة الفِرق الخفية التي تعمل تحت الأرض، وكل ذلك مخالف لروح الإسلام.

٧- جمال الدين الأفغاني

نشأته:

وُلِدَ جمال الدين الأفغاني- رحمه الله تعالى- في عام ١٨٣٨م- أو- ١٨٣٩م بفارق سنة واحدة ميلادية، وربما كان ذلك بسبب الفرق بين الأعوام الميلادية والهجرية.

• أما مكان مولده ففيه خلاف أيضاً: فهناك من يرى أنه ولد في بلاد الأفغان، وهناك من يرى أنه ولد في إيران.

• وترتب على ذلك تحديد مذهبه: فمن نسبه إلى أفغانستان قال إن مذهبه سنيّ، ومن نسبه إلى إيران قال إنه شيعي. لكن جمال الدين نفسه صرح بأنه أفغاني حيث قال:
"نظرت إلى الشرق وأهله، فاستوقفني الأفغان، وهي أول أرض مسّ جسمي ترابها".

{د. محمد عمارة: جمال الدين الأفغاني، الأعمال الكاملة. ص ٢٩٦، طبعة ١٩٧٩م بيروت}

• وكان عندما يُسأل عن دينه يجيب بأنه مسلم، ولما سُئل عن مذهبه قال: "إني لا أعرف في أئمة المذاهب شخصاً أعظم مني، حتى أسلك طريقته". لكن الإمام محمد عبده أشار إلى أن جمال الدين الأفغاني حنفي المذهب، مع ميل إلى مذهب السادة الصوفية.

{الشيخ محمد عبده: الثائر الإسلامي جمال الدين الأفغاني. ص ٢٧، سلسلة كتاب الهلال، العدد ٢٧٤، ١٩٧٣م القاهرة}

• والراجح أنه أفغاني وسنيّ وحنفي، مع ملاحظة أن جمال الدين نفسه كان حريصاً على وصل نسبه بالحُسين بن عليّ رضي الله عنه؛ ولذا كان يضيف إلى نفسه لقب "الحُسيني".

• وربما كان سبب هذا الخلاف، هو محاولة الإيرانيين والأفغانيين، نيل شرف انتساب جمال الدين إلى كل منهما؛ نظراً لدوره العظيم في خدمة العالم الإسلامي.

• وقد تلقى جمال الدين منذ نشأته: العلم والثقافة وعلوم الدين، على يد والده، وتثقف صغيراً على علوم اللغة العربية والشريعة والتصوف والتاريخ. ولكنه لم يقنع بذلك فقط، فسافر إلى الهند، حيث برع الهنود في تلك الآونة في علوم الحساب والفلك والفلسفة والعلوم الأوروبية الحديثة، فمكث هناك عاماً كاملاً وعدة شهور، يدرس فيها هذا اللون من العلوم، ولم يكتف بمكان واحد، بل تنقل في أغلب بقاع الهند، واطلع على أحوال أهلها وعاداتهم وتقاليدهم، مما وسّع أفقه وزاد من معارفه الإسلامية والغربية.

{د. لويس عوض: الإيراني الغامض في مصر، مجلة التضامن- لندن ١٩٨٣/٤/٣٠م العدد الثالث ص٧٠}

• ويلاحظ أن ولع جمال الدين بالتنقل والسفر، قد ساهم في نضوجه قبل الأوان، ولعب دوراً كبيراً في اتساع أفقه وتسامحه الفكري.

• وفي تلك الرحلة تلقى علوماً جمّة برع فيها كلها، منها:
العلوم العربية من نحو وصرف ومعان وبيان وكتابة وتاريخ عام وخاص.
ومنها علوم الشريعة من تفسير وحديث وفقه وأصول فقه وكلام وتصوف.
ومنها علوم عقلية من منطق وحكمة عملية سياسية ومنزلية وتهذيبية، وحكمة نظرية طبيعية وإلهية. ومنها علوم رياضية من حساب وهندسة وجبر وهيئة أفلاك، ومنها نظريات الطب والتشريح.
{محمد عبده: الثائر الإسلامي ص ١٧}

• وبعد زيارته للهند وما حولها، اتجه جمال الدين إلى مكة لأداء فريضة الحج، بالإضافة إلى رغبته في الإطلاع على أحوال الشعوب التي تقطن الجزيرة العربية. وقد التقى بالمسلمين هناك؛ حيث كانت العادة في ذلك الوقت، أن يتدارس المسلمون في الحج مشاكل العالم الإسلامي، واستغرقت منه تلك الرحلة عاماً كاملاً تقريباً؛ مما شجعه على استكمال رحلاته؛ كي يقترب مباشرة من مشاكل العالم الإسلامي، ويزداد خبرة به.

• ولما عاد إلى بلاده، تقلد بعض المناصب الحكومية، ثم منصب الوزير الأول للأمير "محمد أعظم" ، وهو لم يتجاوز السابعة والعشرين. غير أن عدم الاستقرار والتدخلات الأجنبية أدى إلى تركه المنصب، إثر تغلب أحد

الأمراء على الحكم، وأجْبر الأميرُ الحاكمُ على الرحيل إلى إيران، فاضطر جمال الدين إلى الرحيل، دون أن يكون له غرض في مكان معين:

- فمر أولاً بالهند التي كانت تغلي بالثورة ضد الاستعمار الإنجليزي. لكنه لم يقم بها أكثر من شهرين؛ بسبب الحصار الذي ضُرِب عليه من الحكومة هناك، فاستبعد من الهند، وتوجه إلى مصر في بداية عام ١٨٧٠م، ولم يمكث بمصر سوى أربعين يوماً أمضاها في إلقاء الدروس على بعض الطلبة والجمهور ممن عرفوا فضله واجتهاده في العلم.
- ثم غادر إلى الأستانة، بدعوة من السلطان عبد العزيز، الذي رحب به في تركيا أيما ترحيب هو وأعيان دولته، ووصل الاحتفاء به أنْ عين عضواً في مجلس المعارف.

{د. مجدي عبد الحافظ: جمال الدين الأفغاني وإشكاليات العصر. ص٦١، وأماكن أخرى، ١٩٩٧م المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة}

• ويقول الإمام محمد عبده واصفاً هذا الاحتفاء:

"وبعد أيام من وصوله، أمكنه ملاقاة الصدر الأعظم عالي باشا ...، ونزل منه منزلة الكرامة ، وعرف له الصدر فضله، وأقبل عليه بما لم يسبق لمثله، وهو مع ذلك بزيه الأفغاني: قباء وكساء وعمامة عجراء. وحوّمت عليه لفضله قلوب الأمراء والوزراء، وعلا ذكره بينهم، وتناقلوا الثناء على علمه ودينه وأدبه، وهو غريب عن أزيائهم ولغتهم وعاداتهم".

{الثائر الإسلامي – ص ٥٧ وما بعدها}

• وبعد نهاية السنة الأولى ثارت مشكلة حادة بين الجماعات السلفية؛ مما أدى إلى إبعاد جمال الدين من تركيا؛ بناء على رغبة السلطان عبد العزيز نفسه.

• لهذا لجأ جمال الدين إلى مصر للمرة الثانية، لكن بعد أن ترك أثراً كبيراً فيمن التف حوله من شباب الأتراك، الذين تلقوا عنه الكثير من آرائه السياسية ومبادئه الحرّة.

• وفي مصر تلقاه رياض باشا بالترحاب، وكان قد التقى به من قبل بالآستانة، وقرر له راتباً شهرياً من الدولة دون مقابل من أي عمل. وذلك يتناسب مع ما كان سائراً في البلاد في محاولة نشر العلم ، ومحاولة القاهرة منافسة مكانة الآستانة في العالم الإسلامي، وكان ذلك برضى الخديو إسماعيل الذي كان حريصاً على مخالفة تركيا.

• لذلك أقام الأفغاني بمصر مدة ثماني سنوات معززاً مكرماً، حتى نفاه الخديوي توفيق من مصر عام ١٨٧٩م ، لكن بعد أن استطاع الأفغاني أن يترك أثراً قوياً في كثير من مثقفي مصر ؛ بل وساهم في النهضة التي حظيت بها مصر في الدين والآداب والسياسة. وربما كانت الثورة العُرابية احد ثمار تعاليم هذا الرجل ، الذي كان قائداً ومؤثراً.

• وقد سجل التاريخ أن أنشطته كانت متنوعة، فاشترك في الجمعية الماسونية، وعاون في تأليف الحزب الوطني، بخلاف خطبه ومقالاته السياسية التي تندد بالاستعمار والاستبداد.

وبعد خلع إسماعيل وتولية توفيق، أشار الإنجليز على الأخير بنفي جمال الدين، فنفاه إلى الهند التي وصلها للمرة الثالثة، لكن الإنجليز ضيّقوا الخناق على نشاطه؛ فاضطر للسفر إلى باريس ومكث بها ثلاث سنوات، أنشأ خلالها بمساعدة تلميذه الشيخ محمد عبده: "جريدة العروة الوثقى" في عام ١٨٨٤م، وكان لها أبعد الأثر في بث آراء لإثارة المسلمين ضد انجلترا، ودعوتهم للتمسك بعُرى الجامعة الإسلامية، لكن الجريدة توقفت أيضاً، نظراً للظروف غير المناسبة.

• وكان لهذا العلامة في باريس، مساجلات وآراء خاصة ، مثل التي حدثت بينه وبين المستشرق "رينان" رائد الحقد والتعصب ضد العرب والمسلمين. لكن رينان لم يستطع إخفاء تقديره لجمال حيث قال:

" خُيّل لي من حرية فكره، ونبالة شيمته وصراحته، وأنا أتحدث إليه، أني أرى أحد معارفي القدامى وجهاً لوجه، وأني أشهد ابن سينا ، أو ابن رشد، أو واحداً من أولئك المصلحين العظام ؛ الذين ظلوا خمسة قرون يعملون على تحرير الإنسانية من الإسار".

{د. مجدي عبد الحافظ: جمال الدين الأفغاني وإشكاليات العصر ص ٦٨}

• وبعد انتهاء مرحلة العروة الوثقى، تنقل جمال الدين بين إيران وروسيا وألمانيا وانجلترا. وفي عام ١٨٩٢م دعاه السلطان عبد الحميد لزيارة تركيا ثانياً؛ بهدف أن يستغل دعوة جمال الدين للجامعة الإسلامية، حتى تكون أداته في إخضاع العالم الإسلامي تحت التاج العثماني.

ومرّت حياة جمال الدين الأفغاني في الآستانة، هذه المرة ، بين تقريب وتكريم من جانب السلطان، وبين إبعاد وإهمال من جانبه أيضاً حين يسيء الظن به، إلى درجة أن عين جواسيس عليه ، وضيّق عليه ، ومنع زيارته إلا بإذن خاص.

• وفي السنة الخامسة من إقامته في الآستانة، تعرض الأفغاني لمرض السرطان في فمه، وأجريت له الجراحة اللازمة، ولكنه توفي في أعقابها، عام ١٨٩٧م، عن عمر يناهز ثمانية وخمسين عاما تقريبا.

الجهود الفكرية لجمال الدين الأفغاني:

ليس لجمال الدين مؤلفات وكتب كثيرة؛ لأن الوقت لم يسعفه. وكان يعتمد اعتماداً كبيراً على المباشرة والالتقاء مباشرة بسامعيه؛ فيأخذ بعقولهم، ويؤثر في نفوسهم، نظراً لما يتمتع به من أسلوب يعتمد على العاطفة الدينية، ويترك أثراً لا ينمحي بمستمعيه.

ولم يترك سوى مؤلفين متوسطين:

أ. رسالة الرد على الدهريين: ألفها بالفارسية، ثم ترجمها تلميذه الشيخ محمد عبده إلى العربية. وقد ألفها حين جاءه خطاب من أحد الهنود يطالبه فيها بالرد على ما انتشر ببلاد الهند في تلك الآونة وهو "النيتشرية".

ب. تتمّة البيان في تاريخ الأفغان: وهي مجموعة مقالات نشرت بجريدة مصر، يكشف فيها الدور الاستعماري للسياسة الإنجليزية في الأقطار الإسلامية، ثم جمعت في كتاب.

• لكن الأفغاني ترك أيضاً العديد من المقالات المتنوعة في الجرائد المصرية: كجريدة مصر، ومرآة الشرق، والعروة الوثقى التي صدرت بباريس.

• يضاف إلى هذا الكتاب الذي أخرجه "محمد المخزومي" ، وجمع فيه آراء وأفكار جمال الدين المتأخرة؛ حيث لازمه في أواخر أيامه، وجعل ذلك في كتاب بعنوان: "خاطرات جمال الدين الأفغاني الحسيني" ، بناء على رغبة الأفغاني نفسه.

• والسبب في عدم اهتمام الأفغاني بالتأليف، أنه كان رجل سياسة وحركة بين الجماهير ، أكثر منه رجل بحث وتأليف، مع التسليم بأنه كان ذا معارف واسعة اكتسبها منذ نشأته، ومن خلال تجواله في الهند وأوروبا وتركيا ومصر.

جمال الدين الأفغاني زعيم إسلامي من نوع فريد:

• إن جمال الدين هو أحد زعماء الحركات الإسلامية، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي. وله تفرده عن زعيمين آخرين سابقين عليه هما: محمد بن عبد الوهاب في القرن الثامن عشر، ومحمد بن على السنوسيّ الكبير في النصف الأول من القرن التاسع عشر.

• لقد عاش كل منهما في الصحراء، وربما يرتحل الواحد منهما إلى داخل الأقطار الإسلامية. وقد لاحظ كل منهما أن بعض تلك البلاد شبيه ببعض: في سيادة البدعة فيها، والانقسام إلى شيع وأحزاب، وضعف الأفراد، واستبداد الحكام والأمراء، والرضا من الحياة بـ"الوسيلة والشفاعة"، والتواكل في طلب الرزق وتنميته.

• وكل منهما لم ير إلا العيوب الداخلية في مجال نشاطه، فيحاول مكافحتها باسم الإسلام، الذى هو إسلام السلف الصالح.
لكن كلا منهما لم يعرف نظم الغرب بعد النهضة، ولم يعرف كل منهما معرفة مباشرة " حياة عملية أخري" مستقيمة نوعاً ما عن حياة المسلمين في ذلك العصر.

• وبالنسبة لجمال الدين الأفغاني، فبجانب وقوفه على عيوب الحياة الإسلامية حينذاك، رأى لوناً إيجابياً من الحياة، خالياً من كثير من هذه العيوب والنقائص.
فقد ارتحل الأفغاني أولاً إلى أقطار: الهند ومصر والحجاز وإيران والعراق واستانبول، من بلاد الشرق.
ثم ارتحل ثانياً إلى لندن وباريس وميونخ في ألمانيا وبطرسبرج في روسيا، من بلاد الغرب.

• وقد كشفت رحلات جمال الدين له عن ضعف في جانب، وعن قوة في جانب آخر، واستكانة هنا ونهضة هناك. كما كشفت له عن تغلب الجانب القوي على الجانب الضعيف.

• وقد تميز جمال الدين بمعرفته بالإسلام، وأضاف إلى ذلك معرفة بالمسيحية، وبالمقارنة بينهما تبين له أن الإسلام في نفسه أداة قوة ومنعة وعزة وسطوة، بينما تبيّن له أن المسيحية في الغرب وسيلة ضعف واستكانة، وزهد، وعدم منازعة الدنيا أهلها.

فهو يقول عن المسيحية:

" إن الديانة المسيحية بنيت على المسالمة والمياسرة في كل شيء، وجاءت برفع القصاص واطراح الملك والسلطة، ونبذ الدنيا وبهرجها، ووعظت بوجوب الخضوع لكل سلطان يحكم المتديّنين بها، وترك أموال السلاطين للسلاطين، والابتعاد عن المنازعات الشخصية والجنسية، بل والدينية. ومن وصايا الإنجيل: من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر. ومن أخباره: أن الملوك إنما ولايتهم على الأجساد وهى فانية، والولاية الباقية على الأرواح، وهي لله وحده".

أما الإسلام فهو دين للدنيا والآخرة، وللمادة والروح، أو كما يقول الأفغاني: "الديانة الإسلامية وضع أساسها على طلب الغلب والشوكة، والافتتاح والعزة، ورفض كل قانون يخالف شريعتها، ونبذ كل سلطة لا يكون القائم بها صاحب الولاية على تنفيذ أحكامها. فالناظر في أصول هذه الديانة ومن يقرأ سورة من كتابها المنزل يحكم حكماً لا ريب فيه: بأن المعتقدين بها لابدّ

أن يكونوا أول ملة حربية في العالم، وأن يسبقوا جميع الملل إلى اختراع الآلات القاتلة، وإتقان العلوم العسكرية، والتبحّر فيما يلزمها من الفنون: كالطبيعة والكيمياء وجرّ الأثقال والهندسة وغيرها. ومن تأمّل في آية: ﴿**وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة**﴾ : أيقن أن من صبغ بهذا الدين فقد صبغ بحب الغلبة، وطلب كل وسيلة إلى ما يسهل له سبيلها، والسعي إليها، بقدر الطاقة البشرية؛ فضلاً عن الاعتصام بالمنعة والامتناع من تغلب غيره عليه. ومن لاحظ أن الشرع الإسلامي حَرَّم المراهنة إلا في معرفة الفنون العسكرية والتمرن عليها".

{جمال الدين الأفغاني: مجموعة العروة الوثقى ٦٤-٦٦، باريس ١٨٨٤م}.

• إن فقه الأفغاني لتعليم الإسلام ومقاصده ومراميه، كانت دافعاً له نحو التعجيل بحياة إيجابية داخل البلاد الإسلامية، بحيث تكافح العيوب الداخلية في نفس الوقت، تلك العيوب التي نشأت عن إهمال الإسلام، بسبب ما تراكم عليه من غبار سوء الفهم، أو سوء القصد، منذ القرن الثالث الهجري.

• كان جمال الدين الأفغاني يضع أمام المسلمين مثالاً منظوراً من الغرب، ويريد منهم أن يرتقوا إليه، ولكن عن الطريق الذي شوّهته العقول المغرضة، وحرّفته الألسنة الملتوية.

• ولم يختلف جمال الدين عن سلفيه ابن عبد الوهاب والسنوسيّ، في موقفهما من تكتيل المسلمين ضد النفوذ الخارجي، عن طريق استعراض أوصاف الكفر والإيمان في ذهن المسلم، وما يجب على المسلم اتباعه في شأن الولاية العامة، قِبَلَ غير المسلم من الحكام والولاة، إذا قُيّض لهؤلاء أن يدبروا أمر المسلمين.

• لكن الأفغاني بالإضافة إلى هذا، قد تفرد بانتزاع الأمثلة مَن تاريخ الشعوب، ومن تاريخ الأمة الإسلامية ذاتها، هذا إلى جانب انتزاعه الشواهد المحسوسة التى تفزع المسلمين من السياسة الاستعمارية في البلاد الإسلامية، ولاسيما في مصر والهند.

• وهذه الأمثلة والشواهد، كان ينتزعها دائماً من شواهد الحياة الإسلامية ومظاهرها في وقته، مع بيان مدى ألاعيب السلطات الأجنبية ودسائسها،

وهدفها الذي نهايته بسط النفوذ الأوروبي لصالح الجماعة الأوروبية وحدها على رقعة العالم الإسلامي.

• وهذا الاحتكاك المباشر بالواقع، هو الذي أبرز حركة جمال الدين الأفغاني في صورة حركة سياسية، وفي تركيز جمال الدين نفسه على: "الحرية السياسية" في الشرق الإسلامي، للمسلمين والنصارى على السواء.

• وكان منهج جمال الدين في الإصلاح يقوم على الاهتمام بـ"الأمّة" أكثر من الفرد، وألا تكون العلاقة بين الحاكم والأمة علاقة سيد ومسود، بل يكون أساس هذه العلاقة هو الشورى. كذلك ركّز على مقاومة الاستعمار أكثر من الحديث عن مقاومة البدع، أو محاربة فرقة إسلامية معيّنة.

{د.محمد البهيّ: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي. ص ٥٩ وأماكن أخرى. ط٢، ١٩٦٠م القاهرة}.

• لقد تلون نشاط الأفغاني بهذا اللون السياسي العام، لكنه كان يرفع راية القرآن أساساً جوهرياً لذلك، فهو يقول:
"لا ألتمس بقولي هذا، في الدعوة إلى الوحدة، أن يكون مالك الأمر فى الجميع شخصاً واحداً؛ فإن هذا ربما كان عسيراً، ولكني أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن، ووجهة وحدتهم الدين، وكل ذي ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع؛ فإن حياته بحياته وبقاءه ببقائه".
{مجموعة العروة الوثقى ص ١٣٩}

• إن حركة هذا الزعيم، إنما هي امتداد للكفاح الإسلامي، في تاريخ الجماعة الإسلامية، وليست حركة انعزالية. وكان أساسها كأساس أية حركة كفاحية إسلامية ماضية، وغايتها هي نفس غاية تلك الحركات.

❁❁❁

رد جمال الدين الأفغاني على الدهريين:

• كان جمال الدين الأفغاني يرى أن أسلوب الاستعمار الغربي في البلاد الإسلامية، يتخذ صورا مختلفة للقضاء على الشخصية الإسلامية، التي مصدرها القرآن الكريم، والتي تجمع بين المسلمين في رباط واحد.
لكن أخطر صورة رآها جمال الدين، هي تلك الصورة التي تسعى لإفساد عقيدة المسلم: سواء بتشكيكه فيها، أو بمحاولة صرفه عنها.

• ومن هنا فقد عدّ المذهب الطبيعي، أو مذهب الدهريين، سلاحا خطيرا ضد العالم الإسلامي، موجها للإسلام نفسه، وأخطر من ذلك أن الذين يدعون إليه في الهند قد "لبسوا ثوب المسلم". غير أنه حين ردّ على هذا المذهب، لم يكن كل همّه الرد على الهنود وحدهم، وإنما كان قصده إحقاق الحق في ذاته فقط.

{جمال الدين الأفغاني: الرد على الدهريين. ص٣٧ ومواضع أخرى، دار الكرنك بالقاهرة "دون تاريخ"}

• وفي ردّه على الدهريين: يرى الأفغاني، أن العقيدة الدينية تكفل للمجتمع الإنساني ثلاثة عناصر أساسية هي: الحياء والأمانة والصدق. ورأى أن المذهب الطبيعي لا يجتمع معها؛ فضلا عن أن يكفلها.
ذلك أن وَهْم الدهري لا يجتمع مع فضيلة الأمانة والصدق وشرف المهمة وكمال الرجولة؛ لأن الإنسان له شهوات لا تحدّ، وأن الطبيعة لم تحدد طريقا معينا لتحصيل هذه الشهوات.

فطريقها إما أن يكون بالسير بالقوة، وهذا يفضي إلى سفك الدماء والتخريب، وإما بشرف النفس، وشرف النفس محدود بالعرف والعادة، وليس له معيار عام. وإما بالحكومة، وهي لا تعرف إلا بالاعتداءات الواضحة، أما المفاسد المموهة فلا تعرفها، على أن رجالها أيضا قد يكونون من المفسدين، وإما الاعتقاد بمدبر الكون، وبأنه سالك الجزاء في الحياة الأبدية، وذلك هو المتعيّن.

فلم تبق ريبة في أن الدين هو السبب الفرد لسعادة الإنسان، فلو قام الدين على قواعد الأمر الإلهي الحق، ولم تخالطه أباطيل من يزعمونه ولا يعرفونه؛ فلا ريب أن يكون سببا في السعادة التامة والنعيم الكامل.

• **أما أضرار المذهب الطبيعي أو الدهري:**

فقد برز هذا المذهب في حياة الأمم والشعوب في صور متعددة مثل:

١. مذهب أبيقور في الشعب الإغريقي.
٢. مذهب مزدك في الشعب الفارسي.
٣. مذهب الباطنية في شعب الجماعة الإسلامية.
٤. مذهب فولتير وروسو في الشعب الفرنسي.
٥. مذهب "العصر الجديد" في تركيا.
٦. مذاهب الاشتراكية، القومية، الاجتماعية، في أوروبا، ولاسيما في روسيا.
٧. مذهب "المورمان" في أمريكا.

• وقد فسدت حياة الشعوب التي سمحت بانتشار تلك المذاهب على أراضيها، ولاسيما المسلمين الذين فسدت حياتهم وضعفوا عندما ظهرت عندهم الباطنية منذ القرن الرابع الهجري.

• ولم تكن الحروب الصليبية هي بداية هذا الضعف أو أماراته، بل كانت إحدى نتائج هذا الضعف، وهذه العقيدة الباطنية إذن هي التي مهدت لهذه الحروب الصليبية، وكذلك لحرب التتار. وماذا يقال عن عقيدة تزعم أن الله تعالى: "لا موجود ولا معدوم"؛ لأنه لا يشبه واحداً منهما؟!

• وإن الأمة الفرنسية حتى القرن الثامن عشر، كانت لهم أخلاق فاضلة؛ قوامها الترابط والتعاون وعدم الانحلال، حتى ظهر فولتير وروسو، وسخرا من الدين، والإله، فبدأ التحلل على أشده. وقد تسببت مثل هذه الآراء في إضرام نار الثورة الفرنسية، وأشاعت الفساد في أخلاق الكثير من أبنائها، حتى دخل عليهم مذهب الاشتراكية.

• ولم يُجْدِ كثيرا ما صنعه نابليون في إعادة المسيحية، كما لم يجد انتصار صلاح الدين الأيوبي على الصليبيين في إعادة الإسلام إلى مجده الأول في الجماعة السلفية الأولى.

• ومن أمثلة الوهن بسبب الباطنية، أن الأمة العثمانية إنما رقت حالها أخيراً بما دبّ في نفوس بعض عظمائها وأمرائها، من وساوس الدهريين، حيث ساهموا في زحزحة الأتراك المسلمين عن شبه جزيرة البلقان لصالح روسيا.

• وما ظهر من مذاهب الاجتماعيين والعدميين والاشتراكيين، إلا أنهم كان يجمعهم: رفع الامتيازات الإنسانية كافة، وإباحة الكل للكل واشتراك الكل في الكل.
ويجب إزالة الدين والملوك، إذا وقفوا حائلاً بين البشر وشهواتهم. ويرى الأفغاني أن حدوث ذلك يؤدي إلى انقراض النوع البشري.

• وحيث إن الأشياء تتميز بضدها، فإن الأفغاني يوضح أهم مزايا الإسلام عن تلك الموجات الإلحادية وغيرها، كما يلي:

أهم مزايا الإسلام:

١- صقل العقول بالتوحيد: ويقتضي هذا أن الله الواحد هو النافع الضار، وأنه لا يتجسد في صورة مخلوق، وغير ذلك من الأوهام.
٢- محق امتياز الأجناس وتفاضل الأصناف؛ فالتفاضل بالعقل والفضيلة.
٣- جعل العقيدة قائمة على الإقناع، لا على التقليد.
٤- نصبَ الإسلامُ المعلم ليؤدي عمل التعليم، وأقام المؤدب الآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر، كما قال تعالى:

﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾.

وقال عز من قائل:

﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾.

• هذه هي مزايا الإسلام، والتي تخلى عنها المسلمون، فصاروا شيعاً، وذهب ريحهم، مع أن أسلافهم بلغوا القمة بهذه المزايا حين التزموا بها: **﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾.**

{د. محمد البهي : الفكر الإسلامي الحديث ص ٦٣-٧٠ }.

• لقد كتب الأفغاني رسالة الرد علي الدهريين، في حيدر أباد الدكن عقب خروجه من مصر، بناء علي طلب أحد الهنود المسلمين، والذي طلب منه أن يوضح ما إذا كان مذهب الدهريين ينافي أصول الدين أم لا.

• وقد فطن جمال الدين إلي أن الإسلام في الهند، هو المعرقل الوحيد لسلطة الإنجليز؛ ولهذا أرادوا تصفيته بطريقة قاطعة، لاسيما حينما فشلوا بالطرق الأخرى، وهي التبشير بالمسيحية، أو التضييق علي المسلمين في أرزاقهم. لذا كان مذهب داروين هو إحدى هذه الطرق التي سلكوها.

<u>ملاحظات علي ردّ الأفغاني علي الدهريين :</u>

١- يغلب عليه <u>الطابع الخطابي</u>، والذي هو محبب إلى رجال الوعظ على منابر المساجد و غيرها.

٢- طابع <u>السرعة والانتقال</u>؛ بحيث تشتمل كل فقرة على فكرة، ولا تتكرر هذه الأفكار؛ لكن البحث يتقدم بواسطتها إلى الأمام.

٣- استخدام أسلوب الاستفهام التعجبي، مثل: " وكيف صارت الضرورة العمياء، معلما لتلك الجراثيم".

٤- تخيّر بعض الأمثلة التى ذكرها داروين فعلا ومعالجته إياها.

٥- استخدام الأفغاني لعبارات الاستهزاء والسخرية من آن لآخر، مثل:

- " وعلى زعم داروين هذا يمكن أن يصير البرغوث فيلاً بمرور القرون وكرّ الدهور، وأن ينقلب الفيل برغوثاً ".

- "لا ريب أنه يقبع قبوع القنفذ، ويتنكس بين أمواج الحيرة، يدفعه ريب، ويتلقاه شك، وإلى أبد الآبدين".
- " وكأني بهذا المسكين وما رماه فى مجاهل الأوهام ومهامه الخرافات إلا قرب المشابهة بين القرد والإنسان، وكأن ما أخذ به من الشبه الواهية، يشغل بها نفسه عن آلام الحيرة وحسرات العماية ".

{د مجدي عبد الحافظ : جمال الدين الأفغاني ص ٨٤-٨٦}

• ومن الجدير بالذكر، أن الأفغاني قد تنازل عن أفكار عديدة فى رسالة الرد على الدهريين، قد تختص بالجانب التجريبي، أما التطور بمعنى أن الإنسان تطور عن شيء، أو أنه سيتطور إلى شيء، فإن الأفغاني مازال مصراً على الرفض فيه؛ نظراً لمناقضته للعقيدة الإسلامية.

{محمد المخزومي: خاطرات جمال الدين الأفغاني الحسيني ص ١١٥، ط٢، ١٩٦٥ دار الفكر الحديث، لبنان}

موقف الأفغاني من الاستعمار البريطاني :

بعد أن رد جمال الدين علي الدهريين، التفت إلى مقاومة الاستعمار الغربي بصفة عامة، والبريطاني بصفة خاصة، ولعل ذلك كان نتيجة احتكاكه المباشر به في الهند ومصر.

• وقد عاصر الأفغاني عام ١٨٧٥ م فى مصر، بعثة Cave التي وفدت إلى مصر لفحص ماليتها، وإنشاء مصلحة الرقابة المالية، يخضع الخديوي لمباشرتها، وهي تلك الرقابة التي تمثلت في صندوق الدَّيْن الذي أنشا عام ١٨٧٦م.

• كذلك تم إنشاء نظام الرقابة الثنائية لمراقبة مصروفات الحكومة من اثنين: أحدهما إنجليزي والآخر فرنسي. هذا بالإضافة إلى إنشاء لجنة مختلطة لإدارة السكك الحديدية، وميناء الإسكندرية.
ثم تطورت الرقابة الثنائية إلى تأليف وزارة مختلطة برئاسة نوبار باشا، المنحدر من أصل أرمني، تضم وزيرا إنجليزيا لوزارة المالية، وآخر فرنسيا بوزارة الأشغال.

وكان الاحتلال البريطاني الرسمي في سنة ١٨٨٢م بعد ما أبعد جمال الدين عن مصر عام ١٨٧٩م بثلاث سنوات، وبمشورة القنصل الإنجليزي على الخديوي توفيق.
وهذا يوضح مدى النفوذ البريطاني بمصر، على عهد إقامة جمال الدين بمصر. والتهمة التي وجهت إليه لإبعاده عن مصر هي: أنه يرأس جمعية من الشبان ذوي الطيش تجتمع على فساد الدين والدنيا.
كذلك كان احتكاك الأفغاني المباشر بالسلطة البريطانية في الهند، قد وقع نتيجة زياراته الثلاث لهذه البلاد.

• عموما فإن جمال الدين يرى أن الاحتلال البريطاني لمصر، كارثة على العالم الإسلامي كله، وأهاب بالمسلمين، بباعث من دينهم، أن يتكاتفوا لدفع بلاء هذا الاحتلال، لاسيما وأن القرآن يتلى بينهم، فلابد أن يفيق المسلمون من غفلتهم، ويعلنوا النفير العام.

• لقد استمر الأفغاني يوقظ المسلمين بوحي من دينهم، ويهيب بهم أن يتعاونوا على مقاومة من يذلهم ويستعبدهم، ويذكرهم بآيات التعاون والاعتصام مثل: **﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ﴾.**

• وبهذا يتبين بوضوح: كيف أقام جمال الدين كفاحه السياسي على أسس إسلامية، لا خلاف فيها. ولم يفتأ يصور الإنجليز في صورة المنتهك للحرمة، والغاصب، والمستعبد.

• وهو يوصي المسلمين بأن دينهم يوجب عليهم ألا يدينوا لسلطة من يخالفهم، بل الركن الأعظم لدينهم، هو طرح ولاية الأجنبي عنهم، وكشفها عن ديارهم، بل منازعة كل ذي شوكة في شوكته. وهل نسي المسلمون وعد الله بأن يرثوا الأرض، وهم العباد الصالحون؟!.

• **أما منهجه الذي اقترحه؛ ليجعل من المسلمين قوة متماسكة:**
وسائرة في طريق الحياة، حريصة على أن تكون سيدة نفسها، فهو كما قال:" أرجو أن يكون سلطانهم جميعهم القرآن، ووجهة وحدتهم الدين".

{العروة الوثقى ٧١ وما بعدها}

• يضاف إلى هذا، أنهم يجب أن يزيحوا من طريقهم أهل الجبر والزندقة والسفسطة والوضع في الحديث:
"إن القرآن حي لا يموت، ومن أصابه نصيب من حمده فهو محمود. ومن أصيب من مقته فهو ممقوت. كتاب الله لم ينسخ؛ فارجعوا إليه، وحكموه في أحوالكم وطباعكم. وما الله بغافل عما تعملون".
{السابق ص١٤٠}

المشروع الحضاري عند جمال الدين الأفغاني:

• إن الوقوف على أفكار جمال الدين الأفغاني، يستلزم فهم مشروعه الفلسفي الحضاري، والذي أخذ يتطور لديه على ضوء الظروف التي عايشها، حتى النهاية. وقد ركز على حل مشكلات عصره التي لم تكن خافية على أحد، وهي:
كيف يمكن لأمم الشرق الإسلامية، أن تقهر التخلف؛ كي تلحق بالأمم المتقدمة، لكن على أساس من روح الشرق ذاته؟

وقد أخذ هذا المشروع يتطور على مرّ الأيام، مع حياة الأفغاني وتجاربه السياسية وسط الشعوب الإسلامية، وتجاربه مع الغرب الاستعماري أيضا، حتى اتضحت معالمه، وتبيّن أنه عملية تراكمية للخبرات والتجارب التي اجتازها والتي أثمرت في النهاية مثل ذلك المشروع.
وتكتمل النظرة إلى المشروع تماما، بعد ظهور كتاب محمد المخزومي المسمى:"خاطرات جمال الدين الأفغاني الحسيني" حيث إن أفكار الأفغاني قبل ظهور هذا الكتاب كانت تبدو متقطعة.
ومشروع الأفغاني هذا يدور حول محورين أساسيين هما: العقل والمساواة:

أولا- العقل:

إن العقل هو نقطة البداية التي انطلقت منها النهضة الأوروبية، حينما اعتمدت عليه للخروج من أسر وسلطة الكنيسة، فلما تمّ لها ذلك استطاعت الانطلاق، وحققت تقدما ملموسا في عصره.

ولم تكن محاولة الأفغاني اعتماد العقل كنقطة بداية، تضع في اعتبارها هذه القطيعة التي حدثت في الغرب بين العقل والدين. ولكنها كانت محاولة لتنقية الدين مما علق به من شوائب، عاقت حركة المجتمع.
ولذا فإن ما كان يشغل بال الأفغاني، هو "حركة إصلاح ديني". أو كما نقول اليوم: "تجديد الخطاب الديني"، ليزيل ما رسخ في عقول العوام وبعض الخواص من فهم بعض العقائد الدينية والنصوص الشرعية على غير وجهها الحقيقي.

{عبد القادر المغربي: جمال الدين، ذكريات وأحاديث، ص٣٢، طبع ١٩٤٨م دار المعارف بمصر}

• ولا ينبغي الظن بأن الأفغاني أراد يوما، أن يحل العقل محل الدين، وإنما كان يريد تنقية الدين عن طريق العقل. وهو طبعا يقصد العقل الواعي المتطور الذي يضيء ما حوله.

• لهذا نلحظ أن الأفغاني يعلي من شأن العقل، حيث يتحدث عن الإصلاح الديني الذي يبتغيه، وإن موقع العقل في هذا الإصلاح، بمثابة الجوهر الذي لا يمكن معرفة الشيء بدونه.
أليس الدين يطالب أهله دائما، أن يأخذوا بالبرهان في أصول دينهم، وهو يخاطب العقل ويحتكم إليه؟!

{د. عبد الباسط محمد حسن: جمال الدين وأثره في العالم الإسلامي الحديث ص٨٧، ط١، ١٩٨٢م مكتبة وهبة بالقاهرة}.

• ومن هذا المنطلق نرى الأفغاني يوجه جهوده لمحاربة "التقليد"؛ لأنه آفة تعطل العقول عن أداء وظيفتها، ويقودها إلى العجز الذي يقعد بها عن تمييز الخير من الشر.

• ومن أولى الأمور هنا، مطالبته بمحاولة إعادة فهم الدين مرة أخرى، على ضوء المستجدات الحضارية الحديثة، حتى ينتفع الناس بالدين في واقعهم المعاش، وحتى تصبح عقائد الأمة مبنية على البراهين القويمة والأدلة القاطعة.

• والاجتهاد ضرورة عقلية: فإذا لم يكن العقل هو وسيلة الاجتهاد، فبأي شيء يكون؟. وإن فتح باب الاجتهاد لهو خير سلاح في مواجهة التقليد.

و ليس صحيحا ما قيل: لا اجتهاد بعد الأئمة الأربعة؛ لأن هؤلاء الأئمة لو عاشوا إلى اليوم، لداموا مجدّين مجتهدين، يستنبطون لكل واقعةٍ حادثةٍ، حكماً من القرآن والسنة؛ لأن حاجيات الزمان وأحكامه لا تنافى جوهر النص، ولا بأس من الاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم العصرية.

• ولم يكن جمال الدين يقصد أن يقصر الاجتهاد على نفسه، أو على فئة معينة، لكنه أراد فتح باب الاجتهاد بشروط هي أن يكون المجتهد:
" عالما باللسان العربي، وعاقلا غير مجنون، وعارفا بسيرة السلف، وما كان من طريق الإجماع، وما كان من الأحكام مطبقا على النص مباشرة، أو على وجه القياس، وصحيح الحديث، جاز له النظر في أحكام القرآن وتمعنها أو التدقيق فيها، واستنباط الأحكام منها ومن صحيح الحديث والقياس".

{محمد المخزومي: خاطرات جمال الدين، ص١٧٧}

• وقد اهتم الأفغاني بتوظيف العقل توظيفا علميا؛ لما لذلك من أثر على تقدم الشعوب الإسلامية. وهو حين رفض مقولة "حيوانية الإنسان" التي جاءت بها نظرية التطور، لم يكن ذلك منه إلا استنقاذا للعقل؛ لأن السقوط إلى الحيوانية، يقف بعقول الناس عن الحركات الفكرية.

• كذلك كانت دعوته إلى الاقتباس من الغرب دعوة عقلية: لأن منطق العقل يدعو إلى الارتقاء بالمعارف العلمية في الشرق الإسلامي؛ كي تترقى أقطاره حضاريا، وتستعين بهذا على التصدي للغزو الغربي الذي يستهدفها؛ فلا مفر إذن من اقتباس علوم الغرب ذاته. وكان يقول:
"يا أبناء الشرق: أفلا تعلمون أن سلطة الغربيين وسيادتهم عليكم، إنما كانت بارتفاع درجتهم في العلوم والمعارف".

{جريدة الشرق، العدد ٤٢ أبريل ١٨٧٩م}.

وينادي ثانيا: "الجهل سلطان غشوم جاهل يتبعه الفقر والفاقة، ويواليه الارتباك والاضطراب، ويألفه الذل والعبودية، وتلزمه القسوة والشراسة".

{جريدة الشرق، العدد ٤٧، مايو ١٨٧٩}

• وكل هذا لا يتعارض مع رفضه من قبل لنظرية التطور؛ لأنه رأى أنها نظرية فاسدة علميا وأخلاقيا وعقديا، كما نظر إليها على أنها غزو ثقافي،

وكانت المساواة مهجورة عندهم، ومن ذا الذي يستطيع أن يطالب بها هؤلاء الولاة؟!

• والمساواة قسمان:

أ. مساواة داخلية: داخل الوطن الإسلامي، وتبدأ بين المسلمين جميعا، حيث لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، وما يربط أو يوحد بينهم إنما هو دينهم ذاته. وإن المساواة في رأي الأفغاني لا تميز أي جنس وتضعه فوق أي جنس آخر، بل إن الأجناس تتساوى جميعها من خلال الدين ذاته.

• ويرى الأفغاني أن هذه المساواة، سوف تؤدي بالعربي إلى ألا ينفر من سلطة التركي، والفارسي يقبل سيادة العربي، والهندي يذعن لرياسة الأفغاني، دون اشمئزاز أو انقباض. والخلاصة أن هذه المساواة إنما هي تعبير عما يجب أن يتم في أوساط المسلمين.

ومعلوم أن هناك في الشرق الإسلامي ديانات أخرى تعيش مع الإسلام، فكيف تتم المساواة بينها وبين الإسلام؟!
والحقيقة أنه لا توجد مشكلة في ذلك؛ لأن الأفغاني يرى أن:
"الأديان الثلاثة متفقة في الأمور التعبدية بلا أدنى تباين أو تخالف".
وهو كذلك يعزو الاختلاف الواقع بين الأديان الثلاثة السماوية إلى القائمين عليها، لا إلى تعاليم هذه الأديان ذاتها؛ فإن رؤساء الأديان: "ما أنفعهم إذا صلحوا، وما أضرّهم إذا فسدوا"!. وذلك لما يقوم به بعضهم من اتجار في الدين.

{خاطرات جمال الدين، ص١٣٨،١٣٩}.

• وبالإضافة إلى ذلك فإن الأفغاني يدعو المسلمين في العالم الإسلامي إلى العدل؛ لأنه أساس الحياة وقوامها؛ إذ إن الأمم تضيع إذا ضاع العدل بينها. هذا مع وجوب تحقيق الاتحاد والألفة مع أصحاب الديانات الأخرى؛ لأن الله رب العالمين، لا رب اليهود فقط، ولا النصارى فقط، ولا المسلمين فقط.

وكانت المساواة مهجورة عندهم، ومن ذا الذي يستطيع أن يطالب بها هؤلاء الولاة؟!

• والمساواة قسمان:

أ. مساواة داخلية: داخل الوطن الإسلامي، وتبدأ بين المسلمين جميعاً، حيث لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، وما يربط أو يوحد بينهم إنما هو دينهم ذاته. وإن المساواة في رأي الأفغاني لا تميز أي جنس وتضعه فوق أي جنس آخر، بل إن الأجناس تتساوى جميعها من خلال الدين ذاته.

• ويرى الأفغاني أن هذه المساواة، سوف تؤدي بالعربي إلى ألا ينفر من سلطة التركي، والفارسي يقبل سيادة العربي، والهندي يذعن لرياسة الأفغاني، دون اشمئزاز أو انقباض. والخلاصة أن هذه المساواة إنما هي تعبير عما يجب أن يتم في أوساط المسلمين.

ومعلوم أن هناك في الشرق الإسلامي ديانات أخرى تعيش مع الإسلام، فكيف تتم المساواة بينها وبين الإسلام؟!
والحقيقة أنه لا توجد مشكلة في ذلك؛ لأن الأفغاني يرى أن:
"الأديان الثلاثة متفقة في الأمور التعبدية بلا أدنى تباين أو تخالف".
وهو كذلك يعزو الاختلاف الواقع بين الأديان الثلاثة السماوية إلى القائمين عليها، لا إلى تعاليم هذه الأديان ذاتها؛ فإن رؤساء الأديان: "ما أنفعهم إذا صلحوا، وما أضرّهم إذا فسدوا"!. وذلك لما يقوم به بعضهم من اتجار في الدين.

{خاطرات جمال الدين، ص١٣٨،١٣٩}.

• وبالإضافة إلى ذلك فإن الأفغاني يدعو المسلمين في العالم الإسلامي إلى العدل؛ لأنه أساس الحياة وقوامها؛ إذ إن الأمم تضيع إذا ضاع العدل بينها. هذا مع وجوب تحقيق الاتحاد والألفة مع أصحاب الديانات الأخرى؛ لأن الله رب العالمين، لا رب اليهود فقط، ولا النصارى فقط، ولا المسلمين فقط.

• وكان للأفغاني فهم متطور لمفهوم الوطنية، وهو نابع من طبيعة المعاملات، فقد وَجَد أن العبادات مسألة يؤديها الإنسان بمعزل عن الآخرين، في حين أن المعاملات هي التي تنظم بين أبناء الوطن الواحد.

• وهكذا كان جمال الدين شديد البعد عن التعصب، فيما يتصل بالمساواة الداخلية بين المسلمين وغيرهم، خصوصا في الحقوق العمومية التي لا يصح لها معنى إلا بالحرية المعقولة.

• ومن المنطقي إذاً أن نرى الأفغاني يتصدى للاستبداد الواقع على أفراد الشعب دون تفريق بين مسلم وغير مسلم، ولاسيما الاستبداد الواقع من الولاة والسلاطين.

• ولم تكن دعوة جمال الدين لمقاومة الاستبداد دعوة نظرية؛ بل تعدت ذلك لتطلب من الملوك والأمراء الحكم الدستوري. وقد أدرك أن الحكم الدستوري لا يوهب ولكن ينتزع. وكان رده على الخديوي توفيق حازما حين رأى الخديو :

"أن أغلب الشعب خامل جاهل، لا يصلح أن يلقى عليه ما تلقونه من الدروس والأقوال المهيجة؛ فيلقون أنفسهم والبلاد في تهلكة".

وهنا بادره الأفغاني قائلا:

"ليسمح لي سمو أمير البلاد أن أقول بحرية وإخلاص: إن الشعب المصري كسائر الشعوب لا يخلو من وجود الخامل الجاهل بين أفراده، ولكنه غير محروم من وجود العالم والعاقل. فبالنظر الذي تنظرون به إلى الشعب المصري وأفراده ينظرون به لسموكم. وإن قبلتم نصح هذا المخلص وأسرعتم في إشراك الأمة في حكم البلاد عن طريق الشورى، فتأمرون بإجراء انتخاب نواب عن **الأمة** تسنّ القوانين، وتنفذها باسمكم وإرادتكم؛ يكون ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم".

{خاطرات... ص٢١}

• وعندما سافر الأفغاني إلى بطرسبورج، وسأله القيصر الروسيّ عن سبب اختلافه مع شاه إيران، أجابه بأن الشاه يعارض الحكومة الدستورية وقد تعجب القيصر قائلا:

"كيف يرضى ملك من الملوك أن يتحكم به فلاحو مملكته؟"

فأجابه الأفغاني قائلا:

"أعتقد يا جلالة القيصر أن عرش الملك، إذا كانت الملايين من الرعية، أصدقاء له، خير من أن تكون أعداء يترقبون الفرص، ويكنون في الصدور سموم الحقد ونيران الانتقام".

{خاطرات... ص٣٠}

• وكذلك فعل الأفغاني مع شاه إيران، ونصحه بوضع دستور؛ فذلك أبقى لعرشه وسلطانه، فهل يُتصور أن يعيش ملك بدون أمة ورعية. لقد صدق حدس الأفغاني، أين الآن عرش "شهنشاه" أو ملك ملوك الفرس، الذي لم يكن لشعبه حساب عنده؟! فالحاكم إذا خان دستور الأمة: "إما أن يبقى رأسه بلا تاج، أو تاجه بلا رأس".

ب. مساواة خارجية بين الأمم:

لكي تتحقق هذه لابد أن يسبقها تحقيق المساواة الداخلية. إذ إنه ينبغي لأمم الشرق أن تأخذ بأسباب التقدم والرقي، حتى تستطيع أن تتساوى مع الأمم الغربية، مع تمسكها بهويتها الإسلامية وترابطها واتحادها ضد ما يحاك لها في الغرب من مؤامرات استعمارية.

• وقد ذهب الأفغاني إلى دحض فرية السامية والآرية التي وسوس بها رينان؛ كي يجعل العقل الآري حاكما ومسيطرا، ويرى جمال الدين أن هذا نوع من التفرقة بين الشعوب على أساس العصبية لا العلم.

• ويرى الأفغاني أن المساواة الحقيقية بين الشرق والغرب في العلاقات الدولية، لن تتحقق إلا في إطار من العدل بين الأمم؛ لأن العدل قوام الاجتماع الإنساني، وبه حياة الأمم، وكل قوة لا تخضع

للعدل فمصيرها إلى الزوال. كذلك فإن القوى بين الغرب والشرق لن تتعادل إلا بالتكافؤ؛ إذ إن:
"التكافؤ في القوى الذاتية والمكتسبة هو الحافظ للعلاقات والروابط السياسية؛ فإن فقد التكافؤ لم تكن الرابطة إلا وسيلة القوي لابتلاع الضعيف".
{خاطرات...ص٢٦٩}

• **<u>وقد طرح الأفغاني فكرة الجامعة الإسلامية</u>**: ضمن مشروعه الفلسفي للإصلاح. وهو بطرحه لهذه الفكرة إنما يبتغي من خلالها إزالة الأسباب التي عملت على صعود نجم المستعمرين ضد الشرق الإسلامي. وعلى أبناء الشرق أن يتجاوزوا محنتهم التي مكنت للمستعمرين منهم، باتحادهم ومقاومتهم وكشف أساليبهم الاستعمارية المختلفة. ذلك أن المستعمر لا يبالي بأفراد، ولو كانوا سلاطين أو أمراء، ولا بجيوشهم وقوادهم، وإنما الذي يخشاه هو قيام الأمة بوجهها، وهذا هو السلاح القاطع لجبروت الاستعمار. ومن أبرز الأمثلة على ذلك أن الأمة الأمريكية لم تحصل على استقلالها عن إنجلترا، إلا بالمقاومة الشديدة من الأمة نفسها.

• على أن الأمة الإسلامية هي الأولى بهذا الاستبسال؛ نظرا لما تحمله من تراث عام مشترك ودين يحثها على ذلك، وهذا هو مفهوم الجامعة الإسلامية، إنها جامعة الدين لا جامعة الجنس.

• وقد قام الأفغاني بترشيح البيت الحرام ليكون بداية تأسيس الجامعة الإسلامية، ولاسيما في موسم الحج الذي هو وسيلة اتصال وتأثير غاية في القوة والسرعة في كل ركن من أركان البلدان الإسلامية، فما هي إلا كلمة تقال بينهم من ذي مكانة في نفوسهم، حتى تهتز لها أرجاء الأرض، وتضطرب لها سواكن القلوب.

• وكرجل سياسي حاذق يعرف أن الوحدة الإسلامية تحت خلافة واحدة أمر بعيد المنال. ومع هذا كان يرى أن <u>الأمن الإسلامي</u> في الشرق لا يتجزأ، وأن مسئولية الحكام تجاه بعضهم البعض، ليست مسئولية دينية فقط، ولكنها مسئولية أمنية أيضا.

• وهو بهذا يحاول أن يوضح للحاكم وللمحكوم ، الأثر السيئ الذى ينتج عن التهاون أو التعاون مع الاستعمار، فهو يقول :

" يرى الأمير الشرقي الاستعمار فى أرض جاره ، فيظن أن النازلة خاصة بموقعها فيلهو عنها ، ولا يخشى السقوط فيما سقط فيه غيره ، فيقع فى نفس الشَرك الذى صيد به جاره، ومثلهم مثل الأغنام يسوق الجزار منها واحدا بعد واحد إلى المجزرة وسائر القطيع فى غفلة عما يجرى على آحاده، يرعى ويرتع آمنا مطمئنا حتى يفنى " . {العروة الوثقى : عدد ١٨}

ولم يحاول الأفغاني تنبيه الحكام وحدهم ، لكنه لم يبخل بالنصح على المحكومين الذين يتوهمون أنهم في المعسكر الاستعماري ، سينجون من عسف واستبداد حكامهم المحليين، وهؤلاء مثل من يريد الفتك بنفسه حتى إذا أحس بالألم رجع واسترجع ، فتعساً لمن يبيع ملته بلقمته .

وبذلك يستطيع الشرق أن يتصدى للمخططات الاستعمارية التى أحيكت له فى الغرب ، ويستطيع كذلك تحقيق المساواة مع الغرب ، بعد تعادل القوتين، ويصبح الشرق ندا للغرب ، وليس صيداً سهلاً للمستعمرين.

{د. مجدي عبد الحافظ : جمال الدين ص ١٠٥ ــ ١٢٠}

• ولم يكن بإمكان الأفغاني أن ينفذ شيئاً من مشروعه الحضاري ؛ لأنه من أرباب القلم ، لا السيف . وكيف يستطيع تطبيق مبادئه في عالم إسلامي ممزق ، من الاستعمار ومن التنازع ، وكل منهما كفيل وحده بتفتيت الجبال، لكن حسبه قول الحق وتقديم النصح ، و" الدين النصيحة " وعلى الأجيال أن تعتبر وتعي الدرس .

❁❁❁

مفتريات على الأفغاني :

من الطبيعي أن يقابل أي مصلح بمعارضين ومعوقين ، وما أكثرهم! وليس الأعلام من أمثال جمال الدين، بأفضل من الأنبياء والمرسلين، الذين ووجهوا بسيل عرم من الأعداء الحاقدين، لكن ذلك ابتلاء من الله تعالى؛ كي يكون للجهاد والنضال موقعه وقيمته وثوابه عند الله ﷻ.

لقد أقض مضجع الغرب الاستعماري، مشروعُ النهضة الذي بدأه جمال الدين، كإحياء إسلامي تبلور في " الجامعة الإسلامية". وقد جُمعت لجمال الدين "وثائق" في أمريكا، أغلبها "تقارير" جواسيس ومخبرين رسميين، كانوا يعملون لحساب الاستعمار الإنجليزي والفرنسي، من أجل جمع معلومات عدو الاستعمار جمال الدين الأفغاني. وبعضها كُتُبٌ ألفت بيد صهاينة، استندوا على تلك التقارير. وقد سلمت تلك التقارير للدكتور لويس عوض، فنشرها بلندن في مجلة "التضامن" في سبعة عشر عددا، بعنوان: "الإيرانيّ الغامض في مصر"، وكان هذا فتحا لملف جمال الدين من جديد عام ١٩٧٥م.

{د. محمد عمارة:جمال الدين الأفغاني المفترى عليه، ص٢٠وأماكن أخرى، طبع ١٩٨٤م دار الشروق}

- ولم يكن الدكتور لويس عوض، أول من شهر حربا ظالمة، ضد الأفغاني، فقد تعرض لسهام الخصوم منذ بدأ الدعوة إلى إيقاظ الشرق وتجديد دينه ودنياه.

- ولقد ضمّ موكب الخصوم هذا، أغلبية إسلامية، وأقلية غير إسلامية. ومن هؤلاء التيار السلفي، وهذا من أعجب الأمور.

- ومن ضمن ما وُجّه من انتقاص إلى الأفغاني، أن "نقطة الضعف" عنده تتمثل في رفضه فكر الحضارة الأوروبية وقيمها، على حين يقبل "علمها" وتطبيقات هذا العلم "التكنولوجيا"، وكان من الواجب أن يتبنى الحضارة الأوروبية ككل، حتى لا يفتت وحدة الحضارة: المادي (التكنولوجيا) والروحي.

- وإذا كانت هذه "تهمة"، فإن الأفغاني يشرف بها، فهي ليست "نقطة الضعف" في دعوته، بل هي "الجوهر العبقري" في الدعوة الإسلامية. ماذا فعلت اليابان إبان نهضتها؟ لقد أخذت "علوم" الغرب و"تطبيقاتها"، واحتفظت بفكرها وقيمها، ولا تزال تصنع ذلك حتى اليوم.

- كذلك فإن الأوروبيين عندما تعاملوا مع ابن رشد، أخذوا منه: "عقلانية أرسطو اليونانية" التي لا تقيم وزنا للوحي والنقل والمأثورات. على حين

رفضت "عقلانيته الإسلامية"، التي آخت ما بين الحكمة والشريعة حتى تدينت بها فلسفتنا، وتفلسف بها الدين في حضارتنا العربية الإسلامية.

• إن الأفغاني عندما دعا إلى إهمال هذا المنهج، إنما كان يتخذ الموقف الواعي والناضج بين موقفين كلاهما خاطئ: موقف أهل الجمود، الذين عكفوا على الموروث، رافضين التفاعل مع الحضارة الغربية بإطلاق، وموقف دعاة التغريب الذين أسلموا عقلهم كله للحضارة الأوروبية، وكأنهم "اللقطاء" بلا ميراث حضاري:

"إن الأمم الساعية إلى النهضة، بعد ضعف وركود، تحتفظ من مواريثها بالثوابت، التي هي بمثابة البصمة المميزة لها حضاريا بين الأمم ذات الحضارات. وتحتفظ بالمناهج والقيم والعقائد التي جربت في تاريخها الحضاري؛ فكانت عوامل نهضة وقوة وازدهار".

{د.عمارة: جمال الدين الأفغاني المفترى عليه،ص٣٥}

• لقد وُصف جمال الدين الأفغاني من خصومه بالعديد من الأوصاف التي لا أساس لها من الصحة:

"إنه: زنديق، ملحد، مجدف، متفرنج. في الفكر والسلوك علماني ثيوقراطي تقدمي ثوري جدلي رجعي. تقليدي محافظ وسطي عالم هنكار. سلفي شيعي بهائي باطني ماكر. إرهابي فوضوي عدمي غامض مريب جاهل متعصب. غَيْبي في الفكر، غيبي في السياسة. شغل نفسه بسفاسف الفكر وبسفاسف الفكر السياسي. مزدوج الشخصية بل ومتعددها. متذبذب، متناقض، محامي روسيا في السياسة الأفغانية. صاحب نظرية "المستبد العادل"، صاحب عنهجية فارسية، شخصية مأساوية. لم يكن يعرف ما يريد. عدو للشعور القومي وللحركات الاستقلالية. على درجة من النقص في الإخلاص. باحث عن استدرار الأموال-وبالطرق الملتوية- لتصب في جيبه. يَنْصب على كل الأطراف. انتهازي من طراز نادر. متوسل للغايات النبيلة بالوسائل الخسيسة. مغامر، مقامر، بل وأفـّاق دولي".

{د.عمارة، ص٤٧ }.

• هذه هي الخصومة ومغالطاتها، لاسيما لدى من لا يخشون الله. أما المنصفون من الباحثين المعتدلين، فإن جمال الدين الأفغاني عندهم كأنه

حقيقة كلية، تجلت في ذهن كل واحد منهم بما يلائمه، أو قوة روحية قامت لكل نظر بشكل يشاكله، أو كما يقول الإمام محمد عبده:

"فهو في السياسة: يسعى لتلحق الأمة بالأمم العزيزة، والدولة بالدول القوية؛ ليعود للإسلام شأنه، وللدين الحنيف مجده.

وهو في الدين: حنيفي حنفي، لم يكن مقلداً في عقيدته. لكنه لم يفارق السنة الصحيحة، مع ميل إلى مذهب الصوفية. وهو أشد من رأيت في المحافظة على أصول مذهبه وفروعه. له حمية دينية لا يساويه فيها أحد، يكاد يلتهب غيرةً على الدين وأهله.

وهو في الفلسفة: له سلطان على دقائق المعاني، وقوة في حلّ ما يعضل منها، كأنه سلطان شديد البطش. وله لسَنٌ في الجدل وحذق في صناعة الحجة لا يلحقه فيهما أحد، إلا أن يكون في الناس من لا نعرفه.

وهو في الآداب: له في الشعريات قدرة على الاختراع، كأن ذهنه عالم الصنع والإبداع.

وهو في المعارف: إذا تكلم في الفنون حكم فيها حكم الواضعين لها.

وهو في الأخلاق: ولوع بعظائم الأمور، عَزُوف عن صغارها. سلامة القلب سائدة في صفاته. كريم يبذل ما في يده. قوي الاعتماد على الله. لا يبالي ما تأتي به صروف الدهر. له حِلْم عظيم يسع ما شاء الله أن يسع. إلى أن يدنو منه أحد ليمس شرفه أو دينه؛ فينقلب الحلم إلى غضب تنقضّ منه الشهب. فبينما هو حليم أوّاب إذا هو أسد وثاب، شجاع مقدام. لا يهاب الموت كأنه لا يعرفه".

{د. عمارة. ص ٤٣-٤٤}.

ونحن نرفض كل السمات التي افتراها عليه المغرضون والحاقدون، ونؤمن بأن هذا الرجل كان مفكراً مسلماً ، وزعيماً سياسياً متنوراً ، يحق للأمة العربية والإسلامية أن تجعله موضع فخرها، وتتخذ منه رمزاً من رموز كفاحها.

٨ـ الإمام محمد عبده

نشأته وحياته :

اسمه: محمد عبده حسن خير الله.

وقد ولد في قرية "محلة نصر" بمركز "شبرا خيت" من أعمال مديرية (محافظة) البحيرة، في سنة ١٢٦٦هـ = ١٨٤٩م، في أسرة كريمة تعتز بكثرة رجالها، ومقاومتهم لظلم الحكام، وتحملهم العديد من التضحيات في سبيل ذلك: ضياع ثروة، وسجناً، وتشريداً، وهجرة، وقوتاً.

• وقد علمته هذه النشأة: الاعتزاز بالمجد والأصالة، وعدم الربط بين هذه الأصالة وبين الغنى والثروة. ولما لمس الأفغاني في محمد عبده هذا الخلق السامي، قال له: " قل لي بالله: أي أبناء الملوك أنت" ؟!وقال عنه الخديو عباس: " إنه يدخل عليّ كأنه فرعون"!

• وفي القرية: تلقى محمد عبده القراءة والكتابة وحفظ القرآن، وبدا ذلك وهو في السابعة من عمره. ثم ذهب إلى " الجامع الأحمدي" بطنطا، ليحضر هناك دروس تجويد القرآن الكريم في سنة ١٣٧٩هـ = ١٨٦٢م.

• وفي سنة ١٣٨١هـ = ١٨٦٤م بدأ يتلقى أول دروسه الأزهرية في الجامع الأحمدي، بعد تجويد القرآن. ولكن أساليب التدريس العقيمة قد صدته عن قبول الدروس؛ فقرر هجران الدراسة بعد عام من شروعه فيها. فعاد إلى القرية سنة ١٢٨٢هـ = ١٨٦٥م، وتزوج ، وعزم على العمل بالزراعة مع أبيه وإخوته، والانقطاع عن التعليم. ولكن والده رفض ذلك بشدة، وأعاده إلى الجامع الأحمدي في نفس العام.

{ د. محمد عمارة: الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده. ١:١٩-٢٠ وانظر صفحات أخرى متنوعة بعد ذلك. ط١، ١٩٧٢م المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت}.

• وفي تلك الفترة: التقى بالشيخ درويش خضر- خال والده- وهو من رجال التصوف، فقاده إلى شيء من سلوك الصوفية وحكمتهم، فعادت إليه الرغبة في طلب العلم، ورجع إلى الجامع الأحمدي سنة ١٢٨٢هـ =

١٨٦٥م، وبدأ يفكر في الذهاب إلى القاهرة؛ كي يلتحق بالجامع الأزهر، فذهب إليه فعلاً في شوال سنة ١٢٨٢هـ =فبراير سنة ١٨٦٦م.

وكان بالأزهر يومذاك حزبان: شرعي محافظ، وحزب صوفي أقل في محافظته من الشرعيين. وحضر محمد عبده دروس كل من الحزبين، فسمع من الحزب الشرعي المحافظ دروس المشايخ: عليش، والرفاعي، والجيزاوي، والطرابلسي، والبحراوي. ومع هذا فقد انتمى إلى الحزب الصوفي، وكان رائد هذا الحزب: الشيخ حسن رضوان (المتوفى عام ١٣١٠هـ = ١٨٩٢م) وهو صاحب منظومة: "روض القلوب المستطاب"، وكان من هذا الحزب الشيخ حسن الطويل، والشيخ محمود البسيوني.

❁❁❁

ولما زار الأفغاني مصر للمرة الثانية، وطاب له المقام بها في سنة ١٢٨٨هـ = ١٨٧١م؛ فاتصل به محمد عبده، ولازم مجلسه منذ شهر المحرم من ذلك العام. وودّع لذلك حلقات الدروس الأزهرية التي كان يفضّل عليها دائماً الفكر الصوفي.

لكن الأفغاني نجح في أن ينتقل بمحمد عبده ،من التصوف والتنسك إلى : " الفلسفة والتصوف". وكان الأفغاني يقول:" الفيلسوف إن لبس الخشن ، وأطال المسبحة، ولزم المسجد فهو صوفي، وإن جلس في قهوة "متاتيا" وشرب الشيشة فهو فيلسوف".

• وكتب محمد عبده مقدمة لرسالة "الواردات" الفلسفية، التي أملاها الأفغاني سنة ١٢٩٠هـ = ١٨٧٢م. وهذه المقدمة أول الآثار الفكرية التي حفظت لنا من تراث محمد عبده. وكان أول ما نشر باسمه في الأهرام في سنته الأولى عام ١٢٩٣هـ = ١٨٧٦م وكان لا يزال يلتزم السجع في أسلوبه، وسنّه حينذاك كانت سبعة وعشرين عاماً.

• ودخل امتحان العالمية في عام ١٢٩٤هـ = ١٨٧٧م ونالها من الدرجة الثانية، وكان عمره ثمانية وعشرين عاماً. ولولا إصرار شيخ الأزهر

"الشيخ محمد المهدي العباسي" على نجاحه، لرسب؛ لأن بعض أعضاء اللجنة قد تواصوا على إسقاطه، لآرائه وصحبته لجمال الدين الأفغاني.

• وبعد تخرجه قام بتدريس المنطق وعلم الكلام المشوب بالفلسفة في الأزهر. فقرأ لطلبة العلم "إيساغوجي" في المنطق، و"شرح العقائد النسفية" لسعد الدين التفتازاني، مع حواشيه، و"مقولات السجاعي بحاشية العطار" وغير ذلك.

• وعقد في بيته درساً شرح فيه لبعض طلبة العلم، مؤلفات قديمة وحديثة، مثل:" التحفة الأدبية في تاريخ تمدّن الممالك الأوروبية" للوزير الفرنسي "جيزو" تعريب : نعمة الله خوري، وكتاب "تهذيب الأخلاق" لمسكويه.

• وفي أواخر سنة ١٢٩٥هـ = ١٨٧٨م عين مدرساً للتاريخ بمدرسة دار العلوم، فقرأ على طلابها مقدمة ابن خلدون، وألف لهم كتاباً، ضاعت أصوله، هو "علم الاجتماع والعمران"، كما عين مدرساً للعلوم العربية في مدرستي الألسن والإدارة.

• واشترك مع أستاذه الأفغاني في التنظيمات السياسية السرية التي أنشاها الأفغاني بمصر فدخل الماسونية، وكانت حينذاك حسنة السمعة إلى حد كبير، نظراً للدور الذي قامت به في أوروبا في العصور الوسطى، ضد استبداد الأباطرة وسلطة البابوات، وسعيها في سبيل الديمقراطية والتحرر، وإبعاد نفوذ الكنيسة الرجعي عن دوائر البحث العلمي، مع تحرير عقول العلماء من إرهاب رجال الدين المحافظين، ثم رفعها شعارات الثورة الفرنسية (الحرية، والمساواة، والإخاء).

• على أنه لم يكن الأثر السياسي لمن في قياداتها من اليهود،قد ظهر بعد في قضايا الشرق العربي المصيرية، إذ إن الحركة الصهيونية الحديثة، لم تكن ظهرت بعد، ولا ظهرت نوايا اليهود في العالم بالنسبة لفلسطين.

• ومع ذلك فقد خاب أمل محمد عبده، مع أستاذه، عندما تحقق من مهادنتها للاستبداد، وتعاونها مع النفوذ الأجنبي، وخاصة الاستعمار الإنجليزي.

• ودخل الأستاذ وتلميذه في "الحزب الوطني الحر" الذي كان شعاره "مصر للمصريين"، والذي ضم الطلائع الوطنية المستنيرة من طبقات مصر في ذلك الحين.

• وكان أبرز أعمال محمد عبده الفكرية في تلك المرحلة، بعد دروسه وتدريسه: مقالاته في الصحف. وهي: "تقريظ جريدة الأهرام"، و"الكتابة والقلم"، و"العلوم الكلامية والدعوة إلى العلوم العصرية". كما صاغ في تلك المرحلة العديد من آثار أستاذه الأفغاني، مثل: حاشيته على شرح الدوّاني للعقائد العضدية، وفلسفة التربية، ورسالة الواردات.

• وكان إنشاء محمد عبده يتميز في تلك المرحلة بالسجع عندما كان يكتب لنفسه، ويتخلى عن السجع عندما يصوغ أفكار وأمالي الآخرين الذين لم يدخلوا السجع في مؤلفاتهم.

• وفي عام ١٢٩٦هـ- يوليو ١٨٧٩م: نفي الأفغاني من مصر، وعُزل الشيخ الإمام من مناصب التدريس في مدرستي دار العلوم والألسن، وحددت إقامته بقريته "محلة نصر".

• وبعد سنة تقريبا استصدر رياض باشا، ناظر النظار، عفوا من الخديو توفيق عن الإمام محمد عبده، وعينه محررا ثالثا في "الوقائع المصرية"، وبعد ثلاثة أشهر عيّن المحرر الأول، وتولى مسئولية الرقابة على المطبوعات. ولما أنشئ المجلس الأعلى للمعارف العمومية عام ١٨٨١م عيّن الإمام عضوا فيه.

• وفي تلك الفترة ترك التدريس، وعمل بالصحافة والسياسة. وكان في التدريس لا يختلف عن الأفغاني إلا في درجة الميل إلى الفلسفة، ولكنه عندما يعمل بالسياسة يبدو الفرق بينهما واضحا، أي فرق المصلح من الثوري.

• وانضم مع الحزب الوطني الحر، إلى العرابيين بعد مظاهرة عابدين، في ٩ سبتمبر عام ١٨٨١م، ثم ألقى بكل قواه في الثورة، بعد المذكرة الثنائية الإنجليزية الفرنسية إلى مصرفي يناير ١٨٨٢م، عندما تهددت الأخطار الأجنبية استقلال مصر، وظل في مكانه من المسئولية والقيادة مع الثوار،

حتى هزيمة الثورة في سبتمبر عام ١٨٨٢م، فسجن ثلاثة أشهر، ثم حكم عليه بالنفي ثلاث سنوات، بدءا من ٢٤ ديسمبر ١٨٨٢م، ولكنها امتدت حتى ست سنوات.

• وكان من أبرز أعماله في تلك المرحلة، مقالاته، وأغلبها نشر في الوقائع المصرية مثل: "عيد مصر ومطلع سعادتها" و"حاجة الإنسان إلى الزواج" و"العفّة ولوازمها" و "العدالة والعلم" وترجمة للبارودي، وغير ذلك.

• وقد ذهب إلى بيروت منفيا في ١٣ صفر ١٣٠٠هـ=٢٤ ديسمبر ١٨٨٢م، ولم يتجاوز الرابعة والثلاثين من عمره، فأقام بها نحو عام، حتى دعاه أستاذه الأفغاني إلى اللحاق به في باريس، في أواخر عام ١٨٨٣م.

• وقد بدأ التلميذ والأستاذ، في إخراج جريدة "العروة الوثقى" من حجرة صغيرة فوق أحد أسطح المنازل في باريس، وهذه الجريدة هي لسان حال "جمعية العروة الوثقى" السرية التي قام بتنظيمها في بلاد الشرق، وخاصة مصر والهند. وقد صدر من الجريدة ثمانية عشر عددا، أولها في ١٣ مارس عام ١٨٨٤م (١٥ جمادى الأولى سنة ١٣٠١هـ)، وآخر عدد في ١٧ أكتوبر سنة ١٨٨٤م (٢٦ ذي الحجة سنة ١٣٠١هـ)، وكان عمل محمد عبده في هذه الجريدة عمل "المحرر الأول" أي: رئيس التحرير.

وقد شغل الإمام محمد عبده في تنظيم العروة الوثقى السري منصب نائب الرئيس (الأفغاني)، ومارس العمل التنظيمي السري، وتنقل بهذه الصفة في بلاد كثيرة، بعضها في أوروبا، وبعضها في الشرق، وكان كثير من رحلاته هذه سرية. بل إنه دخل مصر في تلك الفترة سرا سنة ١٨٨٤م، أثناء اشتداد ثورة المهدي في السودان، وباشر قيادة عمل الجمعية السرية. وكان يدعو إلى وجوب جلاء الإنجليز عن مصر.

• ولما عاد إلى بيروت، أسس جمعية سرية للتقريب بين الأديان، وهذه من المواقف التي نتحفظ عليها، لكن هذا ما حدث. وفي بيروت مارس محمد عبده العمل الثقافي والتربوي والفكري، إلى جانب قليل من العمل السياسيّ المباشر، بحكم صلته بالأفغاني.

• وفي بيروت أيضا برزت جهوده التربوية وأعماله الثقافية والفكرية، فكتب: لائحة إصلاح التعليم العثماني، ولائحة إصلاح القطر السوري. كما شرع في تحقيق كتب التراث العربي الإسلامي كرائد للمحققين العرب في العصر الحديث. فحقق وشرع "نهج البلاغة" و"مقامات بديع الزمان الهمذاني" وغير ذلك.

• وفي بيروت قام الإمام بإتمام ما بدأه من ترجمة "رسالة الرد على الدهريين" للأفغاني، عن اللغة الفارسية، بمساعدة أحد أتباع الأفغاني وهو "عارف أفندي أبو تراب"، وصدّرها بترجمة هامة للأفغاني.

• واشتغل الشيخ محمد عبده بالتدريس في "المدرسة السلطانية" بيروت سنة ١٣٠٣هـ=١٨٨٦م، فارتقى بها من مدرسة شبه ابتدائية إلى مدرسة شبه عالية. ومن الكتب التي شرحها فيها "نهج البلاغة" و"ديوان الحماسة" و"إشارات ابن سينا"، كما ألقى فيها دروس التوحيد التي تحولت بعد عودته لمصر إلى "رسالة التوحيد".

• كذلك بدأ تفسير القرآن بمنهج عقلي حديث، طبق فيه منهج أستاذه الأفغاني، وكان ذلك بالمسجد العِمري ببيروت، فكان يعقد به درسه ثلاث ليالٍ في الأسبوع، واجتذب درسه هذا الحركة الفكرية والثقافية هناك، حتى إن المستنيرين من المسيحيين كانوا يجتمعون على باب المسجد لسماعه.

• وفي بيروت تزوج من زوجته الثانية، بعد أن توفيت زوجته الأولى. وسعى من بيروت لدى أصدقائه؛ كي يطلبوا له العفو ليعود إلى مصر. وكان تلميذه سعد زغلول يلح على الأميرة نازلي هانم فاضل، أن تتوسط له عند كرومر. وعندما اقتنع كرومر بأن الإمام لن يعمل بالسياسة، وأنه سيقصر نشاطه على العمل التربوي والثقافي والفكري، استخدم نفوذه في استصدار العفو من الخديو توفيق، فعاد الإمام محمد عبده إلى مصر سنة ١٣٠٦هـ=١٨٨٩م.

• ولما رجع إلى مصر، اتخذ له سكنا في شارع "الشيخ ريحان" بالقرب من قصر عابدين، ولما سئل عن سر اختياره هذا المكان، قال: "حتى نناطح

عابدين مناطحة". وكان يدرك أن الود سيظل مفقودا بينه وبين الخديو توفيق.

• ولما أراد محمد عبده، أن يمارس عمله المحبب إلى نفسه، وهو التدريس، وخاصة في دار العلوم، رفض الخديو توفيق، حتى لا يتيح له فرصة تربية الأجيال الجديدة على أساس من آرائه وأفكاره. لكن عيّنه الخديو عام ١٨٨٩م قاضيا بمحكمة بنها؛ كي يبعده عن القاهرة وعن التدريس، فقبل على مضض، ثم انتقل إلى محكمة عابدين، ثم ارتقى إلى منصب مستشار في محكمة الاستئناف عام ١٨٩١م.

• وفي تلك الفترة دارت مراسلات قليلة بينه وبين الأفغاني في الآستانة، ولكن هدوءه المؤقت مع السياسة والإنجليز، جعل الأفغاني يعاتبه بشدة ويطلب منه ألا يخشى إلا الله تعالى ، وكتب إليه الأفغاني مرة يقول:

"…. وما الكلاب، قلت أو كثرت؟! كن فيلسوفا يرى العالم ألعوبة، ولا تكن صبيا هلوعا؟!"

وبلغ الأمر إلى حد توقف الإمام عن رثاء أستاذه في الصحف عندما مات في مارس سنة ١٨٩٧م، واكتفى بالحزن عليه وقال:

"إن والدي أعطاني حياة يشاركني فيها "علي" و"محروس". والسيد جمال الدين أعطاني حياة أشارك بها محمدا وإبراهيم وموسى وعيسى، والأولياء والقديسين".

{د.محمد عمارة: الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده،١: ٢٩وانظر صفحات متفرقة قبلها وبعدها}

• وبعد موت الخديو توفيق، وتولي الخديو عباس حلمي الثاني السلطة، قامت فترة من الوفاق بين الإمام وبين العرش، وكان أساسها أن الإمام أقنع الخديو بأن يعاونه في العمل لإصلاح: الأزهر، والأوقاف، والمحاكم الشرعية. وتم تشكيل مجلس إدارة الأزهر، وكان الإمام عضوا فيه، وكان حريصاً هو وزملاؤه على أن يسير هذا المجلس وفق لائحته وقوانينه، لا بمشيئة الخديو وحاشيته.

• وعين في منصب مفتي الديار المصرية يوم ٢٤ محرم ١٣١٧هـ=٣يونيو١٨٩٩م، كما أصبح عضواً في مجلس الأوقاف الأعلى، فسعى إلى إصلاح الأوقاف ، وإصلاح المساجد بوضع وتطبيق اللائحة التي ضمنها أفكاره لإصلاح هذا المرفق الإسلامي الهام. ثم عين عضوا في "مجلس شورى القوانين".

• وكان يسافر دائما إلى أوروبا والشام وغير ذلك، كما كان يلقي دروسه في تفسير القرآن الكريم بالجامع الأزهر.

• ومن أبرز أعماله في تلك الفترة: فتاويه، وأحاديثه للصحف والمجلات و"رسالة التوحيد" وتحقيق وشرح العديد من كتب التراث:"دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة".

❁❁❁

وفاته:

في الساعة الخامسة من مساء يوم ٧ جمادى الأولى سنة ١٣٢٣هـ=١١ يوليو سنة ١٩٠٥م توفي الأستاذ الإمام بالإسكندرية عن سبعة وخمسين عاما، وترك ثلاث بنات، ورحل عن حياة فكرية خصبة، وجهود في التربية والإصلاح، ومواقف تجسّد عظمة الإنسان المصري، وكان عقلا من أكبر عقول العرب والمسلمين في عصرنا الحديث. لقد مات جسده، لكن آثاره العظيمة مازالت شاهدة عليه.

أهم الجهود الإصلاحية للإمام:

أولاً : التحرر الوطني :

كان أكبر همّ يشغل بال الإمام محمد عبده، هو المطالبة بتحرير بلده وشعبه؛ لأنه لم يسمع وهو طفل إلا عن اضطهاد شعبه، بل إنه كابد ذلك بنفسه وهو شاب، ثم كافح وهو معلم ضد هذا الاضطهاد، مثل جمال الدين الأفغاني.

ولكن ما هي الحرية؟ إن الحرية في رأى الإمام محمد عبده، ليست سوى الاعتراف بحقوق الإنسان، وتقرير واجباته، وكذلك إقرار علاقات الفرد بالحكومة.

وإن الذين غاب عنهم ذلك المعنى، خضعوا للاضطهاد وأهينوا ووهنوا واستكانوا للاستبداد والاستعمار. كذلك فإن المطالبة بالحرية تبغي إيقاظ الوعي بأن كل إنسان له كرامة، وهى تخدم الرقي الاجتماعي.

{د. محمد محمد البهي : الإمام محمد عبده، ص ٣٩ – ٤١ ترجمه من الألمانية : د. صلاح عبد العزيز محجوب – سلسلة دراسات إسلامية رقم ٤٨، ١٤٢٠م – ١٩٩٩م إصدار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة}.

والتربية هي الوسيلة الوحيدة للتحرر الوطني؛ لأن الحرب ليست هي الوسيلة لذلك، فيما يخص مصر؛ نظراً لأن الحاكم وكبار قادة الجيش كانوا من الأجانب، وعندما رحل الترك عن قيادة الجيش حلّ الإنجليز محلهم؛ وكان هذا هو السبب في أن عرابي باشا فشل في تحقيق مآربه في تحقيق مصر.

كذلك يرى الإمام أن الحرية في مصر لا تتحقق بالثورة، لأن الشعب عاش حالة من الضياع، فإذا قام بثورة، فإنه يقوم بثورة تحكمها الميول والأهواء، وليس العقل والحكمة.

لقد قاد سعد زغلول باشا في سنة ١٩١٩م ثورة ضد الإنجليز وسيطرتهم على مصر، بعدما امتنعت إنجلترا عن الوفاء بوعودها، والجلاء عن مصر. وقد حصلت مصر على بعض حقوقها من خلال ثورة سعد زغلول، إلا أن الشعب ظل يشعر بالمرارة من بشاعة القضاء على ثورته الوطنية، ويخشى الكفاح مرة أخرى.

ويبقى أن التربية هي الوسيلة الوحيدة أمام الشعب للفوز بالحرية. والتربية لا تؤتي ثمارها سريعاً، لكنها تنجح وتكون فعّالة عندما تستوفى شروطها.

وقد آمن محمد عبده بأن واجبه الحقيقي هو تربية الشعب؛ لتحرره من القهر، وتحرر بلده من الأجانب الذين يحكمونه بالعنف.

• وكان الشيخ يختلف في الرأي مع الذين رأوا آنذاك، أن وسيلة الرقى الوطني، هي تأليف دستور جديد وبرلمان للبلاد. ورأى الإمام أن الوقت لم يحن بعد، لكي يتم مفاجأة الأمة بهذا الخصوص، وقبل تهيئة الأمة لأي لون من ألوان التغيير، فإن القمر لا يشعّ بكامل أشعته، ويصبح بدراً قبل أن يكتمل.
ولهذا وجب علينا الاهتمام بتعليم الأمة وتربيتها، مع مطالبة الحكومة بإدارة عادلة، والاهتمام بتأسيس مجالس وإدارات استشارية في كل إقليم، بحيث يتم الحد من السيطرة التعسفية.

{محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده ١ : ٢١٥ – ٢١٧، القاهرة ١٩٣١م}

• ويرفض الشيخ تقليد الأمم المتحضرة في حضارتها وثقافتها وتقاليدها وتربيتها؛ لأن الشعب المصري له طبيعة أخرى وعادات وتقاليد خاصة به، فلا يمكنه استيعاب ذلك كله بمجرد أن يُقدّم إليه، والخلاف كبير بين الحضارتين، والقفز الفجائي لتطور أمة ما يُعَدُّ عاملاً قوياً في سقوطها.

• وقد قصد محمد عبده التربية الإسلامية المناسبة لتحقيق النهضة في مصر، والتي تتحقق من خلال اتباع الأسس التي أتى بها الرسل. أما القوانين المدنية التي تتناول عقوبات التمرد والجرائم، فليست هي القوانين التي تربي الأمة وتُحَسِّن من أحوالها؛ لأنها شرعت وشاعت في العالم كله؛ من أجل حالات استثنائية وخاصة. يقول محمد عبده مذكراً الناس بالإسلام وأنه هو الحضارة :
"هل نسيتَ تاريخ الأمة العربية، وما كانت عليه قبل بعثة الدين الإسلامي، من الهمجية والشتات، وإتيان الدنايا والمنكرات، حتى إذا جاءها الإسلام، فوحّدها وقوّاها وهذبها ونوّر عقولها وقوّم أخلاقها وسدد أحكامها؛ فإنها سادت على العالم وساست من تولته بسياسة العدل والإنصاف".

{تاريخ الأستاذ الإمام ٢ : ٢٣٣}

• فالأصول الدينية المبرّأة من البدع، تنشئ للأمم قوة الاتحاد، وتبعثها على اقتناء الفضائل، وتوسيع دائرة المعارف والمدنية.

• وعليه فلا ينبغي أن يعزل الدين عن الحياة، علما و تربية، وأمراً بالمعروف ونهيا عن المنكر، وتهذيب أخلاق، وصلاح أعمال. وهذه أمور كانت موجودة لدى الشعب المصري، من يوم أن نعموا بالإسلام، الذى هو علم الحياة البشرية.

وما فقدناه هو التبحّر في آداب الدين، وما ينبغي أن نطلبه هو التفقه في الدين. وحينئذ لن يكون عسيراً على من تحلى بذلك أن يحب الوطن والدولة، وأن يؤمن بالتعاون والترابط، اللذين هما أساس النهضة. ويرى الشيخ أن دين الإسلام هو :

"أول معلم، وأرشد أستاذ، وأهدى قائد للأنفس إلى اكتساب العلوم والتوسع في المعارف، وأرحم مؤدب، وأبصر مروض، يطبع الأرواح على الآداب الحسنة، والخلائق الكريمة، ويقيمها على جادة العدل، وينبّه فيها حاسة الشفقة والرحمة".

{تاريخ الأستاذ الإمام ٢ : ٢٥٣}

ولم يقصر الإمام في الرد على بعض المستشرقين، الذين يتهمون الإسلام بأنه هو السبب في تخلف المسلمين:

فقد ذهب "كيمون" إلى الادعاء بأن الإسلام يجب تحييده؛ من أجل إرادة السلام والتقدم.

كما زعم أحد وزراء فرنسا السابقين وهو "هانوتو" الذى اتهم عقيدة التوحيد في الإسلام بأنها : "اتجهت إلى جعل الإنسان في حضيض الضعف ودرك الوهن".

{محمد عمارة : الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ٣ : ٢٠١ وما بعدها ١٩٧٢ المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت}

• ولم يسأل هؤلاء الحاقدون أنفسهم: هل كان تقدم الشعب الياباني – وهو شرقي – وتخلف شعوب شرقية أخرى غير مسلمة، سببه وجود عقيدة التوحيد عندهم، أم أن المسألة ترجع إلى اجتهادات في أمور الدنيا؟!.

• وقد ردّ الإمام على هانوتو رداً حاسما جعله يعتذر أخيراً، وملخص الردّ كما يلي:

١ – أخطأ المسلم في فهم معنى التوكل والقدر؛ فمال إلى الكسل، وقعد عن العمل، وترك نفسه نهباً للحوادث تصرفه كيفما تشاء، ظاناً بذلك أنه يعمل بدينه ويرضى ربه.

٢ – تخلي المسلم عن السمات التي جعلت هذه الأمة، ذات خيرية ومنهج وسط، وهي الواردة في قوله تعالى :

﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون﴾ {آل عمران ١١٠}

فالخيرية هنا بسبب مبدأ التوحيد، ومبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. فلما ضعف التطبيق، وتسربت البدع، كانت الثمرة هي التفرق والوهن والتخلف.

٣ – أخطأ المسلم في فهم معنى الطاعة لأولي الأمر والانقياد لأوامرهم؛ فألقى مقاليده إلى ولاة الأمر، ووكل إليهم التصرف في شئونه، حتى ظن أن الحكومة يمكنها أن تفعل له كل شئ، فأدبر عنها، بعد دفع الضريبة، دون أن يكون له مشاركة إيجابية في أي شيء.

٤ – أما الحكام آنذاك فإنهم على قناعة، بأنهم يستطيعون أن يحملوا المحكومين على العمل وفق ميولهم، ويخضعونهم تماماً لسيادتهم، ولا يراعون في ذلك أي شكل من أشكال العدالة، ولا يهتدون بأي نص من كتاب ولا سنة. وكثيراً ما ينجم عن ذلك لدي الشعب، أساليب عديدة من النفاق والكذب والخداع، مما يترتب عليه التخلف الحضاري والدمار.

• وهكذا يترتب على عدم الوعي بالإسلام مفاسد كثيرة من الحكام والمحكومين. ويسود التقليد والانقياد الأعمى للحكام ولأتباعهم من أصحاب المذاهب المتباينة، ولاسيما تلك التي تتسم بالغلو والجمود.

وتقع الكارثة الكبرى عندما يفقد المسلمون الثقة في أنفسهم وفي دينهم، وهم يحسبون أن السواد الأعظم من الشعب إذا فسد، فلا توجد وسيلة للعلاج، وكم هو قبيح هذا المرض!، وقد حذر القرآن الكريم منه :

﴿إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾ {يوسف ٨٧ }

{د. محمد البهي : الإمام محمد عبده ، ص ٤٢ ــ ٥٤}

ثانياً : إصلاح الحكم :

لا يمكن تحديد موقف الإسلام من حكومة ما، دون أن نعرف مسبقاً نوع هذه الحكومة. ونوع الحكومة تحدده الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في البلاد.

لقد ساد مصر أيام محمد عبده، حالة من الجهالة وضعف الإرادة؛ حيث حكمت البلاد حكومة مستبدة، كانت غالبية موظفيها من الأجانب الذين عوّدوا المحكومين على الخضوع والخنوع. وقد عم الفقر قطاعاً عريضاً من طبقات المجتمع، كما وقعت الحكومة في اضطراب ماليّ كبير، أدى في نهاية الأمر إلى تدخل الدول الأجنبية في الشئون المالية والسياسية للبلاد.

ذلك أن إسماعيل باشا خديو مصر، الذى اضطر إلى التنازل عن العرش في عام ١٨٧٩م كان قد أراد أن يصبغ مصر بصبغة أوروبية، فأسرف ليس من أجل صالح مصر. بالإضافة إلى أنه حكم مصر حكماً ديكتاتورياً جائراً، لم يكن في صالح الشعب. وقد استدعى الأجانب إلى مصر من أجل مساندته؛ مما أدى إلى توابع وخيمة عليه وعلى البلاد. وقد سمح لموظفيه بابتزاز الشعب المحكوم؛ من أجل توفير الأموال اللازمة لتبذيره وسفهه.

ومما ترتب على فساد الحكم بهذا الشكل: تعرض الوحدة الوطنية للانقسام وركون الشعب إلى الجبن والاستخذاء، بسبب بطش أداة الحكم. ورأى الإمام محمد عبده أن الحاكم قد كبّل العقول والنفوس بأغلال من حديد؛ لأن حكومة البلاد كانت تحقق أهدافها الخاصة من خلال امتلاك كل شئ، كما أنها أعمت الشعب فلم يدرك مدى جور هذا النظام وعدم شرعيته.

وبالرغم من قيام الحكومة ببناء مدارس، ومظاهر حضارة، فقد كان هذا بالنسبة للشعب بمثابة أسماء بلا معنى. وقل مثل ذلك في حكومة من جاء بعده وهو الخديو توفيق.

• وقد كانت مشاعر الشعب الوطنية الخاصة بالحرية والعدالة تنذر بقيام ثورة في البلاد، ولاسيما بعد دعوة جمال الدين الأفغاني إلى التحرر والتحضر. ولما اندلعت الثورة كانت النتيجة احتلال انجلترا لمصر، وإعلان الحماية عليها؛ تلبية لطلب توفيق باشا، الذى استنجد بها من أجل

تأييده وتثبيته على العرش ولم يكن يخفى على توفيق وأمثاله أن الاحتلال الإنجليزي يمثل مخاطر جسيمة على الأمة، إلا أن ذلك لم يشغله كثيراً في ظل الاحتفاظ بعرشه تحت الوصاية.

ولم يكن ينتظر من محمد عبده وأمثاله حينذاك من العلماء والمصلحين، إلا أن يعبئوا الأمة، كي تستعد للدفاع عن حقوقها، ويعود إليها العدل والأمن.

لقد طالب محمد عبده الأمة بالتمسك بالوحدة الوطنية، والعمل المشترك، المبنى على التضامن والتعاون. وكان أمله إيقاظ الشعور الوطني، وتوعية الشعب بالصالح العام وحب الوطن، وأن على كل فرد أن يكرس حياته من أجل هذا الهدف، حتى وإن حكمت الشعب حكومة ديكتاتورية بصورة مؤقتة، ولكنها ينبغي أن تكون عادلة.

- هذا وإن الأساس الثابت دوماً، من أجل توحيد الشعب كله في كيان واحد هو الوطن، وهو مالا يختلف عليه أحد. وينبغي على كل مصري أن يساند أخاه مسلماً أو مسيحياً، انطلاقاً من حب الوطن الذي يجمع الكل.

- وينبغي أن يلعب التسامح هنا دوراً هاماً، فلا يجوز أن يهان أهل ملة بذنب ارتكبه واحد منهم؛ لأن هذا يغرس العداء في القلوب، ويؤدي إلى عواقب وخيمة، وعندما تتباعد الملل بعضها عن بعض، فإن أتباع كل ملة يقومون بتشويه الأخرى، وهذا قد يؤدى إلى الفوضى في البلاد. وعلى المسلمين ألا ينسوا وصايا النبي ﷺ بمعاملة أقباط مصر معاملة حسنة.

وقد أكد الإمام محمد عبده، أن حب الوطن يقود بدوره إلى وحدة الشعب؛ وذلك لثلاثة أسباب هي:

١ ـ الوطن هو محل الإقامة؛ حيث يجد الإنسان غذاءه وأهله وأبناءه وأصدقاءه.

٢ ـ الوطن هو المكان الذى تتوافر فيه الحقوق والواجبات ، وهو المحور الذى تدور حوله الحياة السياسية.

٣ ـ الوطن هو مقام الانتماء الذى يفخر الإنسان به.

• ومع هذا فإن الشعب المصري – كما يرى الإمام – اعتاد على تحمل الظلم والخنوع، بالرغم من أنه رأى حريته تسلب منه، والحرية هي الوطن، والوطن هو الحرية.

• وكان الأستاذ الإمام يرى تشكيل حكومة ديمقراطية في مصر، تسمح للشعب بالتعبير عن آرائه السياسية. وكان يرى أن القانون الذى تم تشريعه من خلال مجلس شورى القوانين، هو قانون عادل، لأنه قد شرع من خلال الأعضاء الذين اختارهم الشعب ليمثلوه؛ ولأن كل فرد منهم كان على علم به.

إن وحدة الشعب هي أساس الحكومة الديمقراطية، من أجل الصالح العام للشعب كله. ولا مانع أن يكون الحاكم في تلك الحكومة "ديكتاتورا عادلاً" للأسباب الآتية :

أ – هذا الحاكم هو الذى يجبر من فقدوا أنفسهم وذواتهم على إعادة اكتشاف أنفسهم.

ب – وهو الذى يجمع أفراد العائلة كلهم على المودة، ويكون ذلك مدعاة للتسامح مع الجار.

ج – وهو الذى يجبر الشعب على التعرف على رأيه من خلال مصالحه.

د – وهو الذى يستطيع توفير غذاء الحرية للشعب.

• وفيما يتعلق باختيار الحاكم عموماً ، يرى محمد عبده أن اختياره يجب أن يقوم على القانون الطبيعي، أو المنهج الإلهي. ذلك أن الذى يقوم على إدارة شئون الدولة يجب أن يكون أحد اثنين :

- إما أن يكون رجلاً مرتبطاً بالدولة والشعب بروابط العِرْق ويسري في عروقه الدم المشترك.
- وإما أن يكون رجلاً يرتبط مع الشعب بروابط دينية، وهي أواصر قوية تكاد تكون مثل صلات العرق، بل ربما تفوقها أيضاً.

فالرجل الأول : قد وُلد بمشاعر الوطنية والتماسك والزهو بوطنه، كما أنه يراعي صلته بالشعب، وصلات أفراد الشعب ببعضه

البعض، فهما عنده شئ واحد، لا انفصام لهما. ولذا فهو يحمى إخوانه في الدم، ويدافع عنهم مثل دفاعه عن أسرته هو. إذن فهو يتبع القانون الطبيعي، وهو بمقتضى ذلك شريك لأمته في السرّاء والضرّاء.

والرجل الثاني: هو الذى يحكم الأمة من خلال صلة الشعب بالدين الإسلامى، وإن مشاعره ليست بأقل من اليقظة والطموح في تحقيق مصالح الدولة وحمايتها في المقام الأول.

ونحن نرى أن الرجل الثاني هنا، هو الذى يتناسب مع منهج الإسلام، ونختلف مع الإمام في رأيه نحو الحاكم الطبيعي، لأن الإسلام هو أفضل الروابط، لكن بشرط أن يهتم الحاكم بأمور رعيته وحرية البلد الذى تحمّل أمانة الحكم فيه.

• ومن أعظم ما ذهب إليه الإمام محمد عبده، مطالبة الحاكم بالعدالة التامة، وكفالة الحرية لكل فرد من أفراد الأمة، والقضاء على الاستبداد والفوضى، بما يتيح الفرصة أمام بناء حكومة ديمقراطية، وهى الشكل السياسي الوحيد الذى يمكنه التوافق مع الطبع البشرى. وهذا الرأي صواب إلى حد بعيد، وإن كنا نرى أن تسمى مثل تلك الحكومة بـ"الحكومة الإسلامية" أو : "حكومة الشورى" حتى لا نقلد الغرب في تلك التسمية.

• وعموماً فإن الحكومة في الإسلام، تقوم على الشورى في الحكم، وعندما تكون كذلك فإنها تصبح مطلباً ضرورياً، بل واجباً، وعلى كل من الحكام والمحكومين الوفاء به، وهذا يتفق مع حكمة التشريع.

ويرى الإمام أن الحكمة تفرض على الحاكم تشكيل حكومة ديمقراطية؛ لأن الإنسان محاط بميوله الخاصة ومصالحة الخاصة؛ التي تحقق له الاطمئنان على كافة المستويات، وربما وصلت تلك الميول والمصالح الشخصية في حالة الحاكم، إلى أقصى مدى لها على أساس السيادة التي يتمتع بها، ولابد له من تحجيم تلك الميول، وخير ما يعين على ذلك هو الآراء التي تسود الشعب، وهذه الآراء السائدة هي التي تُحد من موقف الحاكم نحو فرض

ميوله ومصالحه الشخصية؛ لأن الحاكم مهما بلغت مواهبه، لا يستطيع أن يدير شئون الأمة بمفرده على خير وجه.

إن المطالبة بتشكيل حكومة ديمقراطية – كما يسميها الإمام – لتمثل واجباً بالنسبة إلى الأمة؛ لأن الأمة سلمت إلى الحاكم مقاليد إدارتها. وهى لا تود أن تتخبط خلفه في الظلمات كالأعمى؛ لذا ينبغي عليها أن تعينه وتمده بالمشورة والمساندة في ظل الأعباء الملقاة عليه، فهي علاقة الشراكة الحق، وليست الشراكة الاحتيالية التي لا تليق بالطرفين.

• ويحاول الإمام محمد عبده أن يزيل اللبس والغموض عن مفهوم الحكومة الديمقراطية؛ فيذهب إلى أنها واجب وطني ، يستلهم مثاله من سيرة الخليفة عمر بن الخطاب، وسياسته مع الحكومة فقد قال :

"أيها الناس من رأى منكم فيّ اعوجاجاً فليقوّمه"

إذ إنه ليس معنى تقويم الاعوجاج في هذا، إلا التنبيه على الحق، والإرشاد إلى الطريق المستقيم : فما يدل على وجوب التشاور على الحاكم هو طلب عمر ﷺ عنه تقويم اعوجاجه، وما يدل على وجوبه على المحكوم هو قول الصحابي:

"والله لو وجدنا فيك عوجاً لقومناه بسيوفنا"

فقال عمر:

"الحمد لله الذي جعل في المسلمين من يُقوّم عوج عمر بسيفه؛ فإنه لا يجوز استعمال القوة ، إلا بعد الإعذار بالإرشاد والهدى".

• لقد صارت أعمال الخلفاء الأربعة الراشدين ذات قيمة موجهة، وكأنها قوانين أساسية في الإسلام، وإن لم تكن إحدى فرائضه.

• ويرى محمد عبده- رحمه الله تعالى - أن الحوار السابق مع عَمر، يعبّر عن اليقظة، وإدارة شئون العباد في الاتجاه السليم. وقد استنتج من ذلك، أن تمثيل الشعب من خلال مجلس الشورى يؤيده الدين الإسلامي؛ لأنه التزام شرعي سواء من الحاكم أو من الأمة.

• أما مطالبة عمر لجمهور المسلمين، بأن يُقوّموه في حالة الخطأ؛ فقد اعتبره محمد عبده إشارة إلى التزام الحاكم المسلم بتأسيس حكومة شورية أو حكومة برلمانية. مع مراعاة الفارق الزمني بين المجالس قديماً وحديثاً، إذ إن المجالس الشورية الحديثة قد يراد بها شيء آخر.

• وإن الحياة الشورية أو النيابية، تتطلب سن القوانين لمصلحة الأمة، ويجب ملاءمة هذه القوانين تبعاً لحال الناس ووقتهم، مع عدم الخروج على أصول الشرع بطبيعة الحال.

• وهو يرى أن البلاد تختلف باختلاف المواقع، وتَبَايُن أحوال التجارة والزراعة. وكذلك فإن سكانها يختلفون في العوائد والأخلاق والمعتقدات وغير ذلك. فربّ قانون يلائم مصالح قوم فيعود عليهم بالنفع، ولا يلائم مصالح آخرين فيؤدى إلى العكس تماماً، والقاعدة هي المصلحة، فأينما وجدت المصلحة فثَمّ شرعُ الله.

{د. محمد البهي : الإمام محمد عبده. ص ٧٧ – ٩٦}

ثالثاً : الإصلاح الديني :

من المسلّم به أن الفكر الإسلامى قد تطوّر مع مرور الوقت، وأصبحت موضوعاته قابلة للنقاش الضروري، من أجل ما طرأ على الساحة في مجال السياسة والاقتصاد والاجتماع.

وربما حدث النقاش من أجل الدفاع عن الإسلام ضد هجوم تعرض له، أو من أجل اختبار إعجازه، أو من أجل توضيحه أو مقارنته مع الملل الأخرى، فبضدها تتميز الأشياء.

ناهيك عما نتج من كتب ورسائل ، بسبب تلك المناقشات، ولاسيما كتب المنطق والجدل. ومع التسليم بقيمة تلك المؤلفات، فإن بعضها كان يثير الجدل والحيرة، ولاسيما أن اللغة العربية التي كتبت بها تلك الكتب اختلفت كثيراً عن سابق عهدها في المصنفات القديمة.

وقد اقتضت الظروف دوران معظم تلك الكتب، حول الشرح والتلخيص والرد والتقليد لكتب السلف، وحدث أن تجمّد الفكر لدى الناشئين.

ولعل هذا هو السبب الذى جعل الشيخ محمد عبده، في مجال الإصلاح الديني، يتبنى أسلوب التحليل و نقد التراث التعليمي، والحكمة في ذلك ما يلي:

١- الرجوع إلى مبادئ الحلول، التي طرحت في صدر الإسلام للمشكلات الدينية والاقتصادية والسياسية، أي منذ عصر النبي ﷺ وعصر الخلفاء الأربعة الراشدين. وتلك العودة يقصد بها صلاحية تلك المبادئ لحل العديد من المشكلات المعاصرة.

٢- وجوب البعد عن التقليد، والرجوع إلى البحث الحرّ؛ لكي يتم حل المشكلات الدينية والسياسية والاقتصادية الجديدة، من خلال المبادئ الأساسية للدين، حسبما تقتضى ظروف العصر، والتى تتفق مع القرآن الكريم والسنة النبوية، وتراث الخلفاء الراشدين.

• لقد ارتفع صوت الإمام محمد عبده فيما يتعلق بالعودة إلى الإسلام الأول في مصدريه الكتاب والسنة، فهو يقول:
"ألم يأن لنا أن نرجع إلى المعروف مما كان عليه سلفنا، فنحيا بما كان قد أحياهم، ونترك ما ابتدعه أخلافهم مما أماتهم وأماتنا معهم"

{محمد رشيد رضا: تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده، ١ : ٤٨١ القاهرة ١٩٣١م}

• ويجب على البشر الرجوع في كل قراراتهم إلى القرآن الكريم، فإذا لم يمكنهم ذلك فليسألوا العلماء الذين يثقون في علمهم. وليس الرجوع إلى كتب الأفراد المعروفة، بأمر مأمون من الخطأ. ثم يوصي الإمام بمكافحة التقليد، ثم الالتزام بالحق، وهذا يستلزم أيضاً أن يكون هناك منهج نقدي سليم.

• ولكن ما الذي يجب اتخاذه للقضاء على آفة التقليد؟
يرى الإمام أن استعمال الفكر والبصيرة في الدين، يحتاج إلى الشجاعة وقوة القلب. كذلك يجب أن يكون طالب الحق صابراً ثابتاً لا تزعزعه المخاوف؛ لأن الخوف من الضلال هو عين الضلال، ولم نسمع بشجاع في فكره ضل دون أن يظفر بمطلوبه.

وهذه النظرية تستلزم إحداث تغيير جدري في مناهج التعليم والتفكير، ولاسيما في مسائل العقيدة. وذهب تبعاً لذلك إلى الدعوة لإصلاح الأزهر.

فلقد كان الأزهر في عهد محمد على، هو أكبر مؤسسة تعليمية في العالم الإسلامي؛ لأنه حافظ على التقليد النقلي عن السلف، من خلال مناهج التدريس من ناحية، أو من خلال الدفاع عن التقليد. وقد اكتسب معلمو الأزهر من خلال قدراتهم الدينية سيادة كبيرة على الشعب، فلو أن مؤسسة أخرى أنشئت إلى جوارها، لم يكن لها هذا الدور أو التأثير الذى يقوم به الأزهر.

• ولذلك حاول محمد عبده الاستفادة من سمعة الأزهر ومكانته، ورأى أن:
"إصلاح الأزهر أعظم خدمة للإسلام؛ فإن إصلاحه إصلاح لجميع المسلمين، وفساده فساد لهم".

{تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٤٢٥}

• وكان الإمام يتقدم باقتراحاته للخديوي عباس الثاني، لكن التدخل الإنجليزي السافر كان بالمرصاد دائماً ضد الاقتراحات الإصلاحية.

• وكان إصلاح المحاكم الشرعية: من ضمن برنامج الإصلاح الديني بعد الأزهر، وقد اهتمت تلك المحاكم الشرعية بتنظيم علاقات الرجل والمرأة، والأب وأبنائه، ورؤية الهلال لتحديد بدايات ونهايات الشهور العربية. وكان من حق القاضي أن يستفسر عن أدق تفاصيل الحياة الزوجية، ويصدر الحكم بناء على ذلك، مع ملاحظة أن تلك المحاكم كانت مستودع الأسرار.

إن إصلاح المحاكم كان آنذاك هو الضمان الذى يكفل النظام والحفاظ على التماسك في داخل الأسرة، وليس الشعب إلا مجموعة من الأسر.

• ومن الأمور التي رأى الإمام أنها تحتاج إلى إصلاح في المحاكم الشرعية: تمسك القضاة بالأعراف، والتي يعدّونها بمثابة القوانين الدينية، بالرغم من أنها لم تنشأ عن الدين، كما أن القضاة يتبعون قواعد قضائية وتجارب سابقة، لا تتناسب مع الظروف الراهنة.

• كذلك كان إصلاح وظيفة الوعظ والإرشاد: من أهداف دعوة الإصلاح لدى محمد عبده؛ لأنهما من الوظائف الهامة والمؤثرة جداً، حيث يمسّان جماهير الشعب، ويشكلان عقله وروحه.

وذهب الإمام إلى أنه يجب على الوعاظ والدعاة، أن يلمّوا إلماماً عميقاً بأمور الدين، وأن يكونوا من المؤهلين تربوياً من أجل تنوير جماهير الأمة؛ لأن أهم واجباتهم هو البناء الأخلاقي والتنوير المعرفي للطلاب في المدارس، ولمن لديهم رغبة في المعرفة، ولكنهم لم يتمكنوا من الالتحاق بالمدارس لأسباب خاصة.

• وأشار الشيخ محمد عبده، إلى أن غالبية الشعب في القرى، ومن البدو، والمتنقلين داخل حدود الدولة العثمانية، لا يرون ضرورة في تربية وتهذيب أبنائهم؛ لأنهم يشغلونهم بالحياة العملية منذ نشأتهم. ومثلهم أيضاً الجماهير العريضة من الشعب التي تجاوزت سن التعليم المدرسي.

لكنّ هؤلاء وأولئك أعضاء في جسم الأمة، وعليهم في نفس الوقت واجبات يجب عليهم القيام بها؛ إذن يجب الأخذ بعين الاعتبار كيف نستطيع توجيههم روحياً، بحيث يتحولون إلى أعضاء في جسم الأمة ذوى نفع لها.

ويقتضى هذا أن يكون الوعظ بمثابة التعليم المدرسيّ من أجل تنوير الجماهير، دون أن يقتصر على الجانب الروحي الضيّق الذى يعتمد على الزهد في الدنيا.

• **وعلى الداعية أن يستخدم وسيلتين في ذلك:**
مرة من خلال الدرس، ومرة من خلال خطبة الجمعة. مع مراعاة عدم التركيز على أمور الآخرة وحدها، بل يجب بحث أمور الاجتماع والاقتصاد والسياسة المعاصرة، لكن مع التقيد بأحكام الشرع.

ويرى الإمام أن خطبة الجمعة تعتبر بديلاً عن المعارف الأساسية للمسلم طوال أيام الأسبوع؛ ولذا بات من الواجب التدقيق في اختيار موضوع هذه الخطبة، حيث تمسّ المواقف التي تشغل جموع المصلين في حياتهم اليومية، مع توضيح أهم مواقف الانحراف والفساد. وهذا هو التنوير الواجب من أجل تربية الجماهير.

• ومما يساعد على هذا التنوير الديني، التركيز أيضاً على إصلاح إدارة الأوقاف التي تأسست من أجل غاية واحدة، وهى تنوير جماهير الشعب. وقد انتقد محمد عبده هذه الإدارة؛ نظراً لانشغالها بإنشاء المساجد واكتساب أراض جديدة إلى حيازتها؛ مما شغلها عن الهدف التربوي الديني.

• ومما يكمل الإصلاح الديني، كما يرى الإمام محمد عبده، العناية بإصلاح اللغة العربية، أو ليست هي لغة القرآن الكريم؟!. ومن أهم مظاهر مطالبته بإصلاح اللغة العربية ما يلي :

١- العناية بالقرآن الكريم: ولابدّ أن يؤخذ من أقرب وجوهه على ما ترشد إليه أساليب اللغة العربية؛ كي يستجاب لدعوته، كما استجاب رعاة الغنم وساقة الإبل، ممن أنزل القرآن الكريم بلغتهم.
٢- جعل اللغة العربية لغة مفهومة وميسرة، بعيداً عن أساليب التعقيد التي اتسمت بها مصطلحات الكتب الإسلامية القديمة. ولابدّ من

تأليف كتب في الدين والعلوم بأسلوب مبسط ميسر، سواء في المدارس، أم في الجامعة، أم في أسلوب الصحافة.

٣- اهتم الإمام بإصلاح جامعة الأزهر؛ لأنها تدّرس اللغة العربية، ولاسيما مكتبتها التي حولها إلى مكتبة جديدة منظمة بشكل علمي.

٤- أنشأ جمعية إحياء العلوم العربية عام ١٩٠٠م، ثم أصبح رئيسها المنتخب، وبقى في هذا المنصب حتى وفاته. وقد كان لهذه الجمعية دور كبير في البحث عن الكتب القديمة والعناية بطبعها من جديد.

٥- تعديل قانون الصحافة وفق اقتراح الإمام، بحيث أدى هذا إلى تغييرات إيجابية وهامة في أسلوب التقارير والمراسلات الصحفية، مما ساهم في نهضة المستوى اللغوي، كما نشأ بين الناس نوع من العلاقة التي أعانت على الوحدة اللغوية.

{د. محمد البهي : الإمام محمد عبده. ص ٩٧ وما بعدها}

رابعاً : الإصلاح الفلسفي :

• لقد تصّوف الشيخ محمد عبده، هذا المصلح العظيم، زمناً فى صباه، ولكنه لم يبتعد عن طريق المتصوفة إلى ختام حياته .

• وقد درس محمد عبده حكمة الفلاسفة النظريين، كما درس مذاهب المتكلمين والفقهاء. ولكنه لم يكن قط من "أهل الظاهر"، الذين يتعلقون بالشكل ويدينون بالتقليد.

• ولا يمكن نسبته إلى " أهل الباطن أو الدروشة " مع أنه درس التصوف ومارسه، لكن أهل الباطن يرفضون الظاهر وينقطعون عن الواقع والحياة وشواغل المعيشة:

" إنما كان رفضه للظاهر رفضاً للقشور وألوان الطلاء. وكان بَحثه عن الباطن بحثاً عن حقيقة المعنى الصحيح من وراء اللفظ السقيم ".

{ عباس محمود العقاد: عبقريّ الإصلاح والتعليم الأستاذ الإمام محمد عبده. ص ٢٣٦. " سلسلة أعلام العرب.- ١ ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي بمصر. دون تاريخ "}.

• إن محمد عبده كان واقعياً عملياً، يبحث عن صميم الواقع الذى خلص من التمويه، والذي يصلح للعمل النافع. وكان يحب الاقتراب من وسائل العمل؛ كي يبتعد عن ظاهر الطلاء والتمويه فيما يتداوله الناس من الأباطيل.

• وبذلك كان الإمام فيلسوفاً مصلحاً بكل معاني الفلسفة والإصلاح. فهو فيلسوف حين تكون الفلسفة بحثاً عن سر الوجود، ورأيا فى كليات الحقائق، وحكمة يروض بها الحكيم نفسه على الغاية التى يسعى إليها. وهو مصلح حين يتصل إصلاحه بالتفكير، كما يتصل بالعمل.

• لقد كان المفكرون فى عصره يفسّرون الفلسفة على وجوه مختلفة لا تطابق معناها. فقد ذهب بعضهم إلى القول بأن الفيلسوف هو الذي يتقن جميع العلوم. ولما سمعها محمد عبده قال: إذن لا يوجد على الأرض فيلسوف. ثم حدد مفهوم كلمة " فيلسوف" بأنه:

"هو الذى له رأى ومذهب في العقليات والاجتماعيات، يمكنه الاستدلال عليه، والدفاع عنه " . { العقاد : عبقري الإصلاح والتعليم .ص ٢٣٨ }

• فكان لمحمد عبده مذهب فلسفي مستقل، فى موضوع الفلسفة العامة، وهو البحث عن الوجود، أو البحث عما وراء الطبيعة. وله مع هذا فلسفة خاصة فى سائر الاجتماعيات والعقليات ومنها: فلسفة الأدب والفن، وفلسفة اللغة والبيان وغير ذلك.

• وتعتبر فلسفته فيما وراء الطبيعة- أو الميتافيزيقا- فلسفة متصوف اطلع إلى آراء الفلاسفة، ولاسيما تلك الآراء التى دار عليها البحث بين المتكلمين، وخصوصاً المعتزلة، وبين فلاسفة الإسلام من أمثال الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد.

• كذلك أتيح له الاطلاع على أقوال الغرب. فى العصور المتأخرة، إطلاعاً يمكنه من الجمع بينها وبين نظائرها من أقوال المتقدمين .

{ د.محمد عمارة: الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده. ٣ : ٤٩٢ .- ط ١٩٧٢ الدار العربية للدراسات والنشر، بيروت}

• لقد كان محمد عبده متفقا مع الفلاسفة والمعتزلة والصوفية، فى تحكيم العقل والقياس. ولكن كان له استقلاله الفكري عنهم:

- فهو يخالف رأى الفلاسفة فى فهم معنى "الوجود" ومعنى "العلم" بالنسبة للحقيقة الإلهية.

- كما يخالف رأى المعتزلة في جدلهم العقيم حول مسألة الصفات، وما تورطوا فيه من القول بخلق القرآن .

- وإذا كان يتفق مع الصوفية فى رياضتهم النفسية والفكرية ، فإنه يرى أن " إلهام الصوفي " إنما هو "ذوق خاص" ووجداني ، لا يجوز له أن يدين به سواه.

{الأعمال الكاملة ٣ : ٥٢٢ ، ٥٣٠}

• إن من أراد أن يطلع على آراء الإمام فى " الفلسفة الإلهية "، فعليه أن يقرأ تعليقاته ومناقشاته على العقائد العضدية، فهي تضم المسائل التى تقوم عليها فلسفة ما وراء الطبيعة عند الفلاسفة المعاصرين .

• وأيسر من هذه الحاشية رسالته القيمة فى " التوحيد " وتفسيره للقرآن الكريم فى الجامع الأزهر، ففيهما بيان جليّ، وبعد عن الغموض الذى وقع فى كتب الأقدمين.

• وإن الذى يفصل بين فلسفة الإمام وفلسفة المعتزلة والمتكلمين والفلاسفة، هو قدرته على حسم الجدل العقيم بالرجوع إلى حكم العقل السليم، أو هو القدرة العملية على حلّ المشكلات العقلية .

• وكانت آراؤه أقرب ما تكون إلى آراء حجة الإسلام أبى حامد الغزالي، فليس بينه وبينه من خلاف يذكر، إلا كان على الأكثر اختلافا فى الدرجة دون الجوهر. ومن أمثلة ذلك أن الإمام محمد عبده، لا يشتد على الفلاسفة اشتداد حجة الإسلام عليهم، ولا يقول بالتكفير، ما دامت هناك فرصة للتأويل، ولو كان فيه صعوبة ما .

• وبالرغم من قراءة الشيخ لفلسفة اليونان ، فإنه لم يتابعهم، خصوصاً فى الإلهيات.

مثال هذا : أرسطو يرى أن " الإله " هو المحرك الأول. أما محمد عبده فهو يرى طبقاً للعقيدة الإسلامية أن الإله هو " الوجود الكامل " ، وكل ما

عداه من المخلوقات فهو وجود ناقص محدود . وعليه فإن العالم حادث، والله تعالى هو الذى أحدثه من العدم بقدرته، وأن نهاية القول فى العالم كله: أنه وجود مخلوق ، أو وجود محدود.

• وقد تحدث الإمام عن العقل : فذهب إلى أن غاية كمال العقل الإنساني، إنما هي الوصول إلى معرفة عوارض بعض الكائنات التى تقع تحت الإدراك الإنسانيّ : حساً كان أو وجدانا أو تعقلا ، ثم التوصل بذلك إلى معرفة بداياتها ومناشئها ، مع تحصيل كليات لأنواعها ، والإحاطة بعض القواعد لعروض ما يعرض لها .

• كذلك يرى الإمام محمد عبده ، أن وصول العقل إلى كنه حقيقة ما ، هو مما لا تبلغه قوته ؛ لأن اكتناه المركبات إنما هو باكتناه ما تركبت منه ، وذلك ينتهي إلى البسيط الصرف ، وهو ما لا يمكن اكتناهه بالضرورة ، وأقصى ما يمكن معرفته منه هو عوارضه وآثاره .

• وإن الإنسان يمكنه أن يستعين بعقله ، على كل معرفة تنفعه فى مصالحه الدنيوية . لكن علم الإنسان بقصور عقله يلهمه تفويض الإيمان بمسائل الغيب وأحكام الشرع، إلى الدين .

مثال هذا :

• شعائر الفروض، وأعداد الركعات فى صلوات العبادة ومقادير الزكاة وغيرها؛ فكل أولئك يتقبله العقل ؛ لأنه ضروري على صورة من الصور، وليس له أن يرفض شيئاً من ذلك على صورة دون أخرى .

• ولم يذهب هذا المصلح يوماً إلى أن الفلسفة عموماً ، أو الفلسفة الإلهية خصوصاً ، تحل جميع المشكلات وتفسّر جميع الغوامض ، وتفصل فى جميع القضايا. لكن الذى كان يعنيه منها أنها تبطل الحيرة من الناحية العملية ، فلا تشغل العقل بما لا داعي للحيرة فيه .

• إن الوجود الإلهي لا يحده زمان ؛ لأنه يخلق الزمان فلا داعي إذن للحيرة في القول بقدم العالم أو حدوثه؛ لأن الله ﷻ قادر على أن يخلقه مع الزمان، خصوصا أن الزمان ناتج عن حركة الكون .

• <u>وفيما يتصل بالقضاء والقدر</u> : يرى الإمام أن القدَر على أي معنى من معانيه لا يلغي إرادة الإنسان كما ينبغي أن تكون إرادة المخلوق المحدود. وهو أيضا لا يلغي الجزاء، وأن العلم السابق بالثواب والعقاب لا يلغي بطلان الإرادة النفسية؛ لأن الإنسان يريد عامداً ما يعلم أنه معاقب عليه. فلماذا إذن الخلاف الشديد حول مسألة القضاء والقدر ؟ فإذا وجد أي خلاف بعد ما ذُكر فى هذا الموضوع فإن العقل السليم يقضى بالتفويض فيه إلى الله تعالى؛ لأن محاولة فهمه أو التسليم فيه للغيب سواء .

{ الاعمال الكاملة للإمام محمد عبده ٣ : ٤٨١}

• والحاصل أن فلسفة الإمام ترشد إلى أن المفيد هو أن تعمل ما لابد من عمله؛ فلا داعي لإضاعة الوقت والعقل فى أمر هو تحصيل حاصل، ولا ضرورة لخلاف يتساوى فيه طرفا الخلاف، وإن ترك الحيرة أولى من الحيرة. يقول الأستاذ العقاد عن موقف الإمام هنا :

" <u>وإن مسلكه هذا مع الفلاسفة والمفكرين لقريب جداً من مسلكه مع الساسة والأمراء: الإصلاحُ بدونهم خير من انتظار الإصلاح معهم، على غير جدوى</u> ".

{عبقري الإصلاح والتعليم ص ٢٤٥}

• ولم تكن آراء الأستاذ محمد عبده فى الفلسفة وعلم الكلام مبنية على جهل أو ادعاء؛ فإن الواضح من تعليقاته على العقائد العضدية، أنه تتبع مذاهب الفرق فى أمهات مراجعها، وأحاط باللباب الجوهري من أقوالهم .

• ولم يكن من أهداف محمد عبده، أن ينشيء لنفسه مذهبا خاصا فى المسائل الإلهية؛ لأن آراءه كانت غالبا محكومة بصريح الشرع، لكنه كان يحرص على إبداء رأيه فى كل مسألة من هذه المسائل، مبسوطة فى تعليقاته على أقوال الفلاسفة أو المعتزلة أو المتكلمين أو المتصوفة، سواء وافق كل طائفة منهم أو خالفها، غير أنه كان مستقلا عنها جميعا بمنهجه المتميز فى الفهم والتحقيق، والمطبوع بطابع الفكرة الصالحة للتعليم والإفادة بالتربية والهداية .

• وربما اتفق مع الفلاسفة الإلهيين فى مسألة "الوجود الإلهي"، ولكنه لا يقف مثلهم بالقدرة الإلهية عند استحالة الخلق من العدم؛ لأن الوجود الإلهي فى عقيدة الإمام لا يستحيل عليه أن يسبغ نعمة الوجود على خلقه؛ فليس الخلق من العدم بالمستحيل، بل المستحيل هو العدم نفسه مع وجود الخالق المريد الفعّال لما يريد .

• ولا تكفير عند الإمام لمن قال بقدم العالم، وهو يؤمن بأن الله هو الفاعل لما أراده من خلقه، ولعله فى ذلك يتفق مع رأى ابن رشد حين وفق بين القائلين بقدم العالم وبين القائلين بحدوثه .

• وحجة الإمام في ذلك، أن إرادة الله قديمة لا ندري كنه عملها السرمدي خارج الزمان، وكان الواجب فى مسألة "وجود العالم"، أن نؤمن بأن له موجداً كما شاء؛ فلا يُكَفَّر من قال إن الله أوجد العالم فى القدم، وإن يكن مخطئاً فى التفكير. هذا مع أن الإمام يؤمن بحدوث العالم وقد برهن هو على هذا الحدوث .

{ الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ٣ : ٢٨٣ }

• وإذا كان الشيخ يوافق المعتزلة فى تحكيم العقل والاستهداء به إلى هدى الدين، فإنه لا يرى رأيهم فى الاستغناء بالعقل وحده؛ لأنه يجب التفريق بين مطابقة الدين للعقل، وبين الاكتفاء بالعقل فى المسائل النظرية والشرعية. ومادام العقل يعلم أنه لا ينفذ إلى كنه الأشياء؛ فلا مفر له من التسليم بنصيب الشرع من الهداية.

• ولا يختلف الإمام مع أهل الكلام فى الإفادة من القضايا المنطقية، لكنه يأخذ على غُلاتهم أن استخدام المنطق يذهب بهم إلى السفسطة أحياناً، ويدفع بهم إلى خلق مشكلات بينهم وبين الفلاسفة أو المعتزلة، دون داع لذلك .

• وإن التصوف عند الإمام رياضة خلقية على هدى الرياضة العقلية، ولكنه يرى لهذه الرياضة جانباً غير الجانب الحسّي من الحياة الدنيوية يسميه "الذوق". ولا مانع لصاحب هذا التصوف أن يروض عليه ضميره ووجدانه؛ بشرط ألا يدين به أحداً من المقيدين بالحياة الطبيعية أو الحياة

الحسّية؛ لأن الأمر فى الحياة مرهون بما يستقيم عليه صلاح الجماعة، لا الخواص .

• ومما سبق يتضح أن مذاهب الأستاذ الإمام محمد عبده هو مذهب "مصلح إسلامي مفكر"، حيث أعطى التفكير النظري كل حقه، ولكنه أخذ منه حق العمل على الإصلاح الرشيد المستنير؛ مما يجعله جديراً باسم "فيلسوف".

• وقد لقي مذهبه هذا أنصاراً وتلاميذ من مصر ومن خارجها، دافعوا عنه، وعملوا به، وتعرضوا لما تعرض له الإمام من شدائد ومحن. ولكن هؤلاء التلاميذ كانوا فئة معدودة، تحسب بالآحاد فى كل أمة من أمم العالم الإسلامي .

• ولما تسامع المسلمون فى الهند بانقطاع الإمام عن إدارة الأزهر، وشاع بينهم أنه سيهجر التدريس، وقع منهم النبأ موقع الهول، وكتب بعضهم باللوم للخديو وشيعته، وبالنعي لرسالة الإصلاح فى العالم الإسلامي. وكذلك كان لهذا النبأ صدى مماثل فى البلاد العربية ناهيك عن البلدان المصرية .

❁ ❁ ❁

• إن الفيلسوف المصلح، لا تقتصر فلسفته على العقليات والإلهيات، أو على فلسفة ما وراء الطبيعة "الميتافيزيقا" لكن لابد أن يكون له "فلسفة اجتماعية" في إصلاح المجتمع .

• وقد كان لمحمد عبده مثل تلك الفلسفة الاجتماعية بالإضافة إلى ما سواها. وهى واضحة من خلال مطوّلاته ومختصراته. ولكن يمكن تسميتها "فلسفة أخلاقية" أيضاً؛ نظراً للروابط القوية بين النوعين .

• وكان الشيخ يؤمن دائما بأثر الفاقة والثروة معاً على ضمائر الناس من الرجال والنساء. وأن العفّة ثوب تمزّقه الفاقة، كما أن الثروة بغير عمل مفسدة .

• وعناصر الكيان الاجتماعي عنده سبعة : هي الدين والعدل والأدب والعلم والتجارة والصناعة والسلاح. وكان يعتبر أن الجهل فقر أشد على الناس من فقر المال، ولاسيما جهل النساء فإنه أخطر الأنواع .

{ الأعمال الكاملة ٣ : ٤٢ }

• وكان يوصى بالعامة وبعدم الانفصال عنهم، ومن المقولات الباطلة "لا شأن لنا بالعامة" حتى ولو صدرت ممن يسمون أنفسهم بـ " العارفين " .

• والعلم فى رأى الأستاذ الإمام أحد مصادر الثروة والقوة والمعرفة الذهنية. ولكن التربية الأخلاقية شئ آخر غير المعرفة الذهنية، ولاسيما المعرفة التى ينتج عنها الإيمان بالمادة وحدها، وهو ما يسمى بـ " الفلسفة المادية " وهى التى أعادت الغرب إلى القهقرى؛ لأنها أفسدت أخلاق سلفهم وخلفهم.

❁❁❁

• ومن سعة أفق الشيخ محمد عبده ما تحدث به عن فلسفة الفنون الجميلة. فقد كتب كثيرا ليحبب الناس فى هذه الفنون، فى الوقت الذى كانت الفتاوى تترى عن تحريم النحت والتصوير :

• وترتب على ذلك التحريم أن خلا الشرق العربي كله من مدرسة واحده لهذه الفنون، بل قلّت العناية بها فى الصحف السيّارة وكان الإمام محمد عبده يذكر للناس أن هذه الفنون رائجة لدى الغربيين، وأنها عندهم كالشّعر عندنا، وأنها كذلك لغة نفسية؛ فإن الرسم ضرب من الشعر الذي يُرَى ولا يُسْمَع، والشعر ضرب من الرسم الذى يُسْمَع ولا يُرَى.

• كذلك فإن كل الرسوم والتماثيل قد حفظت من أحوال الناس فى الشئون المختلفة، ومن أحوال الجماعات فى المواقع المتنوعة، ما تستحق أن تسمى به " ديوان الهيئات والأحوال البشرية ".

• وأنت حين تقول " رأيت أسداً " تريد رجلا شجاعا، فانظر إلى صورة أبى الهول بجانب الهرم الكبير تجد الأسد رجلا أو الرجل أسداً؛ وإن حفظ هذه الآثار حفظ للعلم فى الحقيقة .

• وقد يشتبه الأمر على البعض، حين يظن أن ذلك محرم شرعا، والجواب أن الراسم والنحات رسم ونحت وانتهى، وأن معنى العبادة وتعظيم التمثال أو الصورة قد محي من الأذهان .

• وتحدث الإمام عن حديث : " أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون " وغيره مما ورد فى الصحيح. فيذكر أن الذى يغلب على ظنه أن الحديث جاء في أيام الوثنية، وكانت الصورة تتخذ فى ذلك العهد لسببين :

• الأول : اللهو ، والثاني : التبرك بمثال من تُرْسَم صورته من الصالحين. والأول مما يبغضه الدين، والآخر مما جاء الإسلام لمحوه، والتمثال المصوَّر فى الحالين شاغل عن الله، أو ممهد للإشراك به .

• فإذا زال العارضان وقصدت الفائدة، كان تصوير الأشخاص بمنزلة تصوير النبات والشجر في المصنوعات، وقد صُنع ذلك فى حواشي المصاحف وأوائل السور، ولم يمنعه أحد من العلماء .

• وأما ما يقال من أن الصورة على كل حال مظنة العبادة، فيمكن أن يقال لصاحب الاعتراض: لسانك أيضا مظنة الكذب، فهل يجب ربطه مع أنه يجوز أن يصدق، كما يجوز أن يكذب؟! .

• لقد أفتى الإمام بذلك وهو فى أوربا، ولم يمارس قط هذه الفنون الجميلة، ولكنه يريد من المسلمين ألا يتوقفوا أمام تلك الأمور الصغيرة،لاسيما بعد أن أكرمهم الله بنور الإسلام.

• أما الفن الجميل الذي كان الإمام يمارسه حقاً، فهو فنّ البلاغة. فقد كان محمد عبده ناقدا بليغا، وهو يوقن أن اللغة مادة البلاغة ومجال التعبير؛ لذا كان شاغله الشاغل، هو إحياء اللغة العربية مادة وعلما ودراسة وكتابة .

{ الأعمال الكاملة ٣ : ١٤٦ ومابعدها}

• وكان يُعينُ جماعة "إحياء الكتب العربية" بعلمه ووقته وماله ونفوذه. وكان ذلك ينشر نماذج البلاغة السلفية، ويشرحها بقلمه، أو ينوّه بها فى دروسه وتفسيراته للقرآن الكريم، من أمثال : نهج البلاغة، ومقامات البديع، ودلائل الإعجاز، وغير ذلك. هذا غير عنايته بتشجيع من يطبعون كتاب المخصص لابن سيده، وهو نوع من المعجمات المبوبة على أساس المعاني والأغراض .

• وكان يرى بصفته ناقدا، فى مادة اللغة ،أنها تحصيل ملكة، لا تحصيل قواعد ومصطلحات؛ لأن دقائق البلاغة والفصاحة تُحْيي الفهم، أما ترك الاشتغال بها فهو " موت للحياة العقلية "؛ لأن الكلام البليغ سهل على الفطرة. ولا خير فى المبالغة، فإنما يأتي بها من كان مجازفاً فى رأيه، ومن شأن العقل السليم ألا يتعدى الصدق .

وربما توهم الناس أن مؤلفات الأستاذ الإمام فى مجالات الفلسفة كانت قليلة، لكن يجب مراعاة أن صاحبها رجل جمّ المشاغل والأعباء، توفى وهو يناهز الثامنة والخمسين، أو كما يقول الفيلسوف العقاد :

" فليست هذه المؤلفات، على وفاء الفلسفي منها فى بابه، إلا كالشعاع القوى الذى ينبثق عن الشمس، فيدل على ما احتجب منها، ولكنه يعطى الناظرين كل ما تعطيه الشموس من ضوء النهار، تتلقاه النوافذ، وتحول دونه الجدران " .

{ عبقري الإصلاح والتعليم ص٢٧٠ }

خامسا : إصلاح الإنسان:

• إن الإسلام ينظر إلى الإنسان مطلقا كما هو، وليس كما ينبغي أن يكون. ذلك أن الإنسان فى نهاية المطاف إنسان فقط، يتميز بالعقل والضعف والهوى .

وكما اهتم الإسلام بالفرد، اهتم بالجماعة أو بالدولة، دون فصل بين الدين والدولة. وحاكم الدولة هو المسئول عن كل المجالات وكل مناحي الحياة؛ لذا يجب أن يستند إلى الإسلام باعتباره مرجعية له؛ للتأكيد على سلطته .

وقد ذهب الإمام محمد عبده إلى أن الإسلام ترك أمام العقل البشرى كل الإمكانات مادام ينهج دروب الحكمة، ويدعه ينظر إلى الحياة ويتعرف عليها؛ لكي يكتشف بنفسه قيمة الحقائق المادية ويتوجه طواعية إلى الإيمان .

ويرى الإمام أن القرآن يأمر بالتأمل والنظر فى استخدام العقل للتدبر فى مظاهر الكون وما يمكن الحصول عليه من دقائق الطبيعة لاكتساب الحقيقة بواسطة العقل .

{محمد عبده : رسالة التوحيد ص ١٥ وما بعدها ، ١ ، ١٨٩٦م القاهرة}

وإذا كان التقليد خطأ يمكن التجاوز عنه فى عالم الحيوان، فإنه لا يمكن قبوله فى عالم الإنسان . ومن هنا كانت حكمة الإسلام حين توجه إلى عقل الإنسان فأيقظه من سباته. فالإنسان لم يُخلق لكي يخضع للقيد ولكنه خلق ليجد الطريق الصحيح عن طريق الإدراك والمعرفة والتجربة.

وقد أجاز الإسلام للعقل الحق في الاستقلالية وفي السلوك والإرادة والتفكير، وهى أسس كل حضارة وبحث عن الحقيقة، وينطبق هذا على المجالات الدينية والعلمية.

ويرى الإمام محمد عبده، أن الإنسان قادر على معرفة الأشياء ووضع قوانين لها. غير أن معرفته لم تنجح فى إدراك الوجود؛ ولكي يتم بحث الوجود يشترط المعرفة التامة بالجواهر البسيطة التى تتركب منها الأشياء، وتلك المعرفة ليست فى قدرة الفكر الإنساني .

وما يستطيع العقل بلوغه إنما هو إدراك بعض الأشياء العارضة، التي توجد في محيط حواسنا ومشاعرنا وتفكيرنا، وبذلك يمكن تفسير ظهورها العرضي .

غير أن إدراك الوجود في ذاته أمر يفوق الفكر البشرى؛ لأن هذا يتطلب إدراك الأشياء البسيطة مثل ماهية الضوء. فهذا الإدراك مستحيل بداهة، وكل ما فعله علماء الطبيعة أنهم توصلوا إلى عدة قوانين عن الضوء. غير أنهم لم يتوصلوا إلى معرفة جوهر الضوء نفسه، ولم يستطيعوا تعريفه حتى عهد الإمام. وقد فسروا الضوء كما تراه كل عين ويعرفه كل إنسان.

وأن الإنسان قد اهتم بوجود نفسه منذ قديم الزمن، بالرغم من أنها أقرب الأشياء إليه، لكنه لم يتمكن إلاّ من معرفة أن الإنسان كائن حيّ له إرادة وشعور، وهذا إدراك للعوارض والصفات لا غير.

وكان الإمام على حق، حين انتهى إلى أن الإنسان قاصر عن معرفته وتحديد الكائن الموجود المتسامي وهو الله تعالى.

وليست المعرفة البشرية سوى انطباع النفس الذى تكتسبه عن مظاهر العالم الخارجي. أما الجسد فهو- كما يرى محمد عبده - مظهر ممثل للعقل، تتحول عنده الانطباعات إلى تعبيرات يستقبلها من العالم الخارجي. أما الإرادة فهي الآمر للعقل، وربما بدت في شكل حركة للعقل.

فالشيء قد يظهر مرة في شكل نفس، ومرة في شكل إرادة، وثالثة في صورة تعبيرات للجسد، ومن أجل أن انطباعات النفس تنشأ عن أسباب ومثيرات خارجية؛ فإنها مختلفة دوما من فرد لآخر، وإن عاشا سوياً، فما يراه الفرد جميلاً، قد يجده الآخر قبيحاً، وهذا راجع إلى المكان والبيئة وتأثيرات الطبيعة والعادة.

• وعلى سبيل المثال، فإن معرفة الأديان الأخرى- لكي نفهم أسسها- لا يعتبر مثل الانتماء إليها. وهذا يعتبر قدرة بدون إرادة، أو معرفة بدون سلوك؛ ولذلك فإن القدرات والمعارف الخالية من الإرادة والسلوك تعتبر قليلة القيمة.

فإذا وُجد مثقف يهتم بالسياسة فقط، ولا يمكنه إدارة المصالح الدولة؛ فإن ذلك يعتبر بمثابة إقرار بجهله.

• لقد اعتبر محمد عبده الإنسان عالما صناعيا فيما يتعلق باكتساب العادات والصفات. لكنه يرى فيما يختص بالسلوك الإنساني، أن الإنسان في حد ذاته كائن حر؛ لأن ما يفعله الإنسان يحدث من خلال قوة إرادته، أما ما يحدث بغير إرادة منه فهو يرجع في نهاية المطاف إلى قوة العالم التي لها سيطرة على الجميع.

• وينبّه الإمام إلى أن الإنسان السليم في عقله وأحاسيسه، يشعر أنه "موجود"، دون أن يحتاج لمعرفة ذلك عن طريق معلم أو برهان، وهو أيضاً يشعر بداهة، أن فعله وسلوكه نابعاً من إرادته الحرة. وهو كذلك يفكر ويفحص النتائج بالعقل، ويقرر فعله بإرادته ويمضي قدما في تحقيقه.

• وإن من ينكر حرية الإنسان، فإنه مثل من ينكر الإيمان بالعقل الراقي؛ الذي يخاطبه به الله عز وجل من خلال الأوامر والنواهي، دون جبرية تفرض على الإنسان. فالحقيقة أنه عندما يسلك الإنسان مسلكا ما بحرية، فإنه يعبر عن صفاته الخاصة المخلوقة والمميزة له عن الحيوان .

{محمد عبده: رسالة التوحيد ص ٣٦ ، ٣٧}

• ويرى الشيخ محمد عبده، أن حرية الإنسان أمر عظيم، وهي التي تجعله عضوا في المجموع. لكن سلوك الفرد مع نفسه يكون بحريته هو، أما سلوكه مع المجموع أو الشعب فذلك خاضع لما طبع عليه المجموع من طبائع وغرائز ليس لأحد من خلق الله فيه اختيار، بل خلقه كخلق السموات والأرض.

ويمكن تلخيص ما سبق في أمرين :

الأول: أن الإسلام يترك لعقل الانسان الحرية، أمام كل ما يتعلق بالمسائل الإيمانية.

الثاني: أن الإسلام يهب الإنسان حرية السلوك، بالرغم من أن الإنسان يخضع لقوانين الطبيعة.

• ويعرض الإمام محمد عبده لسؤال يراود أذهان الناس بعد ما سبق وهو : مادام الإنسان يتصرف بحرية، ويختار عقيدته بحرية، فلماذا يحتاج إلى رسالة الأنبياء والمرسلين؟

والجواب: أن الدين عقيدة ورسالة كلف النبي أو الرسول بتبليغها سواء للفرد أو للإنسانية كلها من أجل المصلحة العامة للناس وعلى رأسها "النظام".

• فالإنسان كائن مفكر لا يقف فكره عند حدّ مُعَيَّن، ولابد تبعاً لذلك أن تختلف آراؤه ومواقفه بعضها عن بعض اختلافا كبيراً:

فتكون مرة صحيحة ومرة خاطئة، وتتسامى أحياناً، وتكون وضيعة أحيانا أخرى.

• إن فى خلق الإنسان أعجوبة: فقد ترتفع قدرة عقله وفكره إلى أقصى مدى من القوة، لكن عقله هذا قد يُلْقَى ضئيلاً وذليلاً، ويَهْوِى إلى أقصى درجات الخضوع والاستسلام عندما يواجهه شيء لا يعرف له أساساً ولا علة.

• لذلك فإن سلوك البشر يختلف بعضه عن بعض، فكلٌ يتصرف من منظوره هو، وعلى أساس مصلحته الشخصية، وينبع هذا من هيئته الجسمانية ومن جنسه وعشيرته وبيئته.

فلا غرابة أن تجد البشر جميعاً يميلون إلى الانحراف، مع ادعاء كل منهم أنه يفعل الصواب. ولذا فإن العقل البشرى ليس مؤهلاً بمفرده؛ لكي يحقق السعادة للبشر فى الحياة. فيحتاج هذا العقل إلى معين وهادٍ؛ لكي يقود قدراته عقليا وجسديا نحو الخير، وهذا المعين هو النبي أو الرسول.

{رسالة التوحيد. ص ٤٨-٥٠}

• لقد أثبت الواقع ، أن كل فرد فى هذه الحياة، يحتاج إلى إدراك أهمية التوجّه الجماعي المشترك المناسب، وأن حفاظه على ذاته يتوقف على حفظ ذات المجموع؛ حيث يتوحد المجموع فى قوة واحدة تخدمه، ويستطيع من خلالها الدفاع عن نفسه؛ ولذا وجب حب الفرد لمواطنيه، بعيداً عن الصراع

والانقسام وحب امتلاك الآخرين والسيطرة عليهم، ولا مرجع له فى ذلك، إلا التمسك بتعاليم الدين.
{د. محمد البهي: الإمام محمد عبده. ص ٥٥-٧٦}

• ويذهب الإمام إلى أن تعاليم الإسلام للإنسان، إنما هي بمثابة الحاسة التى لا غنى عنها، وهى بالنسبة للمجموع مساوية لعقل الفرد أو المرشد. وإن عقل الإنسان ليحتاج إلى الدين الذى هو بمثابة التوجيه العام له؛ كي يهتدى إلى طريق السعادة فى الدنيا. وهكذا يعتد الإسلام بالإنسان وعقله وصلته بمجتمعه.
{رسالة التوحيد. ص ٨١-٨٣}

• ثم تأتى المناسبة التى تسمح بطرح سؤال عن الدين والحضارة، وهو: إذا كانت الحضارة الإنسانية تقوم على العلم والفن: فهل يقف الدين حائلا أمام تقدمها، أم أن الدين يساعدها على التقدم والازدهار؟

والجواب: أن الإمام محمد عبده يتمسك بموقف لا يحيد عنه أبداً، وهو أن الدين والعلم والفن يتفق كل منهم، ويتم التعامل بينهم فى سلام.

ذلك أنه عندما يحرر الدينُ العقل الإنساني من قيود التقليد وقيود الاستسلام للعادة وسلطانها، فإنه يفتح أمام العقل أوسع أبواب العلم والطموح إلى المعرفة، وقد حدث هذا فعلا فى عصور الإسلام الأولى.

وما حدث من صدام فى نهاية العصر العباسي، بين الدين والفلسفة، فقد كان صداماً بين أتباع المذاهب الإسلامية، وليس صداماً بين الدين والفلسفة ذاتها، لأنها تطمح إلى الحقيقة،التي تربطها برباط وثيق مع الدين.
{رسالة التوحيد. ص ٥١ وما بعدها }

سادسا: إصلاح المرأة:

إن الأستاذ الإمام محمد عبده (١٨٤٩- ١٩٠٥م) هو بلا شك أحد رواد التنوير الإسلامى، الذين يُعْتَدّ بفكرهم ورأيهم. ولم يترك الإمام مشكلة صغيرة أو كبيرة طرحت على الساحة الإسلامية، إلا وألقى بدلوه فيها، بأسلوب علمي وأدبي وديني.

وكان موضوع "المرأة" من ضمن الموضوعات التى عالجها بفكره وقلمه. وأهم القضايا التي تعرض لها فى هذا الميدان ما يلي:

١. المساواة بين الرجل والمرأة:

• لقد قدّم الإمام رؤية جديدة فى هذه المسألة؛ حيث يرى أن المساواة التى قررها القرآن الكريم بين الرجل والمرأة، إنما هي ارتقاء وعودة بالمجتمع إلى الفطرة السليمة، التى جعلها الله ﷻ "ميثاقا غليظا" بين الجنسين.

• وعلى أساس هذا الميثاق تترك المرأة أهلها وذويها؛ لتضع نفسها فى ظل إنسان غريب وجديد، فتعطيه ما لم تعطه لأحدٍ من الأهل الذين ترعرعت بينهم .

• فالمساواة عودة إلى الفطرة، وقد أجمل القرآن الكريم الحديث عنها، فى قول الله ﷻ:

﴿ولهن مثلُ الذي عليهن بالمعروف﴾. { سورة البقرة ٢٢٨ }

فهذه كلمة جليلة جدا- كما يرى الإمام- حيث جمعت على إيجازها، مالا يؤدّى بالتفصيل إلا فى سفر كبير . وهي أيضا قاعدة كلية ناطقة بأن المرأة مساوية للرجل فى جميع الحقوق، ماعدا القوامة:

﴿وللرجال عليهن درجة﴾.

ويلاحظ فى الآية الكريمة، أنها أحالت فى معرفة ما لهن وما عليهن على المعروف بين الناس، فى معاشراتهم ومعاملاتهم فى أهليهم. وإن ما يجرى عليه عرف الناس إنما هو تابع لشرائعهم وعقائدهم وعاداتهم .

• فهذه الآية التى جاءت فى حجم جملة، تعطى الرجل ميزانا يزن به معاملته لامرأته فى كل الأحوال. فإذا هَمَّ بمطالبتها بأمرٍ ما، فليتذكر أنه يجب عليه مثله بازائه. ولم يفت مثلَ ابن عباس أن يتخلق بتلك الآية حين قال: " إني لأتزيّن لامرأتي كما تتزين لي " .

• وليس المراد بالمثل هنا كيلاً بكيل أو صاعاً بصاع، وإنما المراد أن الرجل والمرأة أكفاء، وأن الحقوق متبادلة، والأعمال متماثلة. بل إن التماثل ليقع أيضا فى الإحساس والشعور والعقل: أو ليس لكلٍ منهما عقل يفكر به فى مصالحه، وقلب يحب ويكره ؟!

أو كما يقول الإمام محمد عبده:

" فليس من العدل أن يتحكم أحد الصنفين بالآخر، ويتخذه عبداً يستذله، ويستخدمه فى مصالحه، ولاسيما بعد عقد الزوجية والدخول فى الحياة المشتركة التى لا تكون سعيدة إلا باحترام كل من الزوجين للآخر والقيام بحقوقه "

{الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ، ٤ : ٦٣٠ وما بعدها. دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة . ط ١٩٧٢م، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت}

• أما "الدرجة" فى قوله تعالى: ﴿وللرجال عليهن درجة﴾ التي فضل الله تعالى بها الرجل على المرأة، فهي تعنى القوامة التى لا غنى لمجتمع عنها: صغيرا أم كبيرا. فالآية تشير إلى أن هذه الدرجة هي: درجة الرئاسة والقيام على المصالح، ويفسرها قول الله تعالى:

﴿الرجال قوّامون على النساء بما فضّل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم﴾.

• فالحياة الزوجية حياة اجتماعية، ولابد لكل اجتماع من رئيس؛ نظرا لأنّ من طبيعة المجتمعين أن تختلف آراؤهم ورغباتهم فى العديد من الأمور .

• فلابد أن يكون لهؤلاء رئيس يرجع إلى رأيه فى الخلاف؛ كيلا تنفصم عُرى الوحدة الجامعة، فيختلّ النظام وتضطرب المصالح. وفيما يتعلق بقوامة الزوج على زوجته يقول الإمام:

" والرجل أحق بالرئاسة لأنه أعلم بالمصلحة، وأقدر على التنفيذ بقوّته وماله؛ ومن ثم كان هو المطالب شرعا بحماية المرأة والنفقة عليها، وكانت هي مطالبة بطاعته فى المعروف ".

{الأعمال الكاملة ٤ : ٦٣٠ وانظر ما بعدها}

• فالقوامة هي الرئاسة، وهذه للرجل؛ نظرا لما له من المؤهلات الفطرية والكسبية، التى تميز الرجل عن المرأة، والتى تجعل له الحق فى التأديب إذا لزم الأمر.

• **ولكن! ما الحكم لو توفرت مهام الرئاسة فى المرأة ؟**
هنا نرى الإمام محمد عبده يقسم النساء إلى نوعين:

أ- نوع لم تصل به المدارك والقدرات إلى الدرجة المطلوبة؛ فلا بد هنا من تقرير حق الرجل هذا بالنسبة لهن .

ب- ونوع آخر بلغت بهن المدارك والقدرات إلى الدرجة المرغوبة، ومثل هؤلاء لا سبيل للرجال عليهن فى هذا المجال.

ويستدل الإمام على الصنف الأول بقول الله تعالى:

﴿فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله﴾.

• فهو يرى أن الصالحات ليس للرجال عليهن شيء من سلطان التأديب. وإنما السلطان على الصنف الثاني وهو الذى تشير إليه الآية:

﴿واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن...﴾.

• والنشوز هنا: هو خروجهن عن العرف والمألوف. ويرى الإمام أن النفقة فى آيات النشوز تشير إلى أن النشوز أمر عارض، وليس أصلا فى المرأة، وأنه ليس القاعدة، بل هو الشذوذ، وهو تنبيه إلى مكانة المرأة فى الإسلام .

• وخلاصة رأى الإمام فى القوامة، أن سلطة الرجل هذه، إنما هي موجهة للمرأة " الناشز" أما غيرها فلا سلطان للرجل عليها، حتى فى سلطة الوعظ. ثم يلفت الإمام نظر الناس إلى دلالة ختام الآية:

﴿إن الله كان عليا كبيرا﴾.

• فيرى أنه نَهْيٌ عن البغي:"لأن الرجل إنما يبغى على المرأة بما يحسه فى نفسه من الاستعلاء عليها، وكونه أكبر منها وأقدر؛ فذكره تعالى بعلوه وكبريائه وقدرته عليه؛ ليتعظ ويخشع ويتقى الله فيها. واعلموا أن الرجال الذين يحاولون بظلم النساء، أن يكونوا سادة فى بيوتهم؛ إنما يلدون عبيدا لغيرهم ".

{الأعمال الكاملة ٥ : ٢١١ وانظر ما قبلها}

• ونحن لا نوافق على رأى الإمام فى مسألة رفع قوامة الرجل عن بعض الزوجات؛ لأن هذا تشريع إلهي ظاهر وواضح وضوح الشمس، وهو خاص بالزوج مع زوجته، بدليل: **﴿وبما أنفقوا من أموالهم﴾**.

ولعل المرأة فى قرار نفسها تعلم صدق وحكمة هذا التشريع، سواء أكانت صالحة أم طالحة، والحكم سببه الأنوثة التى لها طبيعة خاصة مهما قيل بالمساواة بين الرجل والمرأة.

• أما إذا كان الرجل ذا قرابة من المرأة وليس زوجا، فربما كان مقبولا أن تنفرد المرأة الصالحة بتدبير شئونها، باستثناء الولاية الشرعية فى الزواج أو غيره .

• وبعد هذا فإننا لا نستطيع إخفاء إعجابنا بعبقرية الإمام محمد عبده، فلا يفكر بهذا العمق إلا عقل واع مستنير، ونسأل الله تعالى له ثواب السجتهد وإن أخطأ؛ فهو لم يرد بالإسلام وأهله إلا خيرا .

• ويقرر الإمام أن مبدأ المساواة بين الرجل والمرأة، يقضى بضرورة تعليم المرأة، لا لأمور البيت فحسب، بل لكل ما هو ضروري ولازم لنهضة الأمة والملة. وليس هذا مجرد حق لها، لكنه واجب عليها، وواجب على الرجل أن ييسره لها ويساعدها عليه:

"وكيف تسعد فى الدنيا أو الآخرة، أمة: نصفها كالبهائم لا يؤدى ما يجب عليه لربه ولا لنفسه ولا لأهله ولا للناس " .

{ الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ٤ : ٦٣٢}

• ويرى الشيخ محمد عبده، أن مجال التعليم الديني للمرأة هو مجال محدود، أما مجال تعلمها لعلوم الدنيا فإنه مجال بلا حدود. ولم يكن هذا الرأي هو المتعارف فى ذلك الوقت، بل كان العكس هو الشائع .

• إن المساواة بين الرجل والمرأة، تعتبر فى رأى الإمام هي التطبيق العملي لذلك "الميثاق" الفطري، وهو الوارد فى قوله تعالى:

﴿وأخذن منكم ميثاقا غليظا﴾.

• فهذا الميثاق الذي أخذه النساء من الرجال، لابد أن يكون مناسبا لشئون الفطرة السليمة، وهو المشار إليه فى آية أخرى:

﴿ومن آياته أن خَلَقَ لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾. {الروم ٢١}

• وهذه الآية الأخيرة من آيات الفطرة الإلهية، هي أقوى ما تعمد عليه المرأة فى ترك أبويها وإخوتها وسائر أهلها، والرضا برجل غريب عنها، تقتسم معه السرّاء والضرّاء .

{ د. محمد عمارة: الإسلام والمرأة فى رأى الإمام محمد عبده ، ص ١٩ : ٢٨ ومواقع أخرى، ط ١٩٩٧م دار الرشاد بالقاهرة }

• فمن آيات الله تعالى فى هذا الإنسان، أن تقبل المرأة الانفصال عن أهلها ذوى الغيرة عليها، من أجل العيش مع هذا الرجل الغريب، بحيث يكون كل منهما زوجاً للآخر، تسكن إليه ويسكن إليها، ويكون بينهما من المودة والرحمة أقوى من كل ما يكون بين ذوى القربى. ويقول الشيخ محمد عبده: " إن النساء قد أخذن من الرجال بالزواج ميثاقا غليظا، فما هي قيمة من لا يفي بهذا الميثاق وما هي مكانته من الإنسانية ".

{ الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ٥ : ١٩٤}

٢) حاجه الإنسان إلى الزواج:

• يؤكد الإمام محمد عبده، على أهمية الزواج بالنسبة للإنسان ذكرا وأنثى. فهو يرى أنه لما كان من لوازم حفظ النوع الإنساني المعرّض للفناء والزوال: التناسل والتوالد؛ فقد أودع الحق سبحانه فى طبيعة الإنسان قوة شهوية تدعوه إلى الاقتران، وتحمله على طلب الازدواج، مثل سائر الكائنات الحية من الحيوانات وغيرها .

• لكن الإنسان له ميزة ترفعه عن سائر الحيوانات، وذلك بقوة تُذكره بما شهده فى الماضي: فيطلبه إن كان لذيذا؛ استحصالا لمجرد اللذة، وله حرص بالطبع على المدافعة عن كل ما يروم جلبه لنفسه من أن تمسه يد الغير، كما يدافع عنه كل من حاول مشاركته فيه.

• وإن هذا التمييز العقلي يدعوه لأن يطلب من الأزواج ما هو أبهى في المنظر، وأنعم فى الملمس، وأسلم من الآفات والمشوهات ونحو ذلك. فلا يسمح لأحد - غيرةً- أن يشاركه فيه، ويدفع ذلك بكل ما يمكنه إلى درجة الجرح أو القتل. وهذا بخلاف باقي الحيوانات التى تكون غيرتها فى حدود مؤقتة، أما الإنسان فإنه يلازمه الحرص فى جميع أحواله؛ خوفا على المستقبل .

• ولا ريب أن تلك الخواص شائعة فى جميع الأفراد البشرية، فكل واحد منهم يطلب صرف شهوته مع مَنْ اتصف بجمال، وسلم من الآفات، حالة كون كل واحد منهم يطلب الاستئثار به .

• يضاف إلى هذا أن الإنسان فى حاجه إلى التعاون بالضرورة، وهو فى فطرته لا ينظر إلى التعاون مع جميع أفراد الإنسان. فلو ترك الإنسان مسترسلا مع شهوته من غير أن تقيّد طرق استعمالها بقانون يحفظ ثمرتها، ويكفل سلامة نتيجتها؛ لاختل عقد نظام الإنسان، وفسدت أركان سعادته، ولم يتمكن من صيانة وجوده من غائلة الزوال وعاديات الفناء؛ وذلك من عدة وجوه:

أ- أن النسوة إذا أبيحت لكل ذكر من الرجال، وأبيح لكل أنثى أن تقترن بكل زوج فى أي وقت، لاشتعلت نار الغيرة فى أفئدة كل واحد من البشر، ولو أدّى ذلك إلى سفك دماء الطالبين والطالبات.

ب- أن المرأة عاجزة بالطبع عن القدرة على جلب لوازم معيشتها، ودرء المكروهات عن ذاتها، لاسيما فى فترة الحمل وعقب الوضع وسنوات الرضاع، وما لم يعلم الرجل اختصاصه بها، لا يسعى فى القيام بحوائجها، والمدافعة عن حقوقها، فتضيع وتضيع معها ذريتها .

ج- أن الرجل لا يخاطر بنفسه فى تحمل الأتعاب، واقتحام الشدائد؛ طلبا للحصول على وسائل المعيشة، إلا إذا رأى صبية وعيالا هم عالة عليه فى أمور معاشهم، يؤدي إليهم ما استطاع من الرزق وقت قدرته. وهو يرجو منهم إذا وهنت قواه بعد تربيته لهم إذا

كبروا، أن يرعوه، وأن يشاركوه بؤسه وسعادته. وإن وجود زوجة وذرية تختص به، وتعدّ نسبته إليها كنسبة الجسد للروح، يشجعه على الادخار لنفسه من قُوتُه؛ فإن ادّخار العيش موقوف على عناية الزوجات والأبناء.

• وكل ذلك سيكون مفقودا، إذا اختلطت الأنساب، وجُهلت الأصول، بل لو اختلط النسب فلن تتوجه همة رجل للسعي فى تربية ولد، فيستأصل الموت أفراد النوع فى أوائل أعمارهم .

• وقد أتت الشرائع المنزلة بما يكفل هذا الأمر، وإن تباينت مظاهره بالنسبة إلى اختلاف طبائع الأمم، تبعا لتقلبات الأجيال والأعصار. ولم تبح الشرائع السماوية للرجل، أية امرأة يريدها، إلا إذا كانت خالية من الأزواج، ومن جميع الموانع التى تُخلّ بهذا الاختصاص. ثم لابد من العقد عليها عقدا شرعيا بإيجاب وقبول وولى أمر وشهود وجمع غفير من الناس كي يذيعوا نبأ هذا الارتباط.

• فإذا تم هذا انكفّ الناس عن إرادتها إذا علموا أنها خُصت برجل يقوم بحاجاتها، ويدرأ عنها أي مكروه .

• كذلك أمرت الشريعة كلا من الطرفين، بحسن المعاشرة، ونهت عن ارتكاب أي أمر يخلّ بنظام الاجتماع المنزلي، الذي لا تتم سعادة العائلة إلا برعاية حرمته والمحافظة على حقوقه. وذلك مثل: القيام بواجبات وحاجات كل واحد من أفراد العائلة، وحسن الاقتصاد والتدبير فى المعيشة، والنظر إلى مصلحة العائلة كنظره إلى مصلحته الخاصة.

• ويظهر مما سبق أن الشهوة الحيوية المغروسة فى الإنسان، لم تكن هي المقصودة لذاتها، وإنما هي وسيلة لنيل الإنسان مآربه التى لا يستطيع المقام بدونها. كبقائه في عالم الحياة، يتعاون على جلب المنافع ودفع المكروه بزوجته وأولاده وذوى رحمه، وكل من ارتبط معه بصلة النسب والقرابة، التى هي من أقرب الروابط الإنسانية، ولولاها لاختل نظام الوجود الإنساني بالمرة.

• ويوضح الإمام الحكمة من تحريم الزواج بالمحارم كالأخت والخالة والعمة؛ فيرى أنه لما كان التعاون على المصالح المعاشية، والاتحاد والتآلف، وجمع الكلمة من ثمرات الزواج، لم يبح بالإجماع أن يقترن الرجل بأخته أو عمته أو ابنته لأنه:

أ- يضيق تلك الفوائد، ويقلل من الثمرات.

ب- فضلا عن أنه فى نظر الأطباء يوجب العقم وانقطاع النسل؛ فلذلك أرشد الدين إلى أن يكون الزواج من عائلتين؛ ليحصل الارتباط بينهما بعلاقة المصاهرة، ولتجتمع العائلتان على مصلحة واحدة، فتكونان بالمصاهرة كالجسد الواحد الذى تعددت أعضاؤه، فيقوم كل عضو بما فيه مصلحة الكل؛ فيستريح الناس من ألم الشقاق ووخامة البغض والعناء .

{ الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ٢ : ٦٨ - ٧١}

٣) فوائد المصاهرة:

• إن المصاهرة نوع من أنواع القرابة، تلتحم بها العائلات البعيدة فى النسب، وتتجدد بها صلات الألفة والاتحاد.

• فقد حرم الله تعالى على الإنسان أن يتزوج بأمه أو بأي أنثى من أصولها وفروعها، كما حرّم عليه أن يتزوج بأخته أو بأي أنثى من أصولها وفروعها، وكذلك حرم على زوجته أن تقترن بشيء من أصوله أو فروعه.

• فكأنما أنزلت الشريعة كلا من الزوجين منزلة أصول نفسه وفروعه، فما أعظمها من حكمة بالغة! أقامها الشرع لنا برهانا واضحا، على أن اتصال إحدى العائلتين بالأخرى بطريق المصاهرة مساو لنفس القرابة النسبية فى الأحكام والحقوق والاحترام، وهذا يتفق مع ما عليه طبيعة الاجتماع الإنساني، ولازم بالطبع لرابطة القرابة النسبية.

• ومن المعلوم أن حكمة الزواج، إنما هي لحفظ النوع، ووقاية الوجود البشرى من خطر الفناء والزوال. ولا يمكن تحقيق ذلك إلا باطمئنان كل من الزوجين إلى الآخر، وتوجههما إلى غاية واحدة، وهى حفظ أنفسهما، وحفظ نسلهما، وكذلك إعداد جميع ما يلزم لوقايته ونمائه.

• فمن كانت له ابنة، وهو يميل إليها ميل الوالد إلى ولده، وقضت سنّة الله فى خلقه بأن يقترن بها شخص ما، فمقتضى محبة الوالد لابنته أن يطلب لها جميع الخيرات، ويود لو بلغت أقصى درجات السعادة فى حياتها الزوجية.

• وحيث إن سعادتها مرتبطة بسعادة زوجها، فمن الواجب على الوالد أن يميل إلى زوجها ميله إلى نفسها، ويكون عونا له على سعادته؛ لتتصل بها سعادة ابنته. ويقاس على ذلك أحوال أقاربها؛ بحيث يجب أن يميلوا إلى زوج البنت، فلو سعى أحدهم في تكدير خاطر الزوج الذى هو مرتبط بها ارتباط الروح بالجسد، فقد سعى في تكديرها لا محالة .

• وكذلك يجب على نفس الزوج وأقربائه، لنفس الزوجة وأقاربها، مثل تلك الواجبات، فيلزم أن تكون المصاهرة سببا حقيقيا فى ارتباط العائلات، توجب على كل من العائلتين للأخرى، مثل ما توجب القرابة النسبية على كل من أعضاء العائلة للآخر.

• وقد جرت عوائد الأمم قديما وحديثا على ذلك، حتى فى الأقطار المختلفة والبوادي المقفرة. فلا تصاهر قبيلة قبيلة أخرى، إلا إذا أرادت أن تدخل معها تحت ميثاق واحد، تكون به كل منهما عونا للأخرى على دفع جميع المكاره وجلب كافة المألوفات.

• ولو أن دماء سفكت بين قبيلتين، وعداوة تحكمت فى نفوس جميع أفرادهما أزمنة طوالا، ثم ملّوا مقارفة الحروب، وطلبوا الراحة والسلم الدائم، لم يجدوا وسيلة تقطع عرق العداوة وتستبدله برباط المحبة، إلا أن تتصاهر القبيلتان، فتصيران كذي نسب واحد، ويلقى على الإحن والعداوات ستار النسيان.

• أما السُنّة فى البلاد المتمدينة، فإنهم يعدون المصاهرة "علاقة تامة القرابة" حتى إن الملوك تتخذها وسيلة سياسية لاستمالة كل من الدولتين إلى الأخرى، فانتقل أمر المصاهرة وعظم شأنها بذلك، حتى صارت رابطة بين الأمم المتنافرة، وفق ما تقتضيه الطبيعة، وتشير إليه الشريعة.

• غير أن تلك الفوائد الجليلة، التى وضعتها الحكمة الإلهية فى عقد الزواج والمصاهرة، لا تتحقق لإنسان إلا إذا راعى فيها حكمتها الأصلية، واتبع فيها الأصول الشرعية، مثل حفظ النسل والبلوغ به حدّ الكمال.

ويقتضى ذلك أن يكون كل من الذكر والأنثى حسن التربية، متحليا بمكارم الأخلاق، متجملا بالعلم والمعرفة.

• فإذا انصرفت العقول عن رعاية الحكم الإلهي، وقصرت الأذهان إلا عن اللذائذ الآنية الوقتية، فان أسباب المودة تنقلب إلى أسباب عداوة ونفور.

• وانظر كيف انقلبت المصاهرة فى بلادنا إلى عداوة وتقاطع شديد؛ وما ذلك إلا بسبب قصور التربية، ونقص العقول وحماقة الأهل وفساد نظرهم؛ مما يؤدي نكبة لا يعلم مداها إلا الله تعالى. ويقول الأستاذ الإمام فى ذلك: " نعم، هناك سبب واحد هو الذي أوجب هذا، بل وغيره من الأمور غير المرضية، وهو: نقص التربية العمومية، وعدم جريانه على طريقة شرعية كاملة ".

{الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ٢ : ٩٨ - ٩٩}

٤) احترام حرية المرأة فى اختيار الزوج:

• يقول المولى ﷻ:

﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلكم أزكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾. {البقرة ٢٣٢}

• والعَضْل هو منع المرأة من الزواج، وقد كان من عادات الجاهلية أن يتحكم الرجال فى تزويج النساء؛ إذ لم يكن يزوّج المرأة إلا وليها، ودون إذنها، فقد يزوجها بمن تكره، ويمنعها ممن تحب؛ لمحض الهوى:

أ- ويجوز أن يكون الخطاب للأزواج والأولياء معا.

ب- وربما كان الخطاب هنا للأزواج المطلّقين، أي: لا تعضلوا مطلقاتكم أيها الأزواج بعد انقضاء العدة أن ينكحن غيركم. وإن الرجال المطلقين كانوا يفعلون ذلك؛ بحيث يتحكم الرجل بمطلقته، فيمنعها أن تتزوج أنفة وكبرا أن يرى امرأته تحت غيره، فكان يصدّ عنها الأزواج بضروب من الصدّ والمنع، كما كان يراجعها فى آخر العدة لأجل العَضْل. وقد أثبت الإسلام الولاية للأقربين وحرّم العضل، وهو المنع من الزواج، وأن يزوّج الولي المرأة بدون إذنها، فجمع بين المصلحتين.

ج- ويجوز أن يكون للأولياء فقط؛ لما ورد في أسباب نزول هذه الآية:

أخرج البخاري وأصحاب السنن وغيرهم بأسانيد شتي، من حديث معقل بن يسار قال: كان لي أخت، فأتاني ابن عم لها فأنكحتها إياه، فكانت عنده ما كانت، ثم طلقها تطليقة ولم يراجعها حتى انقضت العدة، فهَوِيَها وهَوِيَتْه، ثم خطبها مع الخطاب، فقلت له: يالكع، أكرمتك بها وزوجتكها فطلقتها ثم جئت تخطبها؟! والله لا ترجع إليك أبدا، وكان رجلا لا بأس به، وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه، فعلم الله حاجته إليها وحاجتها إلى بعلها، فأنزل الله هذه الآية.

ويقول معقل بن يسار: ففيَّ نزلت، فكفّرت عن يميني وأنكحتها إياه. وفي لفظ: فلما سمعها معقل قال: سمعا لربي وطاعة. ثم دعاه فقال: أزوّجك وأكرمك. وذلك أن النبي ﷺ دعاه فتلا عليه هذه الآية.

• وقوله تعالى:

﴿ إذا تراضوا بينهم بالمعروف ﴾.

معناه أنه إذا تراضى مريدو التزوج من الرجال والنساء، بأن رضي كل من الرجل والمرأة بالآخر زوجا. وقوله " بينهم " يشعر بأنه لا نُكْرَ في أن يخطب الرجل المرأة إلي نفسها، ويتفق بها علي التزوّج بها، ويحرم حينئذ

عضلها، أي امتناع الولي أن يزوجها منه، إذا كان ذلك التراضي في الخِطبة بالمعروف عادة وشرعا.

أي بألا يكون هناك مُحَرَّم، أو شيء يخلّ بالمروءة ويلحق العار بالمرأة وأهلها. ويعلم من هذا أن العَضْل من غير الكفء غير محرّم، كأن تريد الشريفة في قومها أن تتزوج برجل خسيس يلحقها منه الغضاضة، ويمسّ ما لقومها من الشرف والكرامة، فينبغي أن تُصْرَف عنه بالوعظ والنصيحة.

• وقوله تعالى:

﴿ذلك يُوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر﴾.

الوعظ: النصح والتذكير بالخير والحق علي الوجه الذي يرق له القلب، ويبعث علي العمل. أي: ذلك الذي تقدم من الأحكام والحدود المقرونة بالحُكْم والترغيب والترهيب، يوعظ به أهل الإيمان بالله والجزاء على الأعمال في الآخرة؛ فإن هؤلاء هم الذين يتقبلونه ويتعظون به، فتخشع له قلوبهم، ويتحرون العمل به؛ قبولا لتأديب ربهم لهم، وطلبا للانتفاع به في الدنيا، ورجاء في مثوبته ورضوانه في الآخرة. وهذا بعكس المعطلين والمقلدين فإنهم لا يؤمنون بشيء مما سبق.

وتدل الآية الكريمة: **﴿ذلك يوعظ به...﴾** على أن الإيمان الصحيح يقتضي العمل؛ فمن كان مؤمنا فلا شك أنه يتعظ بهذا، ومن لم يتعظ بها فليس بمؤمن. كذلك تدل الآية علي أن أحكام الدين، ومنها المعاملات، ينبغي أن تساق إلي الناس مساق الوعظ المحرّك للقلوب، لا أن تسرد سردا جافا، كما هو حادث في بعض الكتب.

• وقوله تعالى:

﴿ذلكم أزكى لكم وأطهر﴾.

الزكاة: النماء والبركة في الشيء، والمشار إليه في " ذلكم" هو النهى عن عضل النساء بقيده وشرطه. والمراد أنه مزيد في نماء متبعيه وصلاح حالهم ما بعده مَزيد يفضله، وأنه أطهر لأعراضهم وأنسابهم، وأحفظ لشرفهم وأحسابهم.

والحكمة في ذلك: أن عضل النساء والتضييق عليهن مدعاة لفسوقهن، ومفسدة لأخلاقهن، وسبب لفساد نظام البيوت وشقاء الذراري، وفتحا لغواية الشيطان من أوسع الأبواب، ولاسيما حين تُمنع المرأةُ من الزواج ممن ترغب، وتُزَوَّجُ ممن تكره، فتلك عادة جاهلية كان الأولياء يفعلونها تقليدا واستكبارا دون حق.

• وقد كان أهل الجاهلية لا يرون للنساء شأنا في صلاح حياتهم الاجتماعية أو فسادها، حتى علمهم الوحي منهج الحق، فعلموا أنهم كانوا جاهلين بوجوه المصالح الاجتماعية علي كمالها.

• ومع هذا فإن المسلمين لا يأخذون من الوحي في كل زمان، إلا بقدر استعدادهم. والدليل علي هذا ما نلمسه اليوم، من أن الأمة لم تحسن معاملة النساء تماما حسب توجيهات القرآن والسنة، بل نسيت معظمها في هذا الزمان، وعادت إلي العديد من مواريث الجاهلية. ولذلك ختم الله ﷻ الآية بقوله:

﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾.

أي: يعلم سبحانه ما لكم في ذلك من الزكاة والطهر وسائر المصالح ودفع المفاسد، وأنتم لا تعلمون ذلك كله علما صحيحا خاليا من الأهواء والأوهام واعتزاز الرجال بقدرتهم علي التحكم في النساء.

وهذه آيات علمه ظاهرة للناس، فإن الناس لم يهتدوا إلي هذه الأحكام باختبارهم الطويل للأمور، بل إن حكمتها غابت عن نفوس الأكثرين بعد نزولها وحيا من الله تعالي، فلم يعملوا بها تماما.

ويقول الإمام محمد عبده:

" وكان يجب علي المؤمن الذكي أن يقيمها علي وجهها ملاحظا فوائدها، وعلى المؤمن الغبيّ أن يسلم لأمر ربه تسليما، وإن لم تظهر له فائدتها في الدنيا؛ اكتفاء بأن الله تعالي يعلم من ذلك ما لا يعلم هو".

{الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده، ٤ : ٦٥٥ وانظر ما قبلها}

• وأخيرا فلقد اتضح لنا جانب من منهج الإمام محمد عبده، رحمه الله تعالي، في معالجته لقضايا المرأة والأسرة، حيث أدار الموضوع كله حول

آية قرآنية واحدة، ثم أتى بحديث نبوي صحيح من رواية البخاري وغيره، والتزم في استنباط الأحكام من النص، مع الالتفات إلي الواقع، في الجاهلية، وصدر الإسلام، ثم في العصر الحديث الذي كثرت فيه البدع ومظاهر الجاهلية، وكان يضع نصب عينيه المصلحة الاجتماعية العامة، بعيدا عن الأهواء.

٥) تقييد حق الطلاق:

من عادة الإمام أن يبدأ بالقرآن الكريم عندما يعرض لعلاج أي مشكلة. وقد بدأ بقوله تعالى:

﴿وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما﴾. {النساء ٣٥}.

فهو يرى هنا أن الخطاب موجه إلى من يمكنه القيام بهذا العمل ممن يمثل المسلمين وهم الحكام.

ولا مانع من القول بأن الخطاب عام، ويدخل فيه الزوجان وأقاربهما، فإن قام هؤلاء بحل المشكلة فلا بأس بذلك، وإلا وجب على من بلغه أمرهما من المسلمين أن يسعى في إصلاح ذات البين.

• ولكن ما هي وظيفة الحكمين ؟

قال بعضهم: إنهما وكيلان لا يحكمان إلا بما وكلا به.

وقال آخرون: إنهما حاكمان.

وقد روى الشافعي في الأم، والبيهقي في السنن، عن عبيدة السلماني قال: جاء رجل وامرأة إلى عليّ- كرّم الله تعالى وجهه- ومع كل واحد منهما فئام - جماعة- من الناس، فأمرهم عليّ أن يبعثوا رجلا حكما من أهله ورجلا حكما من أهلها، ثم قال للحكمين:

" تدريان ما عليكما؟ عليكما إن رأيتما أن تجمعا أن تجمعا، وإن رأيتما أن تفرقا أن تفرّقا".

قالت المرأة: رضيت كتاب الله تعالى بما عليّ به ولِي.

وقال الرجل: أما الفرقة فلا.

فقال عليّ: كذبت والله حتى تقرّ بمثل الذى أقرت به".

وروى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه قال في هذه الآية:

"هذا في الرجل والمرأة إذا تفاسد الذى بينهما، أمر الله تعالى أن يبعثوا رجلا صالحاً من أهل الرجل، ورجلا مثله من أهل المرأة: فينظران أيهما المسيء، فإن كان الرجل هو المسيء حجبوا عنه امرأته وقسروه على النفقة. وإن كانت المرأة هي المسيئة قسروها على زوجها ومنعوها النفقة.

فإن اجتمع أمرهما على أن يفرقا أو يجمعا فأمرهما جائز، فإن رأيا أن يجمعا فرضى أحد الزوجين وكره ذلك الآخر، ثم مات أحدهما، فإن الذى رضى يرث الذى كره، ولا يرث الكاره الراضي".

{تفسير الطبرى ٨: ٣٢٥ ـ ٣٢٦}.

• وقوله تعالى:

﴿إن يريدا إصلاحا يُوَفِّق الله بينهما﴾

يشعر بأنه يجب على الحكمين ألا يدّخرا وسعا في الإصلاح. فإن صحت إرادتهما فالتوفيق كائن لا محالة. وهذا يدل على كمال العناية من الله تعالى في إحكام نظام البيوت، الذى لا قيمة له عند أكثر المسلمين في هذا الزمان.

ولم يذكر الله عز وجل مقابل "التوفيق" وهو "التفريق" عند تعيّنه؛ حتى لا يذكر به لأنه يبغضه، وليشعر النفوس أنه ليس من شأنه أن يقع.

وسواء قيل: إن التحكيم واجب، أو قيل: إنه مندوب، فقد وقع الخلاف والتعصب في ذلك، وأهمل العمل بهذه الوصية الجليلة التي لا يعمل بها أحد على أنها واجبة أو على أنها مندوبة، وقد دبّ الفساد في البيوت، وفتك بالأخلاق والآداب.

• وقال تعالى:

﴿إن الله كان عليماً خبيراً﴾.

أي إنه فيما شرعه لكم من الحكم، كان عليماً بأحوال العباد وأخلاقهم وما يصلح لهم، خبيراً بما يقع بينهم، وبأسبابه الظاهرة والباطنة؛ فلا يخفى عليه شئ من وسائل الإصلاح بينهما.

والآية تؤمئ بالاسمين الكريمين "عليماً خبيراً" إلى أن كثيراً من الخلاف يقع بين الزوجين، فيظن أنه مما يتعذر تلافيه، مع أنه قد يكون ناشئاً عن أسباب عارضة، لا عَنْ تباين في الطباع أو عداوة راسخة. وما كان كذلك فإنه يسهل على الحكمين الخبيرين بدخائل الزوجين؛ لقربهما منهما، أن يمحصا ما علق من أسبابه في قلوبهما، متى حسنت النية.

وإن حكمة عمر بن الخطاب في هذا المقام لهي الجديرة بالأخذ بها، حيث قال للتي صرحت بأنها لا تحب زوجها:

"إذا كانت أحداكن لا تحب أحدنا فلا تخبره بذلك، فإن أقل البيوت ما بنى على المحبة، وإنما يعيش (أو قال: يتعاشر) الناسُ بالحسب والإسلام".

أي حسب كل من الزوجين وشرفه إنما يحفظ بحسن عشرته للآخر، وكذلك الإسلام يأمرهما بأن يتعاشرا بالمعروف. فإذا فُقد الحب فعليهما بالمودّة العملية.

{الأعمال الكاملة للإمام عبده محمد عبده ٥: ٢١١ ـ ٢١٣}

• وهذه فتوى التطليق على الزوج بواسطة التحكيم والقضاء في حالة سوء العشرة، وهى المادة العاشرة والحادية عشرة من مشروع القانون الذى وضعه الأستاذ الإمام في (٥ ربيع الثاني سنة ١٣١٨ هـ = ٣ أغسطس سنة ١٩٠٠):

"إذا اشتد النزاع بين الزوجين، ولم يمكن انقطاعه بينما بطريقة من الطرق المنصوص عليها في كتاب الله تعالى، رفع الأمر إلى قاضي المركز، وعليه عند ذلك، أن يعيّن حكمين عادلين: أحدهما من أقارب الزوج، والثاني من أقارب الزوجة، والأفضل أن يكونا جارين. فإن تعذر العدول من الأقارب فإنه يعينهما من الأجانب، وأن يبعث بهما إلى الزوجين، فإن أصلحاهما فيها، وإلا حكما بالطلاق ورفعا الأمر إليه، وعند ذلك عليه أن

يقضي بما حكما به، ويقع التطليق في هذه الحالة طلقة واحدة بائنة، ولا يجوز للحكمين الزيادة عليها".

" للزوجة أن تطلب من القاضي التطليق على الزوج، إذا كان يصلها منه ضرر. والضرر: هو ما لا يجوز شرعاً كالهجر بغير سبب شرعي، والضرب، والسبّ بدون سبب شرعي، وعلى الزوجة أن تثبت كل ذلك بالطرق الشرعية".

{الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ، ٦: ٣٨٣ ، ٣٨٤}

❁ ❁ ❁

• وفي مجال إصلاح الأسرة لم يفت الإمام محمد عبده، أن يبحث موضوع الإيلاء وهو المنصوص عليه في قوله تعالى:

﴿للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم ❁ وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم﴾.

{البقرة ٢٢٦ – ٢٢٧}.

فهو يلتزم النظر في النص، ويرى أن الإيلاء من المرأة هو:
"أن يحلف الرجل أنه لا يقربها، وهو ما يكون من الرجال عند المغاضبة والغيظ".

وفيه امتهان لكرامة المرأة، وهضم لحقوقها، وإظهار لعدم المبالاة بها: فترك المقاربة الخاصة – ضراراً – معصية، والحلف على ذلك حلف على ما لا يَرْضَى الله تعالى به؛ لما فيه من ترك التوادّ والتراحم بين الزوجين، وما يتبع ذلك من الفساد في أنفسهما وفي أولادهما وأقاربهما.

• فإذا تورّط الزوج في ذلك، فإنه يجب عليه أن يبادر بالحنث ويكفر عن يمينه، ولكنه إذا لم يفعل هذا الواجب لم يكن آثماً في نفسه فقط، بل حسبه ما يلقى من جزاء إثمه، بل إنه يكون بإثمه هاضما لحق امرأته، ولا يبيح له الإسلام هذا الظلم.

• ومن هنا فقد أنزل الله تعالى فيه هذا الحكم، وهو التربص مدة أربعة أشهر. والحكمة في هذا التحديد الزمني، أن المرأة لا يشق عليها البعد عن الرجل خلال هذه المدة. كما أن تلك الفترة كافية؛ كي يتروّى الرجل في أمره ويثوب إلى رشده.

﴿فإن فاءوا﴾ أي: رجعوا إلى نسائهم، بأن حنثوا في اليمين، وقاربوهن في أثناء تلك المدة أو آخرها:

﴿فإن الله غفور رحيم﴾: يغفر لهم ما سلف برحمته الواسعة؛ لأن الفيئة توبة في حقهم.

﴿وإن عزموا الطلاق﴾: أي: صمّموا على قصده، وعزموا على ألا يعودوا إلى ملامسة نسائهم:

﴿فإن الله سميع عليم﴾: أي: فليراقبوا الله تعالى، عالمين أنه سميع لإيلائهم وطلاقهم، عليم بنيّتهم فيه:

- فإن كانوا يريدون به إيذاء النساء ومضارّتهن، فهو يتولى عقابهم.

- وإن كان لهم عذر شرعي، بأن كان الباعث على الإيلاء تربية النساء؛ لأجل إقامة حدود الله، وعلى الطلاق اليأس من إمكان المعاشرة بالمعروف، فإن الله يغفر لهم.

• وخلاصة المسألة: أن من حلف على ترك غشيان امرأته فلا يجوز له أن يتربص أكثر من أربعة أشهر، فإن تاب وعاد قبل انقضائها لم يكن عليه إثم.

وإن أتمّها تعيّن عليه أحد الأمرين: الفيئة والرجوع إلى المعاشرة الزوجية، أو الطلاق. وعليه أن يراقب الله تعالى فيما يختاره منهما، فإن لم يُطلّق هو بالقول، كان مطلقاً بالفعل، أي إنها تطلق منه بعد انتهاء المدة، رغم أنفه؛ منعاً للضرر. وقيل: ترفع أمرها إلى الحاكم فيطلق عليه. ولكن لا خلاف في عدم جواز بقائها على عصمته.

• والله الغفور الرحيم سبحانه وتعالى، يفضل الفيئة على الطلاق، حين جعل جزاء الفيئة المغفرة والرحمة، وهدى إلى مراقبته في العزم على الطلاق،

وذكّرَ المؤلي بسمعه تعالى لما يقول، وعلمه بما يسره في نفسه ويقصده من فعله.

{الأعمال الكاملة ٤: ٦٢٤ – ٦٢٥}

• وإرجاع الزوج مطلقته: كان من أهم مسائل الإمام محمد عبده، في إصلاح الأسرة، وأكبر آفة للأسرة هو الطلاق. ويأتي بالآية الكريمة التي تشير إلى ردّ الزوج لزوجته المطلقة، وهي:

﴿ وبعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحاً ﴾. {البقرة ٢٢٨}

فيرى الإمام أن هذا لطف كبير من الله سبحانه وتعالى، وحِرْصٌ من الشارع على بقاء العصمة الأولى:

- فإن المرأة إذا طلقت لأمر من الأمور، سواء كان بالإيلاء أو غيره، فقلما يرغب فيها الرجال.
- وأما بعلها الذي طلقها فقد يندم على طلاقها، وربما وجد أن ما طلقها لأجله لا يقتضي مفارقتها دائماً، فيميل إلى مراجعتها، ولاسيما بعد أن أفضى كل منهما إلى الآخر بسِرِّهِ، وتمكنت الألفة بينهما على علاتهما.
- وإذا كان قد رزق بالولد، فإن الندم كثيراً ما يسرع إليهما من أجله بعد الطلاق والفراق؛ نظراً لميول فطرية فيهما تدفعهما إلى الاشتراك معاً في تربية الأولاد وتوجيههم.
- من أجل ذلك حكم الله تعالى؛ لطفاً منه بعباده، بأن بعل المطلقة أحق بردها في زمن التربص، وهو العدّة. وبذلك يكون للعدة حكمتان:

  أ- إبراء الرحم أو إظهار الحمل.

  ب- إمكان المراجعة.

• فعلم بذلك أن تربص المطلقات بأنفسهن، فيه فائدة لهن وفائدة لأزواجهن. هذا إذا كان البعل صاحب نية طيبة، أما إذا قصد مضارّتها وتركها كالمعلقة: لا يعاشرها، ولا يتركها لحال سبيلها بحيث يمكنها التزوج من غيره، أو كما يقول الإمام:

"فهو آثم بينه وبين الله تعالى بهذه المراجعة؛ فلا يباح للرجل أن يردّ مطلقته إلى عصمته إلا بإرادة إصلاح ذات البين، ونية المعاشرة بالمعروف"
{الأعمال الكاملة للإمام ، ٤: ٦٢٩ – ٦٣٠}

٦) تعدد الزوجات:

كان موضوع تعدد الزوجات، مثار اهتمام الأستاذ الإمام محمد عبده، طوال حياته الفكرية:

- فكتب عنه في الوقائع المصرية. {عددي ٧ ، ٨ مارس ١٨٨١م}.
- وأصدر بشأنه فتوى ليس لها في الاجتهاد الإسلامى نظير في موضوعها، وذلك عندما تولى منصب الإفتاء.
- وأفاض في الحديث عنه عندما جلس بالجامع الأزهر يفسر قول الله سبحانه في الآية الثالثة من سورة النساء:

﴿وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة﴾ .

ففي مقال الوقائع المصرية الأول:

يدعو الإمام إلى تقييد الشهوة الجنسية في الإنسان ، فهو يقول:
"إن سعادة الإنسان في معيشته، بل صيانة وجوده في هذه الدار، موقوفة على تقييد الشهوة "الجنسية" بقانون يضبط استعمالها، ويضرب لها حدوداً يقف كل شخص عندها، وتوجب الاختصاص بين الزوج والزوجة"
{الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ، ٢: ٧٠}

وعندما عرض لحكم الشريعة الإسلامية في تعدد الزوجات، قطع بأنها قد علقت إباحة التعدد، على شرط التحقق من العدل بينهن. ويرى الإمام أن ذلك العدل يصعب تحققه، كما هو معلوم من الواقع.

والأولى هو وجوب الاقتصار على الزوجة الواحدة، إذا فُقِد التحقق من العدل، ويوضح ذلك قائلا:

"قد أباحت الشريعة المحمدية للرجل، الاقتران بأربع نسوة، إن علم من نفسه القدرة على العدل بينهن، وإلا فلا يجوز الاقتران بغير واحدة، قال تعالى:

﴿فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة﴾.

فإن الرجل إذا لم يستطيع إعطاء كل منهن حقها، اختل نظام المنزل، وساءت معيشة العائلة، أفبعد الوعيد الشرعي، وذلك الإلزام الدقيق الحتمي الذى لا يحتمل تأويلاً ولا تحويلاً، يجوز الجمع بين الزوجات عند توهم عدم القدرة على العدل بين النسوة؛ فضلاً عن تحققه ؟!".

{الأعمال الكاملة ٢: ٧٨: ٨٠}

• وفى تفسيره للقرآن، وفى الفتوى التي قدمها بخصوص تعدد الزوجات، يوضح أهم أثار التعدد على حياة الأسر المسلمة كما يلي:

١ – إن نظام تعدد الزوجات، واعتياده، ليس قسْمة أصيلة من قسَمات الشرق، يتميز بها الشرقيون عن الغربيين، فإن بعض شعوب الشرق مثل "التبت" و "المغول" لا تعرف تعدد الزوجات، كما أن بعض فترات التاريخ قد عرفت نظام التعدد عند بعض الشعوب الغربية مثل "ألغولو" و "الجرمانيين". فهذا النظام ليس خاصية لشعب بحيث يستعصى على الإلغاء، ولكنه وليد ظروف وعوامل اقتصادية واجتماعية وحربية.

٢ – إن نشأة ظاهرة تعدد الزوجات، قد ارتبطت بوجود الذين امتازوا باحتكار "الرئاسة" و "الثروة" في تلك المجتمعات.

٣ – وقد دعت إليه كذلك زيادة عدد النساء عن الرجال بكثرة؛ بسبب الحروب التي هلك فيها جم غفير من الرجال.

٤ – وكان التعدد بلا حدود مباحاً قبل الإسلام، فلما ظهر الإسلام اتخذ منه موقفاً إصلاحياً فقيده بأربع زوجات. وطبق ذلك بأثر رجعى على

الذين أسلموا وعندهم أكثر من أربع نسوة، هذا مع اشتراط العدل لقيام التعدد.

٥ ــ إن الإسلام عندما أباح التعدد، إنما كان يعالج ﷺ يعالج - الخروج بالأوصياء على اليتامى من ظلم كبير؛ وذلك عندما كانوا يتزوجون اليتامى اللاتي تحت وصايتهم طمعاً في ثرواتهن، فيهضمون حقوقهن؛ فأباح لهم الإسلام الزواج من الأخريات حتى أربع، بشرط تحقق العدل، وإلا فواحدة.

٦ ــ إن وجود الرجل الذى يعدل بين الزوجات هو أمر نادر الحدوث، فلا يصح أن يكون قاعدة، ولا يستحق أن يعمّ؛ لما له من تبعات ثقال في الرعاية والنفقة والمعاشرة.

٧ ــ إن التعدد بطبيعته مصدر ضرر محقق واقع بالزوجات، بل إنه يورث العداوة والبغضاء بين الزوجات وأبنائهن وبناتهن، مما يهدد كيان الأسرة.

❁❁❁

• ومن أجل ذلك كله فإن لولى الأمر أن يمنع هذا التعدد، وله أن يقيده باعتباره أمراً مباحاً، باستثناء حالات الضرورة القصوى، مثل عقم المرأة مع رغبة الرجل في الإنجاب، أو مرضها، وغير ذلك.

ويرى الإمام أن الرجل لا يتزوج بثانية، إلا بعد رفع الأمر إلى القضاء الذى يتحقق من وجود الضرورة.

• وكان للتعدد في صدر الإسلام فوائد من أهمها: صلة النسب والصهر الذى تقوى به العصبية، ولم يكن له - كما يرى الإمام- من الضرر مثلُ ماله الآن؛ لأن الدين كان متمكناً في نفوس الناس رجالاً ونساءً، وكان أذى الضرة لا يتجاوز ضرتها، بعكس ما نراه في عصرنا هذا، حيث إنّ الضرر ينتقل من كل ضرة إلى ولدها وإلى سائر الأقارب.

{د. محمد عمارة: الإسلام والمرأة في رأى الإمام محمد عبده، ص ١١١ ــ ١٢٩}

• أو كما يقول الإمام:

"إن إباحة تعدد الزوجات مُضيَّقة، قد اشترط فيها ما يصعب تحققه، فكأنه -أي الشرع- نهى عن كثرة الأزواج، وأنه يُحرِّم على من خاف عدم العدل، أن يتزوج أكثر من واحدة".

{الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده/ ٥: ١٧١ وانظر ما قبلها}

وبعد: فهذه كلمات وآراء الإمام في مسألة تعدد الزوجات، وغيرها من المسائل التي قصد بها إصلاح الأسرة المسلمة، دون خروج منه على النص، لكن مع اجتهاد فيه، وسعة أفق، وإعمال عقل متنور، في سبيل إزاحة الجمود والتعصب والرجوع إلى الوراء، مع نشدان الحق والحقيقة، وإزالة العقبات أمام نور الإسلام.

❁❁❁

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. وصلى الله وسلم على نبينا محمد الأمين، والمبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أهم مصادر الكتاب

١- آرنولد: الدعوة إلى الإسلام. ترجمة د. حسن إبراهيم وزميليه، دون تاريخ، مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة.

٢- أحمد على الملا: أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية. ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م. دار الفكر بدمشق.

٣- أحمد عمر هاشم: الدعوة الإسلامية: منهجها، ومعالمها. ط١٩٩٠م مكتبة غريب بالقاهرة.

٤- أنور الجندي: أصالة الفكر الإسلامي في مواجهة التغريب والعلمانية والتنوير الغربي. ط ١٩٩٦م، دار الفضيلة بالقاهرة.

٥- أنور الجندي: المؤامرة على الإسلام. ط ٢، ١٣٩٨ هـ = ١٩٧٨م دار الاعتصام بالقاهرة.

٦- جمال الدين الأفغاني: الرد على الدهريين. دار الكرنك بالقاهرة "دون تاريخ".

٧- جمال الدين الأفغاني: العروة الوثقى. ط١٨٨٤م باريس.

٨- د. جميل صليبا: المعجم الفلسفي. ج١، ط١، ١٩٧١م. دار الكتاب اللبناني. بيروت.

٩- د. حازم الببلاوي: النظام الاقتصادي الدولي. عالم المعرفة ٢٠٠٠م الكويت.

١٠- د. حامد طاهر: الفلسفة الإسلامية في العصر الحديث. ط٢، ١٩٩٣م. دار الثقافة العربية بالقاهرة.

١١- د. حامد عمار: بين العولمة والهوية الثقافية. وزراة الثقافة بمصر، ٢٠٠٢ القاهرة.

١٢- د. حسن الشافعي: في فكرنا الحديث والمعاصر. ١٤١٠هـ= ١٩٩٠م. دار الثقافة للنشر والتوزيع بالقاهرة.

١٣- د. حلمي محمد القاعود: ثقافة التبعية: المنهج ، الخصائص، التطبيقات. ط١، ١٤١٧هـ = ١٩٩٧م. دار الفضيلة بالقاهرة.

١٤- الزركشي: البرهان في علوم القرآن. ط، الحلبي بمصر.

١٥- د. السيد رزق الطويل: الدعوة إلى الإسلام عقيدة ومنهج، ط. ١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م. نشر رابطة العالم الإسلامى ، مكة المكرمة.

١٦- عباس محمود العقاد: عبقري الإصلاح والتعليم الأستاذ الإمام محمد عبده. "سلسلة أعلام العرب -١ وزارة الثقافة والإرشاد القومي بمصر" دون تاريخ.

١٧- د. عبد الحميد إبراهيم أبو سعدة: المعاهدات والمواثيق في الإسلام. (ضمن صور حضارية من عطاء الإسلام إعداد لجنة التعريف بالإسلام، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. العدد ٩٨، ١٤٢٤ هـ = ٢٠٠٣م).

١٨- عبد القادر المغربي: جمال الدين، ذكريات وأحاديث. ط ١٩٤٨م، دار المعارف بمصر.

١٩- د. عبد الله ناصح علوان: معالم الحضارة في الإسلام وأثرها في النهضة الأوروبية. ط ٢، ١٤٠٤ هـ = ١٩٨٤م دار السلام، بيروت.

٢٠- فتحى يكن: مشكلات الدعوة والداعية. ط ١٤١٠هـ = ١٩٨١م، مؤسسة الرسالة ، بيروت.

٢١- د. كريم أبو حلاوة: الآثار الثقافية للعولمة. عالم الفكر، مجلد ٢٩، ٢٠٠١م الكويت.

٢٢- د. لويس عوض: الإيراني الغامض في مصر. مجلة التضامن، ١٩٨٣/٤/٣٠م العدد الثالث ، ص ٧٠، لندن.

٢٣- مالك بن نبي: شروط النهضة. ترجمة: د. عبد الصبور شاهين، وعمر كامل مسقاوي، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م دار الفكر بدمشق.

٢٤- د. مجدي عبد الحافظ: جمال الدين الأفغاني وإشكاليات العصر. ط ١٩٩٧م المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة.

٢٥- مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز. طبعة وزراة التربية والتعليم بالقاهرة.

٢٦- مجموعة من الباحثين: الإسلام والعولمة. بإشراف: محمد إبراهيم مبروك، ١٩٩٩ الدار القومية بالقاهرة.

٢٧- مجموعة باحثين: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة. ج٢ بإشراف: د. مانع بن حماد الجهني. ط٣، ١٤١٨هـ دار الندوة العالمية بالرياض.

٢٨- محمد الراوي: الدعوة الإسلامية دعوة عالمية. "سلسلة من الشرق والغرب" ١٣٨١ هـ = ١٩٦٢م القاهرة.

٢٩- محمد رشيد رضا: تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده - جزءان. طبع ١٩٣١م القاهرة.

٣٠- د. محمد سيد أحمد المسيّر: الحوار بين الجماعات الإسلامية. ط١، ١٤١٨هـ = ١٩٩٧م دار الطباعة المحمدية بالقاهرة.

٣١- محمد شاكر الشريف: العلمانية وثمارها الخبيثة. ط١، ١٤١١هـ. دار الوطن للنشر بالرياض.

٣٢- د. محمد عبد القادر هنادي: قلاع المسلمين مهددة من داخلها وخارجها. ط١، ١٤٠٨هـ = ١٩٧٨م مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة.

٣٣- د. محمد عبد الله دراز: مدخل إلى القرآن. ط ١٩٧٤م، دار القلم بالكويت.

٣٤- محمد عبده: رسالة التوحيد. ط١، ١٨٩٦م القاهرة.

٣٥- محمد عبده: الثائر الإسلامي جمال الدين الأفغاني. "سلسلة كتاب الهلال، العدد ٢٧٤، ١٩٧٣م" القاهرة.

٣٦- د. محمد عمارة: الإسلام والمرأة في رأى الإمام محمد عبده. ط ١٩٩٧م. دار الرشاد بالقاهرة.

٣٧- د. محمد عمارة: الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده. دراسة وتحقيق د. محمد عمارة، خمسة أجزاء، ط١، ١٩٧٢م المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

٣٨- د. محمد عمارة: جمال الدين الأفغاني "الأعمال الكاملة". ١٩٧٩م، بيروت.

٣٩- د. محمد عمارة: جمال الدين الأفغاني المفترى عليه. ١٩٨٤م، دار الشروق بالقاهرة.

٤٠- د. محمد محمد البهي: الإمام محمد عبده. ترجمه من الألمانية: د. صلاح عبد العزيز محجوب "سلسلة دراسات إسلامية – العدد ٤٧، ١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م" إصدار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة.

٤١- د. محمد محمد البهى: العلمانية وتطبيقها في الإسلام: إيمان ببعض الكتاب وكفر بالبعض الآخر. ط١ ، ١٤٠٠ هـ = ١٩٨٠م، مكتبة وهبة بالقاهرة.

٤٢- د. محمد محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي. ط٢، ١٩٦٠م القاهرة.

٤٣- د. محمد المخزومي: خاطرات جمال الدين الحسيني. ط ٢، ١٩٦٥م دار الفكر الحديث لبنان.

٤٤- د. محمود حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري. ط٢، ١٤٠٩ هـ = ١٩٨٩م دار المنار بالقاهرة.

٤٥- د. محمود التجيري: أكذوبة الأصولية الإسلامية. ط ١٩٩٨م دار البشير بالقاهرة.

٤٦- مسلم (الإمام): مقدمة صحيح مسلم بشرح النووي. دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٤٧- مصطفى عبد الرازق: تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية. ط. ١٩٦٦م القاهرة.

٤٨- د. مصطفى السباعي: الاستشراق والمستشرقون. ط ١٩٦٨م، مكتبة دار البيان ، الكويت. ٤٩ -

٤٩- د. مصطفى السباعي: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي. ط ١٩٧٨م بيروت.

٥٠- د. هيثم مناع: الأصولية الإسلامية وحقوق الإنسان. ط ١٩٩٩م، مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان.

٥١- د. يوسف القرضاوي: ثقافة الداعية. ط ١٣٩٦ هـ، نشر الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية بالكويت. "كتاب رقم ٢٦".

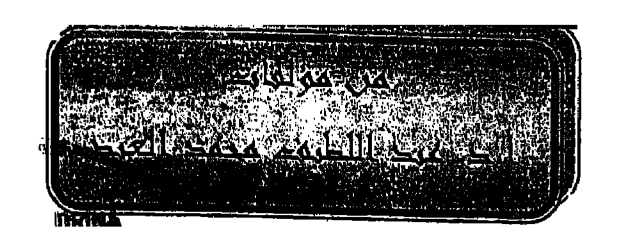
٥٢- د. يوسف القرضاوي: مستقبل الأصولية الإسلامية. ط١، ١٤١٧ هـ = ١٩٩٧م. مكتبة وهبة بالقاهرة.



فهرس الموضوعات لكتاب:

" قضايا من الفكر الإسلامي الحديث"

❁❁❁



- الإنسان في فكر إخوان الصفاء (رسالة ماجستير). ١٩٧٦م مكتبة الأنجلو المصرية، بالقاهرة.
- أصول الفكر الفلسفي عند أبي بكر الرازي (رسالة دكتوراه). ١٩٧٧م مكتبة الأنجلو المصرية، بالقاهرة .
- التفكير المنطقي- ط٢ ، ١٣٩٩هـ=١٩٧٨م مكتبة دار النهضة العربية ، بالقاهرة .
- دراسات في الفلسفة الإسلامية. ١٣٩٩هـ =١٩٧٨م مكتبة النهضة المصرية .
- الحدود في ثلاث رسائل ، للفاكهي وإخوان الصفاء وابن سينا.(تقديم وإعداد) ١٣٩٩هـ=١٩٧٩م دار النهضة العربية بالقاهرة .
- تأملات في الفكر الإسلامي. ١٤٠٢هـ=١٩٨٢م مكتبة النهضة المصرية .
- دراسات في فكر ابن تيمية. ١٤٠٢هـ=١٩٨٢م مكتبة النهضة المصرية .
- ست رسائل من التراث العربي الإسلامي.(تقديم وتحقيق) ١٤٠٢هـ=١٩٨٢م مكتبة النهضة المصرية .
- الأخلاق في الإسلام. ١٤٠٦ هـ=١٩٨٦م مكتبة دار الثقافة العربية بالقاهرة .
- الفكر الفلسفي في الإسلام. ١٤٠٦ هـ=١٩٨٦م مكتبة دار الثقافة العربية بالقاهرة .
- إصلاح النفس : بين الرازي في الطب الروحاني، والكرماني في الأقوال الذهبية. (دراسة وتحقيق) ط٢ ١٤٠٦هـ=١٩٨٦م مكتبة دار الثقافة العربية بالقاهرة .
- التصوف في الإسلام وأهم الاعتراضات الواردة عليه. ط١ ، ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م دار الثقافة العربية بالقاهرة .
- الفكر الفلسفي في ضوء الإسلام. ١٤١٤ هـ=١٩٩٤م دار الثقافة العربية بالقاهرة .
- أصول محبة الله ﷻ، مع الرد على كتاب السر الأعظم للدكتور مصطفى محمود. ١٤١٤ هـ=١٩٩٤م دار الثقافة العربية بالقاهرة .
- فليعودوا إلى الصراط المستقيم . ١٤١٤ هـ=١٩٩٤م دار الثقافة العربية بالقاهرة .
- رد مزاعم المبطلين عن أصول الدين ، الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ = ١٩٩٦م، دار الثقافة العربية بالقاهرة .
- قضايا من الفكر الإسلامي الحديث. الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ = ٢٠٠٥م دار الهاني، بالقاهرة.